بسم الله الرحمن الرحيم

الصورة النباتية في الأسلوب القرآني
"مفهومها ودلالاتها"

تأليف/ الدكتور

أحمد عبد الله عيسى

دكتوراه في الآداب – قسم اللغة العربية – كلية الآداب – جامعة عين شمس

محاضر بقسم اللغة العربية – كلية الآداب – جامعة عمر المختار- ليبيا

١٤٢٩هـ ------ ٢٠٠٨م

دار المصري للطباعة

ت: ٠٥٠٧٤٨٢٩٢٩ / ٠١٠٣٣٨٨٩١١

يطلب من مكتبة السعادة

ت: ٠٥٥٣٣٠٠٧٤٢ / ٠١٠٣٩٤٩٦٤٨

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية

٢٠٠٨/١١٣٨٠



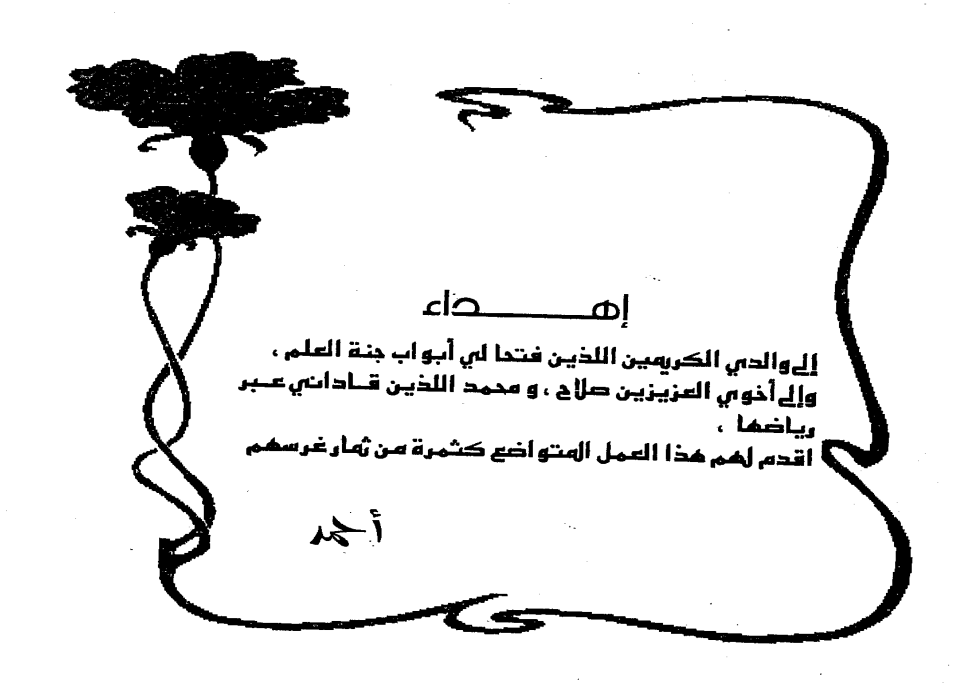
بسم الله الرحمن الرحيم

وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا

ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾

صدق الله العظيم

سورة الحج



إهـــــداء

إلى والدي الكريمين اللذين فتحا لي أبواب جنة العلم ،
وإلى أخوي العزيزين صلاح ، و محمد اللذين قاداني عبر رياضها ،
اقدم لهم هذا العمل المتواضع كثمرة من ثمار غرسهم

أحمد

كلمة شكر

أتوجه بالشكر والعرفان إلى أستاذى الفاضل، الأستاذ الدكتور /عاطف جودة نصر . أستاذ الأدب العربى بكلية الآداب جامعة عين شمس الذى تفضل مشكوراً بالإشراف على هذه الدراسة وأشكر فيه نفسه المقدرة للعلم والبحث .

كما أشكر أستاذىّ الجليلين الأستاذ الدكتور إبراهيم عبد الرحمن ، الأستاذ بآداب عين شمس ، والأستاذ الدكتور سعد أبو الرضا الأستاذ بآداب بنها ،اللذين تفضلا مشكورين بمناقشة هذا البحث، فكانت ملاحظاتهما خير نبراس لى في أعمالى التالية .

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
- المقدمة .	أ
- تمهيد في التفسير الموضوعي لآيات القرآن .	١
- الفصل الأول : النبات في التراث الديني الجاهلي .	٧
- هوامش الفصل الأول .	١٨
- الفصل الثاني : الظواهر الكونية وعلاقتها بالنبات .	٢٠
- هوامش الفصل الثاني .	٣١
- الفصل الثالث : الظاهرة المائية وعلاقتها بالنبات .	٣٣
- هوامش الفصل الثالث .	٥١
- الفصل الرابع : النبات بين الحياة والموت .	٥٣
- أولاً : في الآيات المكية .	٥٤
- ثانياً : في الآيات المدنية .	٦٥
- هوامش الفصل الرابع .	٧٦
- الفصل الخامس : النبات بين الجنة والنار .	٧٨
- أولاً : النبات في الجنة .	٧٩
- ثانياً : النبات في النار .	٨٩
- هوامش الفصل الخامس .	٩٦
- الفصل السادس : النبات وضرب الأمثال .	٩٨
- مدخل :	٩٩
- أولاً : في الآيات المكية .	١٠٣
- ثانياً : في الآيات المدنية .	١١٠
- هوامش الفصل السادس .	١١٨
- الفصل السابع : النبات في القصص القرآني .	١٢٠
- ١- في قصة آدم عليه السلام .	١٢٢

- ٢- في قصة موسي عليه السلام . ١٢٤
- ٣- في قصة مريم . ١٢٧
- ٤- في قصة يوسف عليه السلام . ١٢٩
- ٥- في قصة يونس عليه السلام . ١٣١
- ٦- في قصة إبراهيم عليه السلام . ١٣٢
- ٧- في سيرة محمد صلى الله عليه وسلم . ١٣٣
- ٨- في قصة أصحاب الجنة . ١٣٥
- ٩- سبأ وجناتهم . ١٣٦
- هوامش الفصل السابع . ١٣٨
- الفصل الثامن : النبات والتسبيح . ١٤٠
- هوامش الفصل الثامن . ١٤٧
- الخاتمة . ١٤٨
- الفهارس . ١٥٩
- ١ فهرس بألفاظ النباتات والأشجار الواردة في الكتاب. ١٦٠
- ٢- فهرس أسماء الأعلام . ١٦٤
- المصادر والمراجع . ١٦٧

مقدمة

الحمد لله الذي أنزل الكتاب علي خاتم المرسلين ، انزله قيماً ولم يجعل له عوجا ، انزله ليخرج الناس من الظلمات إلي النور ، انزله علي قلب رجلٍ صادقٍ عاش بين قوم بلغوا من الفصاحة واللسن والبيان مبلغاً فائقاً ، مبلغا جديرا بأن يقابل بمعجزة تتناسب مع جنس ما نبغوا فيه .

لقد نبغ العرب في فن القول ،وحوك الكلام والعناية به عناية جعلتهم يجيدونه نثراً وشعراً . ولا يخفي علي كل مثقف ما وصل إليه شعراؤهم وخطباؤهم من قوة بيان ، وقدرة علي الحديث في أي مكان وأي زمان دون تانٍ او تفكير او كتابة ما يقال قبل الإلقاء به .

تلك كانت معجزة العرب ، اللغة الادبية العالية والجزلة في الوقت نفسه ، والفصاحة والبيان والقدرة علي قول الشعر دون روية أو تفكير .

فلابد ان تكون المعجزة من نفس هذا الجنس الذي نبغوا فيه ، فكانت معجزة القرآن الكريم الخالدة ، هذه المعجزة التي خرقت عاداتهم في البيان وحسن اللسان ، وتحدتهم علانية ان ياتوا بمثله فعجزوا ، او ياتوا بعشر سور فكان العجز اوضح ، وتحدتهم أن ياتوا بسورة ، ثم باية .... فتاكد لهم قوله عز وجل "قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾" (١)

. وثبت عجزهم وضعفهم امام قدرته عز وجل وامام معجزته الخالدة التي ميز بها نبيه الكريم محمدا صلي الله عليه وسلم .

لقد حملت هذه المعجزة - القرآن الكريم - بين ثناياها احاديث عن موضوعات جمة ، وموضوعات يلاحظ فيها المتدبر لاياته جديداً عند كل قراءة متانية ، ولم لا وهو القائل "مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَـٰبِ مِن شَىْءٍ ﴿٣٨﴾ (٢) .

ولا اظن كثرة الموضوعات في القرآن الكريم غير تحد آخر للعرب وغيرهم من المعاندين المجادلين الذين ينكرون هذا الكتاب المبين . إذ يريد أن يلفت انتباههم إلي أنه مثلما ثبت عجزهم أمام سوره وآياته ، فقد ثبت أيضا امام موضوعاته ، فلم ولن يستطيعوا ان ياتوا بموضوع واحد من مثل موضوعات القرآن ، علي الرغم من كونها في صميم بيئتهم وتخص حياتهم المادية والروحية .

ومن الموضوعات المهمة بالنسبة للإنسان ، بل ويمكن القول : إنها تهم كل كائن حي " النبات " ، إذ قدم القرآن أوصافاً دقيقة له ، وأورده في موضوعات وآيات كثيرة وبصور ومفاهيم ودلالات متنوعة تدل علي دقة إعجاز هذا الكتاب الخالد .

لقد كثر الشعر العربي قبل نزول القرآن ، وكثر استخدام الشعراء العرب – من خلال أشعارهم – للنباتات والاشجار الموجودة في بيئتهم ، ليس هذا فقط بل يمكن القول إن النباتات والاشجار برزت في جُلّ موضوعات شعرهم ، من غزل وطلل ووصف ومديح وهجاء ورثاء .... ، فكانوا لا يكتبون

شعرا في موضوع من الموضوعات إلا يذكرون فيه نباتا أو شجرا من واقع بيئتهم المحيطة بهم ، واقرأ إن شئت أشعار الغزل والطلل عند امرئ القيس أو عند غيره من شعراء الجاهلية المشهورين بهذا الضرب من الشعر فستجد النبات ماثلاً في تلك الأشعار ، إذ استخدموا النخلة وعنقودها ، والبان وأغصانه والرمان وطعمه ، والاقحوان ولونه ، والعنم واستواءه........(٣) مما يشي بأن هذا الكائن الحي ، كانت له أهميته عندهم ،لا فيما يخص إشباع غريزة الطعام وحدها ، ولكنه امتد إلى عالم الشعر ،و إشباع الرغبة في الوصف واستحضار الصورة البيانية الرائعة من واقع بيئتهم التي يحيون فيها .

والسؤال الآن : هل كان استخدام الأسلوب القرآني لصورة النبات مثل استخدام الشعراء الجاهليين له من خلال أشعارهم ؟

لقد فاقت الكلمة القرآنية كل كلمة ، وفاقت بلاغته كل بلاغة .لقد استخدم القرآن النبات في جوانب تمس حياة الإنسان ومنفعته في المقام الأول .وبقراءة الآيات القرآنية – سواء المكية أو المدنية – نلاحظ أن النبات دخل في موضوعات كثيرة من موضوعات القرآن ، بل يمكننا القول إنه كان طرفا ثانيا من أطراف الصورة القرآنية في كثير من الأحيان .

لقد ورد النبات في الآيات المكية مختلفا عنه في الآيات المدنية ، وورد في الآيات التي تتحدث عن الجنة مختلفا عنه في الآيات التي تتحدث عن النار ،وورد في سياق الأمثال القرآنية المكية مختلفا عنه في الأمثال القرآنية المدنية وورد في القصص القرآني بصور ودلالات متنوعة ، إذ ورد في قصة آدم وفي قصة موسى وفي قصة عيسى ومريم ، وفي قصة يوسف ، وفي قصة يونس ، وفي قصة إبراهيم ، وورد في سيرة نبينا – محمد – عليه الصلاة والسلام .

لا وجه للمقارنة إذن بين الصورة التي رسمها القرآن للنبات وتلك التي رسمها الشعراء له . لقد كان النبات من الموضوعات العديدة التي ضمها الأسلوب القرآني ، متحدياً بها العرب ومؤكدا قدرة الله تعالى ، ومؤيدا دعوة محمد . كل ذلك من خلال التوجيه القرآني للطبيعة الغنية بمظاهر قدرة الله تعالى . ذلك التوجيه الذي جعل المسلمين الأولين يعنون بالقرآن عناية كبرى شملت كل جوانبه ، فكانت لها آثارها المباركة ، التي أفاد منها كل مظهر من مظاهر النشاط الفكري والعلمي عرفه الناس في حياتهم المادية والروحية .

من هنا كان انتباهي لدراسة هذا الموضوع " النبات في الأسلوب القرآني " إذ لفت نظري وجود آيات قرآنية في سياقات متنوعة ، يوجد بها ذكر لأحد أنواع النبات والشجر الذي عرفه الإنسان على مر العصور ، وما لم يعرفه أو يسمع به إلا من خلال الأسلوب القرآني .فأردت أن أقف على هذه الآيات وأدرسها دراسة تقف على دلالاتها وكيفية تصويرها لهذا الكائن الحي الدقيق .

وأنا حينما أقول النبات في القرآن ، فإنني أعني بذلك كل النباتات والأشجار ومشتقاتها التي ورد ذكرها في الأسلوب القرآني ، إذ ورد ذكر لأنواع نباتية كثيرة من خلال آيات القرآن الكريم ، مثل النخيل والرمان والزيتون والعنب والقضب ، والحب والريحان ، والزقوم والسدر والطلح .... فكيف كان استخدام الأسلوب القرآني لهذه النباتات وهذه الأشجار ؟

هذا ما نود الإجابة عنه من خلال بحثنا في هذا الكتاب – القرآن الكريم – كتاب العربية الأول والأكبر الذي لم يترك شيئا في هذا الكون إلا تحدث عنه ، ولم لا وقد خلق الله الكون لعبادته والتسبيح بحمده حتى " النبات " الذي تحدث عنه الفنانون بمختلف طوائفهم كل حسب وسيلة تعبيره ، في القديم والحديث ، لكنهم لم يستطيعوا رسم صورة دقيقة ورائعة مثل هذه الصورة التي رسمها

الأسلوب القرآني للنبات بأشكال وتنويعات متباينة ؟ ومهما تقدمت الفنون ووسائلها فلن تأتي بمثل ما اتى به القرآن في مجال تصويره لهذا الكائن الحي .

لقد حظي النبات بجانب عظيم من عناية القرآن ، جانب جعله جديرا بأن يدرس دراسة شاملة وافية لكل أنواعه . ولقد وضح هذا الأمر عندما جمعت الآيات التي تتحدث عن النبات ووجدتها كثيرة وذات مفاهيم ودلالات متنوعة وشاملة لموضوعات مختلفة .

والقرآن كتاب العربية الأول الذي لا ينتهي البحث فيه ، ولا يصل الباحث فيه إلى قول فصل، ولا إلى رأي قاطع ، وهذه أولى سمات هذا الكتاب الخالد أن يظل مشغلة الناس إلى قيام الساعة ، فكل يوم تتكشف فيه أمور جديدة ، فيعكف الناس على درسه وتفهمه ، من أجل فهم حياتهم الفهم الصحيح الذي يتناسب والعقيدة الإسلامية السائرة وفق تطور الأزمان والعقول .

لهذا فإن هذه محاولة ، يهمني من ورائها قبولها عند الله ثم عند قارئيها والله الموفق والهادي إلى الطريق المستقيم . فهو القائل : " وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ " (٤)

د/ أحمد عبد الله عيسى

كلية الآداب – جامعة عمر المختار

dr_ahmedessa2000@yahoo.com
dr.ahmadessa@gmail.com

---

[1] سورة الإسراء - الآية (٨٨)

[2] سورة الأنعام - الآية (٣٨)

[3] توجد رسالة دكتوراه حول هذا الموضوع بعنوان "رمز النبات في الشعر الجاهلي : " دراسة فنية " . آداب عين شمس . ٢٠٠٠ . وهي الآن معدة للطبع والنشر . للمؤلف .

[4] سورة الإسراء - الآية (٨٥)

تمهيد في التفسير الموضوعي
لآيات القرآن الكريم

تمهيد في التفسير الموضوعي لآيات القرآن الكريم

حظي النبات - من بين- الكائنات الحية بجانب عظيم من كتاب الله ، ولم لا والنبات كائن حي يخرج من الأرض ، وينمو ويتكاثر ويحافظ على نوعه ، وتتوافر فيه صفات كثيرة مما يتوافر في الإنسان وسائر الكائنات الحية الأخرى ؟

ومن خلال قراءتنا ودراستنا للآيات التي تضم نباتات في أسلوب القرآن نستطيع القول ، إن القرآن عُنى بالنبات عناية فائقة ، فهو في الأسلوب القرآني وسيلة من وسائل تشبيه الغائب غير المدرك بالمحسوس المدرك ، وسبيل لتقريب البعيد إلى الأفهام ، فحين يقول الله عز وجل "وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ " (١)

فإنه يكون قد شبه لنا الغائب غير المدرك ، وهو إحياء العظام بعدما صارت رميما – بالمحسوس المدرك ، وهو تحويل الشجر الأخضر إلى نار ، موقدة بيد الإنسان ، إنه الاقتدار الإلهي الذي يعلو كل اقتدار .

وهو – سبحانه – حين يقول : " وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ " (٢) فإنه بذلك يكون قد قرب الصورة البعيدة إلى الأفهام ، صورة إحياء الموتى حين شبهها بلحظة إنزال الماء على الأرض واهتزازها وتمددها وانتعاشها بإخراج النبات من بطنها .

من هنا كان انتباهي لهذا الموضوع – موضوع " النبات في الأسلوب القرآني" - ، ذلك الموضوع الذي وجدت فيه حيوية وحياة وقدرة واقتدار إلهيين ، إلى جانب الإعجاز البياني الذي نلمسه . وهو موضوع لم يوله أحد من الدارسين قديما وحديثا اهتماما يليق به ، فقد لاحظت أن المفسرين القدماء والمحدثين حينما تحدثوا عن هذا الموضوع كان حديثهم في إطار تفسيرات للآيات التي تضم ألفاظ النبات ومشتقاته ، دون الالتفات إلى تجميع الآيات التي تحمل صورا نباتية وضمها جنبا إلى جنب وتكوين موضوع واحد منها .

وكان هذا منهجي ، حيث قمت بتجميع الآيات القرآنية التي تتحدث عن النبات وتصوره ، سواء بطريقة مباشرة ، أي يرد فيها لفظ النبات أو أحد أنواعه ، أو بطريقة غير مباشرة أي تتحدث عن شيء يرجع في أصله إلى النبات مثل الزكاة والإنفاق وغيرهما .فمنهجي إذن منهج يقوم على التفسير الموضوعي للقرآن الكريم ، مع جنوح إلى الصورة البيانية لأن النبات كما ذكرت أحد طرفي أروع التشبيهات في القرآن الكريم .

ومن المعروف أن هناك ثلاثة اتجاهات من التفسير هي :

التفسير التحليلي **التفسير الإجمالي** **التفسير الموضوعي**

التفسير التحليلي

والتفسير التحليلي هو التفسير "الذي يمضي المفسر من خلاله في تفسيره للقرآن مع النظم القرآني على ما هو موجود مرتب في المصحف محللاً آية بعد آية وسورة بعد سورة ، متتبعاً معاني المفردات ، ذاكراً ما تضمنته المعاني في جملها وما ترمي إليه في تراكيبها ، منقباً عن المناسبات بين مفاصلها ، مستعيناً بذكر أسباب النزول ، وما أثر عن النبي - صلى الله عليه وسلم - وما نقل عن الصحابة و التابعين ، وهذا اللون من التفسير يتفاوت فيه المفسرون بين الإطناب والإيجاز كذلك يتباينون من حيث المنهج ٣.

أما التفسير الإجمالي " فهو التفسير الذي يعمد فيه الباحث المفسر إلى الآيات القرآنية ، على ترتيب تلاوتها في المصحف " ، فيقصد إلى معاني جملها . ومن أمثلته في القديم تفسير الجلالين للسيوطي ، وفي الحديث تفسير محمد فريد وجدي ٤ .

فإذا ما جئنا إلى التفسير القائم عليه منهجي ، قلت إنه " التفسير الذي يعمد فيه الباحث إلى الآيات القرآنية التي تتصل بموضوع واحد فيجمعها ، ويقرؤها قراءة واعية ، ويقسمها إن اقتضى الأمر تقسيما آخر داخليا بحسب الموضوع أيضا. من هنا كانت تسميته بالتفسير الموضوعي نسبة إلى وحدة الموضوع الذي يعالجه (٥)

وبما أنني بصدد بحث عن النبات في القرآن فسوف أسير على نفس هذا اللون من التفسير طوال بحثي .

ولا شك أن هذا اللون من التفسير له جذور قديمة ، قد تمتد إلى أيام الرسول – صلى الله عليه وسلم - والصحابة حيث كانوا يفسرون القرآن بالقرآن حتى إذا جاء ابن تيمية خلص إلى أن خير طرق التفسير هي أن يفسر القرآن بالقرآن ، وطبق منهجه على بعض سور القرآن مثل سورة النور (٦) . وبعض سور قصار من جزء عمّ ، وخص سورتي المعوذتين برسالة مستقلة ، وأفرد كتاباً لتفسير سورة الإخلاص . وتفسير كل آية من آيات هذه السور عنده يتحول إلى بحث في مضمونها من خلال القرآن كله .

وفي العصر الحديث ، وبالتحديد في نهاية القرن الماضي نجد عالماً جليلاً يضيف إضافة جديدة إلى هذا اللون من التفسير ، وهذا العالم هو الإمام محمد عبده . إذ قدم تفسيراً دقيقاً لجزء عمّ . تحدث عن وحدة الموضوع في السورة مما جعله يدوّن كل الآيات التي تتصل بالموضوع الواحد أو معظمها من خلا ل تفسيره لأحد أجزاء القرآن الكريم (٧).

ولقد سار على نفس المنهج الأستاذ سيد قطب في تفسيره " في ظلال القرآن " حيث قدم تفسيراً كاملاً للقرآن الكريم . وقد ألف كتابين عظيمين يسيران في نفس هذا الاتجاه هما " التصوير الفني في القرآن " و " مشاهد القيامة في القرآن " وثلاثتها أي الظلال والتصوير والمشاهد تسير في طريق واحدة . وإن كان كتاب " المشاهد " هو الوحيد الذي يتصل اتصالا مباشرا بالموضوع . وذلك لأنه أخذ موضوعاً واحداً من القرآن ودرسه دراسة وافية شاملة لكل جوانبه .

هذه هي أفضل طرق التفسير الموضوعي ، وهى أن يركز الباحث علي موضوع واحد في القرآن كله . كأن يركز على قصة مثلاً أو على الجنة أو النار أو على موضوع مثل موضوع النبات ثم يدرسه دراسة دقيقة مستعيناً بما كتبه السابقون عن الموضوع بعد جمع كل ما يتعلق به .

وفى حقل الدراسات الجامعية اصطنع هذا المنهج نفسه الدكتور شوقي ضيف . إذ قدم تفسيراً لإحدى سور القرآن على هذا المنهج ،هي سورة الرحمن من خلال كتابه " سورة الرحمن وسور قصار" (٨) وقدم تفسيرا دقيقا وعرضا قيما لهذه السور ، جمع من خلاله كل الآيات التي تتحدث عن موضوعات هذه السور حتى لكأننا نجد أنفسنا أمام تفسير شامل لكل آي الذكر الحكيم .

وشبيه بهذه المحاولة كتاب الدكتورة عائشة عبد الرحمن بعنوان "التفسير البياني للقرآن الكريم " ويفهم من العنوان أنه تفسير موضوعي بياني ، لكنها طبقته على بعض سور القرآن وليس على موضوع واحد في القرآن كله .

وكما يفهم من مقدمة الكتاب فإنها تلقت هذا المنهج عن أستاذها أمين الخولي حيث تقول " والأصل في منهج هذا التفسير كما تلقيته عن أستاذي هو التناول الموضوعي الذي يفرغ لدراسة الموضوع الواحد فيه ، فيجمع كل ما في القرآن منه ، ويهتدي بمألوف استعماله للألفاظ والأساليب بعد تحديد الدلالة اللغوية لكل ذلك ..... وهو منهج يختلف عن الطريقة المعروفة في تفسير القرآن سورة سورة ، يؤخذ اللفظ أو الآية مقتطعاً من سياقه العام في القرآن كله مما لا سبيل إلى الاهتداء معه إلى الدلالة القرآنية لألفاظه أو لمح خواطره الأسلوبية وخصائصه البيانية (٩).

ولم يكن التفسير البياني للدكتورة عائشة هو كتابها الوحيد الذي درس القرآن دراسة بيانية ولكنها كتبت في هذه الناحية كتاباً آخر هو " الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق " . وقريب من منهج التفسير الموضوعي منهج الأستاذ الشعراوي الذي طلع علينا بخواطره حول القرآن الكريم في أوائل هذا العقد من هذا القرن . حيث فسر القرآن بالقرآن ، ولم يكتف بذلك بل تطرق إلى تطبيق المعجزات القرآنية خاصة في مجال الكونيات على مخترعات العصر ومكتشفاته .

أما عن السبب الذي من أجله تكررت الآيات التي تتعلق بالموضوع الواحد في القرآن الكريم فقد أخبرنا الله عز وجل به حين قال " ﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾" (١٠)

ولقد دافع عن ذلك الخطابي حين قال " وأما قولهم لو كان نزول القرآن على سبيل التقسيم ،فيكون لكل نوع من أنواع علومه حيز وقبيل ، لكان أحسن نظما وأكثر فائدة ونفعا ، فالجواب أنه إنما نزل القرآن على هذه الصفة من جمع أشياء مختلفة المعاني في السورة الواحدة وفي الآية المجموعة القليلة العدد لتكون أكثر فائدة وأعم لنفعه . ولو كان لكل باب منه قبيل ولكل معنى سورة مفردة لم تكثر عائدته ولكان الواحد من الكفار إذا سمع السورة منه ، لا تقوم عليه الحجة إلا في النوع الواحد الذي تضمنته السورة الواحدة فقط . فكان اجتماع المعاني الكثيرة في السورة الواحدة أوفر حظاً وأجدى نفعاً من التمييز والتفريد للمعنى الذي ذكرناه (١١).

إن تكرار الموضوعات في القرآن من باب إعجاز القرآن الكريم ليؤكد للعرب المجادلين أنه من عند الله إذ سبق أن تحداهم أن يأتوا بمثله أو بعشر سور من مثله أو بسورة أو بآية فلم يستطيعوا ، فهو يكرر لهم الموضوعات التي لا يعلمونها لأنهم أيضا لن يستطيعوا أن يأتوا بموضوع منها رغم تكرارها في القرآن الكريم .

ومن خلال الاطلاع على بعض الدراسات التي فسرت القرآن تفسيرا موضوعيا أستطيع القول : إن المفسر الذي يفسر القرآن تفسيراً موضوعياً ينهج أحد هذه المناهج :

١) أن يفسر القرآن كله تفسيراً موضوعياً . وهذا المنهج على الرغم من قيمته لأنه سوف يفسر القرآن كله فإنه لن يخلو من حشو وتكرار لبعض الفقرات ، وذلك لأن هناك موضوعات كثيرة في القرآن مكررة مما يضطر المفسر إلى تكرار ما قاله في أماكن متفرقة من تفسيره .

٢) أن يجعل السورة القرآنية هي وحدته الموضوعية فينظر إليها نظرة شمول وإحاطة مهما تعددت موضوعاتها (١٢). وتباينت مناسبات نزولها .

٣) والمنهج الثالث هو المنهج التكاملي للموضوع الواحد من القرآن حيث تجمع الآيات القرآنية ذات الهدف المشترك ثم ترتب زمنيا حسب نزولها ما أمكن ذلك مع الوقوف على أسباب هذا النزول إن وجد ثم تناولها تناولاً تحليليا بالتفسير والبيان مع الربط بين أولها وآخرها (١٣) .

ولكن ألم يكن البدء بتحديد معنى " النبات " في المعاجم والتفاسير أفضل ؟

أقول إنني لم أوثر تحديد معنى " نبت" معجمياً وتفسيرياً لأن حديثي لن يدور حول ما يشتق من هذا اللفظ فقط ، وكذلك لأن لفظ النبات تدخل تحته جميع أنواع النباتات الأخرى من زيتون ونخل ورمان وعنب ..... إلى غير هذه الأنواع المذكورة في القرآن الكريم . وكذلك لأن النبات في القرآن له مفهومات ودلالات كثيرة سوف نلاحظها ونحن نخوض غمار البحث . ذلك أنني أجد المفهوم والدلالة يختلفان في الآيات المكية عنهما في الآيات المدنية ،يختلفان في الجنة عنهما في النار ، يختلفان في الأمثال عنهما في القصة.....

إن منهج البحث سيكون من خلال طريقين يفضي كلاهما إلى الآخر :

الطريق الأول : تمثل في إبراز دور النبات في حياة الإنسان الأولى ، وحياته الآخرة ، ولقد ضم هذا – بطبيعة الحال – حديثا عن علاقة النبات بالماء ، وحديثا عن دور النبات في الإنفاق والزكاة ، وحديثا عن دوره في القصص القرآني ، وحديثا عن دوره في الجنة والنار ، فضلا عن إيضاح دوره في الحياة الدنيا .

الطريق الثاني : تمثل في اتخاذ الآيات النباتية طرفا ثانيا فيما يسوق القرآن من أمثال تدل على قدرة الله تعالى على البعث والنشور .

وهكذا دار البحث على ثمانية فصول هي :

الفصل الأول : عن النبات في نظر العرب قبل الإسلام ، وذلك من خلال تراثهم الديني ، إذ السياق سياق حديث عن النبات في القرآن ، فلابد أن نعرف هل له دور في ديانتهم الوثنية القديمة أم لا ؟ حتى تتسنى لنا فرصة معرفة الفارق الكبير بين النظرة الإنسانية الجاهلية للنبات وبين التوجيه الإلهي له ، من خلال السياق القرآني البليغ . ولهذا كان عنوانه " النبات في التراث الديني الجاهلي " .

والفصل الثاني : بعنوان " الظواهر الكونية وعلاقته بالنبات " من سماء وما تحوى ، وأرض وما تضم ، بما في ذلك الإنسان المخلوق الأول الذي تعود عليه الفائدة من ذلك كله .

أما الفصل الثالث : فهو بعنوان " الظاهرة المائية وعلاقتها بالنبات " إذ من المعروف أن علاقة الماء بالنبات ضرورية ،أو إذا أردنا الدقة قلنا إنها علاقة الذكر بالأنثى ، فلا نبات بدون ماء،ولا حياة بدونهما معاً مصداقا لقوله تعالى :" وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ " (١٤).

أما الفصل الرابع : فكان عنوانه " النبات بين الحياة والموت " ففي وجود النبات حياة للإنسان بل لكل كائن حي ، وفي عدم وجوده موت وهلاك ، لكن ما الصورة التي قدمها الأسلوب القرآني لإيضاح هذه الحقيقة ؟ هذا ما سوف نعرفه من خلال هذا الفصل الذي قسمته قسمين :

أولهما : النبات وعلاقته بالحياة والموت في الآيات المكية .

وثانيهما : النبات وعلاقته بالحياة والموت في الآيات المدنية .

وهذا لأن الحياة في مكة اختلفت عنها في المدينة ، لذلك فإن ما وجه لأهل مكة من حديث عن النبات يختلف عما وجه لأهل المدينة في السياق نفسه .

وعن الصورة التي رسمها القرآن للجنة والنار . ومن الطبيعي أن يكون للنبات دور فيها ، دار الفصل الخامس من البحث ، وعنوانه " النبات بين الجنة والنار ".

وقسّم هذا الفصل قسمين :

الأول : النبات في الجنة .

الثاني : النبات في النار .

أما الفصل السادس :فهو بعنوان " النبات وضرب الأمثال " وهذا الفصل ظهرت فيه الصورة البيانية للنبات عن غيره من الفصول ، لأن النبات كان أحد أطراف الصورة ، أي مشبهاً به .

وجعلت هذا الفصل أيضاً قسمين :

الأول : النبات وضرب الأمثال في الآيات المكية .

الثاني : النبات وضرب الأمثال في الآيات المدنية .

ثم جاء الفصل السابع ،وكان بعنوان " النبات في القصص القرآني " إذ ظهر للنبات دور في بعض قصص القرآن وهي : قصة آدم والشجرة – قصة موسى مع فرعون ثم مع قومه – قصة مريم والنخلة – قصة يوسف وسنابل فرعون – قصة يونس واليقطينة

– إبراهيم والدعاء لمكة بالرزق من الثمر – سيرة سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم في القرآن – قصة أصحاب الجنة في سورة القلم – سبأ وجناتهم .

وكان الفصل الثامن خاتمة الفصول ، وعنوانه " النبات والتسبيح " من منطلق أن كل شيء يسبح بحمد الله ، لقوله تعالى " وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴿٤٤﴾ [15]

ثم جاءت خاتمة البحث توضح أهم النتائج التي قدمها ، والجديد الذي أضافه للمكتبة العربية والإسلامية .

وهدفي من ذلك كله هو التمرس بتحليل النصوص الأدبية ، والوقوف على رموزها ودلالاتها لأن تحليل النص الأدبي من المواد القيمة التي درستها في هذه المدرسة العريقة " مدرسة عين شمس " علي يد نخبة من الأساتذة النقاد الكبار الذين أسعدني أن أتوجه لهم جميعا بخالص شكري وعرفاني .

وأتوجه بالشكر الخاص لصاحب هذه الفكرة القيمة الأستاذ الدكتور / عاطف جودة نصر ، الذي تعلمت علي يديه كيفية تحليل عمل أدبي في السنة التمهيدية للماجستير خاصة من خلال كتابيه " الخيال" ، " النص الشعري " فله مني خالص شكري وتقديري

وبعد فهذه محاولة بسيطة لا أرجو من ورائها إلا ثواب العمل وبعض إعجاب القارئين ، والله الموفق والهادي إلى الرشاد .

****

هوامش التمهيد

[١] سورة يس الأيات (٧٨ – ٨٠)
[٢] سورة فصلت - الآية (٣٩)
[٣] د. احمد العمري :"دراسات في التفسير الموضوعي " ، الخانجي ، ط١ ، ١٩٨٦ ، ص ٣٨
[٤] المرجع السابق ص ٤٢
[٥] المرجع السابق ص ٤٣ – ٤٤
[٦] انظر هذا التفسير ، ط مطبعة دار الأمانة ، نشر دار الوعي ، حلب ١٩٧٧ .
[٧] انظر هذا التفسير طبع دار ابن زيدون ، بيروت ، ط٢ ١٩٨٩ م .
[٨] طبع دار المعارف ، الطبعة الثانية
[٩] د. بنت الشاطئ : التفسير البياني ، ج١ ، ص١٧دار المعارف ط٧ .
[١٠] سورة القصص - الآية (٥١)
[١١] إعجاز القرآن ، ص٥٤ ، دار المعارف بمصر، ط٤ ضمن ثلاث رسائل . تحقيق ، د. محمد خلف الله أحمد ، د. محمد زغلول سلام .
[١٢] د. أحمد العمري ، المرجع السابق ، ص ٧٠ .
[١٣] المرجع السابق ص ٧٢ .
[١٤] صورة الأنبياء - الآية (٣٠)
[١٥] سورة الإسراء – الآية (٤٤) .

الفصل الأول

النبات في التراث الديني الجاهلي

عرف الباحثون الدين بأنه " إيمان بكائنات تكون فوق الطبيعة البشرية ، وهو استمالة واسترضاء لتلك القوى التي تدير سير الطبيعة ، وتدبر حياة الإنسان . وقد يختلف معنى الدين باختلاف وجهة نظر الإنسان إلى الحياة ، فالشعوب البدائية نظرت إلي الدين بغير ما نظرت إليه الشعوب المتقدمة ، ومهما قيل في تعريف الدين فلابد من أن تظهر شعائره على أهله فتميزهم عن أتباع الديانات الأخرى في جميع النواحي ......"(١).

ولقد خضعت معتقدات الإنسان القديم لعدة عوامل منها ما هو اقتصادي ومنها ما هو سياسي ومنها ما هو اجتماعي ... مما أدي إلى اختلاف الآلهة من شعب لآخر ، بل اختلفت داخل الشعب الواحد وفي داخل القبيلة الواحدة التي هي أحد أركان الشعب قديماً .

من هنا ظهرت الوثنية ، التي اعتمدت على اتخاذ الإنسان البدائي إلهة من عناصر الطبيعة التي حوله ، اعتقد فيها عدة اعتقادات ، أهمها – في رأيي – أنها تستطيع أن تنزل له الغيث من السماء ، وتحيي له موات الأرض بإخراج النبات منها ، ومن ثم يضمن دوام حياته واستمرارها .

وربما ولهذا السبب – كانت الشمس من أقدم المعبودات الطبيعية إذ نظر إليها الإنسان القديم ، فوجد لها تأثيرا مباشرا في حياته ، حيث منحته الغلال من الحبوب والثمار وربما لهذا " حلت محل القمر ، بعد أن حلت الزراعة محل الصيد ، فكان سير الشمس محددا لفصول البذر وفصول الحصاد ، وأدرك الإنسان أن حرارة الشمس هي العلة الرئيسة فيما تدره عليه الأرض من خيرات عندئذ انقلبت الأرض في أعين البدائيين إلهة تخصبها الأشعة الحارة وعبد الناس الشمس العظيمة ، لأنها بمثابة الوالد الذي نفخ الحياة في كل شيء. " (٢)

فالإنسان القديم عبد الشمس لاعتقاده أنها تهبه النبات الذي هو قوام حياته ، ثم تدرج في العبادة فعبد الأرض وجعلها إلهة .ثم بعد ذلك اتجه إلي عبادة النبات نفسه الذي خرج من باطن الأرض ، حيث اعتقد الإنسان القديم أن للنبات أرواحاً تستطيع أن تديم نعمة لهم وتستطيع أن تمنعه نقمة عليهم .

ولقد بدأت عبادة النبات – أولاً – باتخاذ آلهة للنبات أو كما قيل للخصب ، فمثلاً كانت " ديانا عند اليونانيين – تقدس كإلهة للحيوانات و ثمار الأرض ، وكان الناس يعتقدون أنها ترزقهم النسل والذرية وتساعد الأمهات في الوضع والولادة . (٣) وكانت الإلهة " عشتر" في البابلية منتجة الخضرة والنبات وقد قرنت بعبادة النخل والأشجار عند الساميين منذ قديم الزمان حتى كانوا يطلقون اسمها على كل صنم مصنوع من الخشب . وكانت تمثل عادة بجذع شجرة فصلت عن الأغصان ، فكان الساميون يعتقدون أن هذه الإلهة وما شاكلها تسكن جذع الأشجار ، وأن أرواحها قادرة على البطش والانتقام (٤) .

أما في سومر " فقد كان الإله " إنكى " إله الماء يشغل نفسه بحاجات الأرض الزراعية ويباشر الحرث ... ثم يدعو الحقول المزروعة فينبت مختلف طيوبها وخضرها ، ويجعل ربة الحب مسئولة عنها . (٥)

فإذا تركنا الحديث عن آلهة النبات وانتقلنا إلى الحديث عن عبادة النبات نفسه ، وجدنا أن هناك شعوباً قديمة كثيرة اعتقدت في النبات وقدسته ، ليس هذا فقط بل إنها اعتقدت أن للنبات أرواحاً كما لبني الإنسان سواء بسواء وأن قتل الشجرة معناه قتل صريح ، وكان " الهنود في أمريكا الشمالية يعزون هزيمتهم وانحلالهم إلى أن البيض قد قطعوا الأشجار التي كانت أرواحها تقيهم من الأذى . وفي جزر " مولقا " كانوا يعتبرون الأشجار

أيام الإزهار – حوامل أجنة ، فلا يجيزون إلي جوارها ارتفاع الأصوات أو إشعال النار حتى لا يفسدوا علي الأشجار الحبليات سكونها ، وإلا جاز أن تسقط ثمارها قبل نضجها ، كما تجهض المرأة إذا ألمّ بها الفزع .(٦)

وينظر هنود الهويتشول Huichol في المكسيك بكثير من التقديس والاحترام إلى إحدى عائلات الصبار التي تسبب الغيبوبة لمن يأكلها . و لا ينمو هذا النوع من الصبار في المنطقة التي يعيش فيها الهويتشول ، وإنما يخرج الرجال كل سنة لجلبه ، ويقطعون من أجل ذلك رحلة طويلة تستغرق ثلاثة وأربعين يوماً .(٧)

وكان كاهن ديانا يتخذ شجرة إلهة ، بل ويحبها أيضا كزوجة له . وليس في هذا الافتراض ما ينافي العقل ، خاصة وأن أحد النبلاء الرومان على أيام بليني Pliny كان يعامل – بنفس الطريقة – إحدى أشجار الزان الجميلة ، يحتضنها ويقبلها وينام في ظلها ويسكب النبيذ على جذعها .

والظاهر أنه كان يعتبر تلك الشجرة هي الإلهة نفسها . ولا تزال عادة الزواج الفيزيقي بين الآدميين من كلا الجنسين من ناحية والأشجار من ناحية أخرى موجودة في الهند .(٨)

وقد رأى جريم Grimm بعد دراسته للكلمات الثيوتونية والتي تعني " معبد " أنه من المحتمل أن أقدم الهياكل عند الجرمان كانت تقام في الغابات الطبيعية .

ومهما يكن من أمر ، فالذي لا شك فيه أن عبادة الشجر كانت توجد عند كل الأسر الأوروبية الكبيرة التي تنتمي إلى الجنس الآري كما أنها كانت شائعة ومعروفة لدى جميع الكلتيين .ويبدو أن الكلمة القديمة التي تعني " هيكل " في لغتهم تتفق في الأصل والمعنى مع الكلمة اللاتينية Nemus التي تعني " روضة " أو الأرض المغطاة بالغابات .(٩)

وتتكون الغيضة المقدسة من " أرض فضاء تتناثر فيها الأشجار التي كانت تعلق عليها في العصور الغابرة جلود الضحايا والقرابين وتقوم وسط الغيضة الشجرة المقدسة التي كانت تتضاءل أمامها قيمة كل شيء آخر وأهميته . وكان المتعبدون يجتمعون أمامها ويرتل الكاهن صلواته كما تنحر الأضاحي عند جذورها ، بينما كانت أغصانها تستخدم منبراً للخطابة والوعظ في بعض الأحيان . ولم يكن يسمح بحرق أي قطعة من أخشابها أو قطع أي نوع من أشجاره ، كما كان يحرم دخولها بوجه عام على النساء .(١٠)

إن الأدلة على انتشار عبادة الشجر في اليونان وإيطاليا القديمة كثيرة جداً " ففي إيسكولابيوس Aesculapius في كوس COS مثلاً ، يحرم قطع أشجار السرو ، وكانت عقوبة ذلك ألف دراهمة ... وفي الفورم وهو مركز الحياة الرومانية الزاخر ،ظلت عبادة التين المقدسة التي ارتبطت باسم رومولوس – قائمة حتى أيام الإمبراطورية ... ومن ناحية أخرى فقد كانت توجد على سفوح تل بلاتين إحدى الأشجار الضخمة التي كانت تعتبر من أقدس المقدسات في روما ....(١١)

وفي مدينة أوبسالا Upsala – العاصمة المدينة القديمة للسويد – كانت هناك غيضة مقدسة تتمتع أشجارها كلها بالقداسة ذاتها التي يتمتع بها الآلهة . ولقد كان اللتوانيون الوثنيون يعبدون الأشجار والأحراج ولم يتحولوا إلى المسيحية إلا قرب نهاية القرن الرابع عشر ، وكانت عبادة الشجر لا تزال سائدة بينهم حين اعتنقوا الدين الجديد . وكان بعضهم يقدس أشجار البلوط الضخمة وغيرها من الأشجار الظليلة التي كانوا

يستخبرونها ويتلقون منها الإجابات وقد كان بعضهم يقيم غيضات مقدسة حول قراهم أو منازلهم ، وكان مجرد قطع فرع صغير من إحدى أشجارها يعتبر إثماً لا يغتفر ، كما كانوا يعتقدون بأن من يقطع أحد الأغصان من هذه الغيضات ، إما أن يموت فجأة أو يصاب بالشلل في أحد أطرافه .(١٢)

لقد بدأت عبادة النبات من خلال تلك الاعتقادات التي سادت بين الشعوب البدائية ، حيث وجدت شعوب قدست نباتات وعبدتها ، لأنها رأت أن هذه النباتات تنفعهم في حياتهم ، " فالنخلة عند المصريين تظللهم في الصحراء ......، والغيضة يلتفون حولها ويستريحون ، والجميزة تترعرع ترعرعاً عجيباً في الرمال ، كانت هذه عندهم لأسباب قوية لا يستطيع أحد أن ينكرها عليهم – أشياء مقدسة ظل المصري إلى آخر حضارته يقرب إليها قرابين العنب والتين .

ولم يكن هذا كل شيء بل إن الخضر الوضيعة قد وجد لها من يعبدها ، حتى لقد أخذ " تين " Taine يدلل على أن البصل الذي أغضب بوسويه Bossuet كان من المعبودات على ضفاف النيل .(١٣)

وقدس الهنود أنواعاً كثيرة من النبات ، " فكانت شجرة بوذى " المقدسة في عهد " بوذا " تمثل تقديسهم لجلال الأشجار .....وكان عندهم إلهة من الأشجار تسمى " الياكشا " وأيضا كان عندهم النبات المقدس المسمى " سوما " والذي كان عصيره مقدساً ومسكراً للآلهة والناس معاً ، كان هو نفسه إلهاً يوحي للانسان بمادته المنعشة ، أن يفعل الإحسان ويهديه إلى الرأي الثابت بل يخلع عليه حياة الخلود .(١٤) وفي انجلترا مجدوا أشجار البلوط ... وأقدم عقيدة دينية في آسيا مما نستطيع أن نتعقبه في أصوله التاريخية هي تقديس الأشجار ، وينابيع الماء .(١٥)

أستطيع القول : إن الشعوب ذات الحضارات القديمة ، قدست النبات وعبدته ، ولقد فرضت عليهم تلك العبادة ظروف بيئيه معينة اشتقت من الناحية الجغرافية ، والاجتماعية بل والنفسية أيضا .

ولقد خصص جيمس فريزر فصلين – من كتابه ، الغصن الذهبي – للنبات وعباداته ، وتفاوت هذه العبادات من شعب إلي آخر ، ومن عصر إلى عصر بل إنه أثبت أن عبادة الأشجار والنباتات ما تزال لها بقايا في أوروبا حتى الآن . والذي يهمنا في هذا السياق هو أن ندرك الأهمية التي حظي بها النبات واحتلها من بين معبودات الشعوب البدائية القديمة جميعها .

لقد احتل النبات مكانة سامية جداً من بين هذه المعبودات وهي كثيرة كثرة مفرطة ، الأمر الذي يحتاج إلي تفسير لأفكار الإنسان القديم تجاه الأشجار والنباتات .

يقول فريزر : إنه من الضروري هنا أن ندرس بشيء من التفصيل الأفكار التي تقوم عليها عبادة الأشجار والنباتات . فالعالم عموما يعتبر بالنسبة للرجل الهمجي كائناً حياً . ولا يستثني من ذلك الشجر والنبات إذ يظن أن لها نفوساً كنفسه هو ، لذا فإنه يعاملها على هذا الأساس . وقد كتب النباتي القديم بور فيرى في ذلك يقول : والمعتقد أن الرجل البدائي كان يحيا حياة تعسة ، ذلك لأن خرافاته لم تقف عند حد الحيوانات بل امتدت إلى النباتات ، وكان يتساءل ، لماذا يعتبر ذبح ثور أو شاة – مثلاً – إثماً أكبر من قطع أشجار الشربين أو البلوط ما دامت هناك نفس تسكن هذه الأشجار وتقيم فيها ؟ (١٦)

لقد اعتقد القدماء بأن الأشجار تتمتع بالنفوس والحياة وهذا يعني أنها تحس وتشعر ، " وبذلك يصبح قطعها بمثابة عملية جراحية دقيقة يجب إجراؤها بكثير من الدقة واللطف مراعاة لأحاسيسها وتخفيفاً لآلامها حتى لا تنقلب عليهم إذا هم أجروها بإهمال وتفريط . فحين تجتث إحدى أشجار البلوط مثلاً تصدر عنها صيحات عالية يمكن أن تسمع .... وكأنما هي أصوات البلوط تندب أحد الموتى .(١٧)

كذلك يعتقد الهنود الحمر من قبائل الهيداتسا Hidatsa بأمريكا الشمالية أن لكل ،كائن طبيعي روحاً ، ويبدون بعض مظاهر الاحترام نحو هذه الظلال مع اختلاف في الدرجة فقط . فظل روح شجرة القطن مثلاً تتمتع في اعتقادهم بنوع من الذكاء . الذي يمكن أن يساعدهم ويعينهم في كثير من أمورهم ... بينما لا تكاد تكون لظلال الشجيرات والأعشاب أي قيمة في هذا الصدد .(١٨)

وتتصور قبائل واديكا في شرق أفريقيا أن لكل شجرة وبخاصة شجرة جوز الهند – روحها الخاصة أيضا ، وأن قطع إحدى أشجار جوز الهند يعادل جريمة قتل الأم لأن تلك الشجرة تهبهم الحياة والغذاء مثلما تفعل الأم مع صغارها .(١٩)

فإذا ما تركنا الحديث عن عبادة النبات عند الشعوب الأوروبية والهندية وغيرها من الشعوب وجئنا لنتحدث عن عبادة الشعوب السامية وضربنا لذلك مثلاً بالعبريين القدماء ، أمكننا القول : إن العبريين القدماء عبدوا النبات وقدسوه ، وقد احتلت شجرة البلوط و شجرة التربنتين المكان الأول بين الأشجار المقدسة عندهم ." وكلا النوعين مازال ينمو في فلسطين . وتختلف الشجرتان عن بعضهما البعض من حيث النوع ، ولكنهما في الوقت نفسه تتشابهان تشابهاً كبيراً من حيث الشكل . ولهذا فإنه يبدو أن العبريين القدماء كانوا يخلطون بينهما ، أو أنهم على الأقل ، كانوا يضعونهما تحت صنف واحد ، ويسمونهما بأسماء مختلفة . ومن ثم فإنه ليس من اليسير دائماً معرفة ما إذا كانت الإشارة في عبارات بعينها في العهد القديم إلى شجرة البلوط أم إلى شجرة التربنتين (٢٠).

ومما يؤكد أن الوثنيين العبريين القدماء كانوا يقدسون شجرة البلوط ، تلك الإشارات التي أشار إليها الأنبياء فيما يختص بهذه العقيدة الخرافية . فالنبي هوشع يقول : يذبحون على رؤوس الجبال وينحرون على التلال تحت البلوط واللبنى والبطم ، لأن ظلها حسن ، لذلك تزني بناتكم وتفسق كناتكم . لا أعاقب بناتكم لأنهن يزنين ولا كناتكم لأنهن يفسقن ، لأنهم يعتزلون مع الزانيات ويذبحون مع الناذرات الزنى .

فالنبي هنا يشير إلى عادة البغاء التي كان يسبغ عليها الصفة الدينية لممارستها في ظل الأشجار المقدسة .

ويقول النبي "حزقيال" مشيراً إلى تلك الأكمات المقدسة التي يقدسها قومه الكفرة : فتعلمون أني أنا الرب إذا كانت قتلاهم وسط أصنامهم حول مذابحهم على أكمة عالية وفي رؤوس كل الجبال ، وتحت كل شجرة خضراء وتحت كل بلوطة غبياء الموضع الذي قربوا فيه رائحة سرور لكل أصنامهم . ومرة أخرى يتحدث النبي أشعياء عن الآثمين الذين هجروا الرب فيقول : لأنهم يخجلون من أشجار البطم التي اشتهيتموها وتخزون من الجنات التي اخترتموها ، لأنكم تصيرون كبطمة قد ذبل ورقها وكجنة ليس بها ماء .... ويشير النبي أرمياء إلى هذه المعتقدات موجهاً حديثه في نغمة انفعالية إلى بني إسرائيل الآثمين فيقول : أيضاً في أذيالك وجد دم نفوس

المساكين الأزكياء . لا بالنقب وجدته بل علي كل هذه " وهنا يبدو أن دماء الأطفال الذين كانوا يقدمون ضحية ، كانت تلطخ بها شجرة البلوط المقدسة . وينبغي أن نذكر في هذا المجال أن الضحايا كانوا يذبحون قبل أن تحرق أجسامهم في النار حتى يمكن استخدام دمائهم قرباناً للأشجار أو طلاء لها . ٢١

ولكن إذا كان أنبياء بني إسرائيل في العصور المتأخرة قد أشاروا إلى عبادة أشجار البلوط أو التربنتين بوصفها طقساً من طقوس الوثنية ، فهناك شواهد عديدة أخرى تشير إلى أن أشجار البلوط أو التربنتين المقدسة كانت تلعب دوراً رئيسا في العقيدة الشعبية في العصور السابقة على بني إسرائيل ، بل إنها تشير إلى أن يهوه نفسه كان مرتبطاً بتقديس هذه الأشجار كل الارتباط وعلى كل فإنه يجدر بنا أن نشير إلى أن الرب أو ملائكته كثيراً ما ظهروا لأحد البطارقة القدامى أو للأبطال عند شجرة البلوط أو عند شجرة من أشجار التربنتين . فقد كان أول ظهور يهوه لإبراهيم عند شجرة بلوط أو عند شجرة من أشجار التربنتين ، كانت تنمو في " شكيم " وتعد مكاناً للنبوءة . وهناك ابتنى إبراهيم معبداً .ومرة أخرى تقرأ أن إبراهيم كان يسكن إلى جانب شجرة بلوط أو شجرة تربنتين كانت تنمو في ممرا ... وهناك في هذا المكان بجانب شجرة البلوط أو التربنتين ظهر له الرب في شكل ثلاثة رجال ... وهناك في ظل الأشجار أكل الرب من اللحم وشرب من اللبن ... وكذلك ظهر ملاك الرب " لجدعون " وجلس تحت شجرة البلوط أو التربنتين التي كانت تنمو في "عفره" ... ٢٢

ولا تزال تنبت في فلسطين إلى اليوم ثلاثة أنواع من البلوط . وأكثر هذه الأنواع وفرة ، ذلك النوع الشوكى الدائم الاخضرار – **Quercus Pseudo Coccifera** . والنوع الثاني من غابات البلوط التي تنمو في فلسطين هو الذي يسمى ببلوط فالونيا **Quercus Aegilos** . وأما لنوع الثالث فهو الذي يسمى باللغة اللاتينية **Quercus infactoria** .

وما زال الفلاحون ينظرون إلى أشجار البلوط التي تنمو بوفرة في جهات كثيرة من فلسطين نظرة تقديس أساسه التصورات الخرافية فقد ذكر " طومسون " في معرض حديثه عن أيكة البلوط الجميلة التي تقع بالقرب من بحيرة الحولة "فيالا" في شمال فلسطين ، فقال ، إن الأشجار التي نجلس تحتها الآن ، يعتقد الناس في أنها مأوى للجن والأرواح . فكل قرية من قرى الأودية على وجه التقريب أو تلك التي تقع على الجبال ، تنبت فيها شجرة بلوط ضخمة أو أكثر من شجرة يقدسها الناس بناء علي الفكرة الخرافية . ويعتقد الأهالي أن كثيراً من هذه الأشجار في هذه المنطقة يسكنها أشباح بعينها يطلق عليها اسم بنات يعقوب " . ٢٣

ولكن إذا كان هذا حال الشعوب البدائية وموقفهم من النبات ، فما موقف العرب – من بين هذه الشعوب – من هذا المعبود المقدس ؟

إن العرب قبل الإسلام كانوا كغيرهم من الشعوب البدائية الأخرى إذ " فكروا في وجود قوى مسيطرة ، لها عليهم سلطان قاهر وحكم نافذ فحاولوا التقرب منها ، والتودد إليها لاسترضائها بمختلف الوسائل ، وقد سموا هذه القوى آلهة فعبدوها لأنهم يتوهمون أنها ترد عنهم كل أذى وضيم ، وتجلب لهم كل خير ومنفعة ، فلا سبيل للعيش إلا بواسطة الإله عندهم ، به يصلون إلى ما يحبون ويرغبون ، ومنه يستقون الخير العميم . ثم ارتفعوا فاعتقدوا بحلول هذه القوي في الأشجار والكهوف والينابيع .٢٤

وأكاد أجزم أن النبات كان السبب الأول في تغيير العرب دينهم ، وهذا إذا صحت الرواية التي رواها ابن الكلبي في كتابة " الأصنام " والتي يقول فيها :"إن أول من غير دين إسماعيل عليه السلام هو عمرو بن ربيعة ، وكان السبب في ذلك أنه مرض مرضاً شديداً ، فقيل له : إن بالبلقاء من الشام حَمّة إن أتيتها برأت ، فأتاها فاستحم بها فبرأ . ووجد أهلها يعبدون أصناما فقال ما هذه ؟ فقالوا : نستسقي بها المطر ، ونستنصر بها على العدو ، فسألهم أن يعطوه منها ففعلوا فقدم بها مكة ونصبها حول الكعبة ." ٢٥

فبمجرد أن سمع عمرو قولهم " نستسقي بها المطر " تذكر على الفور أنه وجُل قبائل الجزيرة العربية بحاجة ملحة إلى تلك الأصنام ، لأن الجزيرة العربية معظمها صحراء جرداء يغلب عليها نوع من المشقة في سبيل إحياء أرضها ٢٦ ، لذلك خطر في ذهنه أنه إن أخذ تلك الأصنام ، ونصبها حول الكعبة وعبدها هو وقومه استطاعت بقدرتها أن تسقط الغيث من السماء وتحيي الأرض الهامدة وتحفظ لهم حياتهم .

فبيئتهم إذن هي التي فرضت عليهم هذا النوع من الدين ، إذ إنها كانت بيئة حافلة بالمشاكل والقضايا التي يصعب التغلب عليها إلا بوسيلة معينة ترضيهم وتقنعهم ، وسرعان ما اقتنعوا بتلك الأصنام .

وتطورت هذه الديانة عندهم لدرجة أنهم اعتقدوا أن الشياطين " تدخل فيها وتخبرهم ببعض المغيبات وتدلهم علي بعض ما يخفى عليهم وهم لا يشاهدون الشياطين ، فكانوا يظنون أن الصنم نفسه هو المتكلم . ٢٧

وكان للعرب تجارة بين بلادهم والبلاد المجاورة لهم مثل مصر والهند والشام وغيرها ، وكانت الأسواق والمواسم السنوية تستدعي قدوم التجار إلى بلادهم . وكان يجتمع في سوق عكاظ الشهيرة القريبة من مكة مئات التجار الممثلين لبلادهم ، فبدأ العرب نتيجة هذا الاحتكاك المتبادل – يعرفون أن طرق العبادة ليست قاصرة على الأصنام الحجرية فقط ، ولكنها تمتد وتشمل بعض مظاهر الطبيعة أيضاً ، فبعد أن كانوا يستسقون بالأصنام المطر، فكروا في قوة أخرى ذات سلطان أكبر وتأثير مباشر في إنزال المطر ، فلم يجدوا غير الشمس – وهم في هذا مثل أي شعب بدائي – فعبدوها بوصفها مانحة الأمطار والثمار والنباتات اللازمة لحياتهم وحياة أنعامهم .ثم تحولت طائفة منهم عن عبادة الشمس وعبدت النباتات ، حيث وجد أن طائفة كبيرة من العرب اتخذوا النبات إلهاً وقدسوه ، وقدموا إليه القرابين ولقد أشار المستشرق " كبريللي " إلى تلك الفكرة التي تمثلت في تقديس العرب للنبات حين قال : " عبد العرب الظواهر الطبيعية لما تلقي في نفوسهم من الرهبة والخوف كالرعد والبرق ، ولحاجتهم الماسة إلى البعض منها كالمطر ، محيي النفوس ومصدر الحياة ... وعبدوا الحيوان مصدر حياتهم وأساس معيشتهم ... وعبدوا النبات وعلى الأخص الأشجار منه لحاجتهم الماسة إلى ظلها و ثمارها وخضرتها ." ٢٨

والسؤال الآن : هل اتفق العرب في عبادتهم للنبات علي نبات بعينه أم اختلفوا وعبد كل منهم ما يراه مناسباً لمزاجه ومصالحه من النبات ؟

لقد كانت الجزيرة العربية منقسمة إلى قبائل عدة ، وكل قبيلة صورت إلهها على شاكلتها ووفق مزاجها الخاص ، ومن ثم اختلف العرب في عبادتهم للنبات ، واختلافهم في ذلك مثل اختلافهم في عبادتهم آلهة أخرى .

وأول نبات عرف العرب قيمته " النخلة " وربما ترجع تلك المعرفة إلى اليهود الساميين الذين عاشوا في المدينة وعرفوا قيمة النخلة وفوائدها فقدسوها ، فانتقل هذا التقديس – بالضرورة– إلى أنحاء شبه الجزيرة العربية التي كان منتشراً بها غرس النخل والاتجار بثمره .

" وإذا كان الجمل هو رمز جزيرة العرب لالتصاقه بها ، فإن النخيل هو رمز آخر لها ، وكناية عن أهم حاصل ومنتج زراعي تصدره تلك البلاد ، ولهذا صارت النخلة رمزاً وصار التمر عند كثير من المسلمين –من أهم ما يتناولونه في شهر رمضان للافطار به لأنه رمز الإسلام ورمز المدينة التي عاش فيها الرسول – صلى الله عليه وسلم ٢٩. " وكما أفاد الجمل أهله فائدة عظمى كذلك أفادت النخلة سكان جزيرة العرب فوائد جمة ، أفادتهم في غذائهم ، وفي طبهم ، وكانت مادة استخرجوا منها خمرهم وشرابهم ، ولم يترك العرب جزءاً من أجزائها إلا أفادوا منه . فأصبحت أعلى النباتات مكانة في نفوسهم . ومن أجل هذا صارت سيدة الشجر لا عند العرب وحدهم بل عند قدماء الساميين أيضاً ، وأحيطت عندهم بهالة من التقديس والتعظيم ، وزخرفت معابدهم بصورها ، واستعمل بعضها في استقبال الأعيان والملوك ، وكبار الضيوف لأنه علامة اليمن والبركة والسعادة والفرح ، ولا يزال سعفها زينة تزين بها الشوارع في المناسبات المهمة حتى اليوم . وقد عثر علي صورها وصور سعفها علي النقود القديمة وفي جملتها نقود العبرانيين الذين يحترمون النخلة احتراماً لا يقل عن احترام العرب لها ، ولهذا ورد ذكرها في مواضع عديدة من التوراة والتلمود ".٣٠

ولقد أشارت مصادر كثيرة إلى " نخلة نجران " التي عبدها أهل نجران وقدسوها وأحاطوه بالزينة ، وأقاموا لها الأعياد ، قال ابن اسحق :" إنه لما خرج فيحون من أرض الشام – وتبعه رجل يسمى صالحاً حتى وطئا أرض العرب اختطفتهما سيارة من بعض العرب فخرجوا بهما حتى باعوهما بنجران ، وأهل نجران يومئذ على دين العرب يعبدون " نخلة " طويلة بين أظهرهم ، ولها عيد في كل سنة ، إذا كان ذلك العيد علقوا عليها كل ثوب حسن وجدوه ، وحليّ النساء ، ثم خرجوا إليها فعكفوا عليها يوماً .....". ٣١ وكانوا يرون فيها حياة وشعوراً مثلهم ، ولو قطع رأسها هلكت ولها غلاف كالمشيمة التي يكون الجنين فيها والجمار الذي على رأسها لو أصابته آفة لهلكت النخلة ، كهيئة مخ الإنسان ، وعليه ليف كالشعر يكون على الإنسان ٣٢ وهكذا نرى كيف انتقلت فكرة حيوية النخلة إلى ألوهيتها .

وإذا كان الهنود اعتقدوا أن " سوما " أمدهم بعصير منعش ومسكر ، فقد اعتقد العرب نفس الاعتقاد ، حيث اتخذوا من النخلة مادة سكرهم ونشوتهم ، وقد ظلت آثار عبادة النخل حتى الإسلام ، وتحدث القرآن عن النخل وفوائده ، وأوصى الرسول – صلى الله عليه وسلم – بإكرام النخل .

ولعبت نظرية الأموية دورها عند الجاهليين فيما يتصل بالنخلة ، يدل علي ذلك صناعتهم آلهة من تمرها ، واعتقاداً بأن ما في الأم ينتقل إلى المولود ويتسرب إليه ، فالتمر أحد أجنة النخلة – الأنثى على وجه الخصوص – ولقد ورد في قصص أهل الأخبار أن " بني حنيفة تعبّدوا لصنم من "حيس" ٣٣ ، فعبدوه دهراً طويلاً ، ثم جاعوا فأكلوه فقال الشعراء في ذلك يعيرون به بني حنيفة لأكلهم ربهم زمن المجاعة ، قال رجل من تميم : ٣٤

أكلتْ ربَّها حنيفةُ من جو ... ع قديم بها ومن إعواز

لقد آمن العرب بأن قوة ما يأكلون تنتقل إليهم ، لذلك وردت على خاطرهم فكرة أكل الإله ، ولم يكن هذا الاعتقاد سائداً بينهم فقط ، " ففي المكسيك القديمة كان يصنع تمثال من الغلال والحبوب والخضر ، ثم يأكلونه على أنه بديل ديني لأكل الإله نفسه ، وأشباه ذلك كثير في القبائل البدائية وكانت العادة أن يطلب الناس أن يصوموا عن الطعام فترة قبل أكل التمثال المقدس ٣٥

لقد أولت شعوب بدائية كثيرة – غير العرب– النخلة اهتماماً كبيراً ، " فالنخلة في أدب الرافدين كانت تمثل الحياة وشجرتها ، وهي ترمز إلى تجدد هذه الحياة تجدداً أبوياً .٣٦ . والشجرة البابلية المقدسة فرع من نخلة ونبات مخروطي ، يحف بها من اليمين والشمال جنيان . رأس إنسان أو نسر ، يمدان أيديهما في الغالب إلى ثمرة على الشجرة ، لعلها عنقود من البلح . والغرض من مد الأيدي كما يرى " هاديت " هو نقل حبوب اللقاح من أزهار النخيل المذكرة إلى أزهار النخيل المؤنثة ، ليتم الإخصاب .٣٧

وتحدث القرآن الكريم عن نخلة مريم ، وذكر أنها كانت جذعاً جامداً لا حياة فيه ، ولكن الله بقدرته أنبتها لتكون معجزة خالدة ، إذ منحها الحياة والخصوبة والنماء ، وتحولت من نخلة عاقر إلى نخلة ولود مثمرة دون أن تلقح ، وهي في ذلك تشبه مريم نفسها التي وضعت دون أن يمسسها بشر .

ولم يحظ نبات – من هذا العالم النباتي الممتد – بمثل ما حظيت به النخلة من أحاديث ربطت بينها وبين الإنسان في بدء الخليقة ، إذ ساق الصوفية حكاية مرتبطة ببدء الخلق ، " وذلك أن الله لما خلق آدم ، فضلت من خميرة طينته فضلة خلق منها النخلة ، وفضل من الطينة بعد خلق النخلة قدر السمسمة في الخفاء فمد الله في تلك الفضلة أرضاً واسعة الفضاء ... فيها من العجائب والغرائب ما لا يقدر قدره ويبهر العقول أمره .٣٨

وفيما يتصل بعلاقة الإنسان بالنخلة أشار الكرماني وعلماء الحديث إلى كثرة خيرها ودوام أصلها وطيب ثمرها ، ووجوده علي الدوام ، وأن خشبها وورقها ، وأغصانها تستعمل جذوعاً وحطباً وعصياً ومخا صر ، وحصراً وحبالاً وأواني وغير ذلك ، وتعلف الإبل بنواها فهي منافع كلها ، وخير وجمال ، كما أن المؤمن خير كله ، وقيل وجه التشبيه أنه إذا قطع رأسها ماتت بخلاف باقي الشجر ، وقيل لأنها لا تحمل حتى تلقح ... أو لأنها تعشق كالإنسان .٣٩

ولكن ما مغزى ارتباط النخلة بآدم في سياق التصور الديني لبدء الخليقة ؟ ولم صارت النخلة دون سائر الشجر في هذه المرويات أختاً لآدم و عمة لجنس الإنسان ؟ وما طبيعة العلاقة بين عالم الخيال وبين سلالة الطين الأولي التي خلق منها آدم ثم النخلة المذكورة في الأحاديث و المرويات ؟

إن النخلة موضوعة في النسق الوجداني ، تبدو رمزاً علي الطبيعة النباتية التي لا تعدو أن تكون بضعة من بنية الكائنات الحية من حيث تدرجها في مراحل التطور . إن الموجود يبدأ بالبساطة ثم لا يزال يترقى ويتعقد حتى يقرب من أفق النوع الذي يليه ، فالنبات في أفق الجماد يزداد تركيباً حتى يبلغ أعلى درجة ، فإذا زاد عليها قبل صورة الحيوان ٤٠

ولم تقتصر آلهة العرب التي اتخذوها من النبات على النخل وحده ، وإنما كانت هناك آلهة نباتية أخرى . من أه[illegible] شجرة تسمى " ذات أنواط" ، وكانت " شجرة خضراء عظيمة في الجاهلية ، تأتيها قريش كل سنة تعظيماً

لها فتعلق عليها أسلحتها ، وتذبح عندها وكانت قريبة من مكة ، وذكر أنهم كانوا إذا أتوا يحجون يعلقون عليها أرديتهم ويدخلون الحرم بغير أردية تعظيماً للبيت ، ولذلك سميت " ذات أنواط " . يقال ناط الشيء ينوطه إذا علقه . ٤١

ونفهم من كلام ياقوت أن ذات أنواط شجرة مسماه بهذا الاسم وتبعه في ذلك الجوهري حين قال : " وذات أنواط اسم شجرة بعينها " ٤٢ . ولكن ابن الأثير قال : إنها اسم سمرة بعينها كانت للمشركين ينوطون بها سلاحهم أي يعلقونه بها ويعكفون حولها . ٤٣

وفي رأينا أن الرؤية لا تتضح إلا إذا تأملنا المعنى اللغوي للفظة أنواط ، يقول ابن منظور : ناط الشيء ينوطه نوطاً ، علقه والنوط ما علق ، وانتاط به تعلق به ... وكل ما علق من شيء فهو نوط . والأنواط المعاليق وفي المثل عاط بغير أنواط ، أي يتناول وليس هناك شيء معلق ، ويقال نيط عليه الشيء علق عليه . قال رقاع بن زيد الأسدي : ٤٤

بلادٌ بها نيطت عليَّ تمائمي   وأول أرض مس جلدي ترابها

يتبين من تفسير المادة اللغوية أن ذات أنواط لم تكن اسماً لشجرة بعينها ، وإنما هي شجرة من السمر أو غيره ، كانوا يعلقون عليها أسلحتهم وأرديتهم ويعكفون حولها بالعبادة ، وهذا لأن الأنواط تعني المعاليق فالسمرة ذات أنواط ، أي صاحبة السلاح أو الثياب المعلقة عليها ولكن هل كان تعليق الثياب والسلاح عليها هو سبب تقديس العرب لها ؟

أقرب الظن أن عبادتهم لها بدأت بتعليق الثياب والسلاح ثم دخول الحرم ، ثم اعتادوا ذلك بدرجة جعلت العادة تتحول إلى عبادة من كثرة ممارستهم التعليق عليها ، والعكوف حولها ، ثم بعد ذلك أطلقوا عليها لقب ذات أنواط .

وقد توجد صلة ما بين تلك السمرة الملقبة بذات أنواط ، والسمرة التي بويع تحتها الرسول – صلى الله عليه وسلم – بأرض الحديبية تلك البيعة المسماة (بيعة الرضوان) ، وتتمثل هذه العلاقة في أن الإسلام أراد أن يوفق بين ما تعود عليه العرب وبين الدين الجديد ، حيث لا يستطيعون التخلص من هذا التعود فجأة ، وإنما على أطوار . ومما يدل على ذلك أن سلطان ذات أنواط ظل إلى ما بعد الإسلام حتى إن بعض المسلمين قال للرسول – صلى الله عليه وسلم : اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط . ٤٥

وعبد بعض العرب وبعض الساميين أشجار السدر وتقربوا إليها بالنذور والقرابين وتوسلوا إليها وعدوها من الأشجار المقدسة ، ومن الأشجار المباركة من أشجار طوبى التي وعد بها المتقون في الجنة .

وهي أشجار ذات ارتفاع وظل وذات نفع كبير لأهل البلاد التي تغلب عليها طبيعة الجفاف حيث لا يمكن أن يقدر أهميتها إلا من ركب الصحراء في يوم حار ، ثم فجأة جلس تحت ظل شجرة تقيه وتقي حيوانه من لهب الشمس سيرى نفسه في جنة وسط جهنم . ٤٦

ونتيجة لنظرتهم إلى تلك الأشجار نظرة تقديس واحترام فقد استخدموا أخشابها في عمل تماثيل من خشب ، وهي تماثيل أظهر فيها فنانوهم مقدرة فنية عالية قامت على أسس من كيفية تصورهم لذلك التمثال وللإله الذي يمثله ذلك التمثال .

وكانت (العزى) من أشهر آلهة العرب وذكرها القرآن الكريم ٤٧ ، وهي كانت " سمرة لغطفان يعبدونها وكانوا بنوا عليها بيتاً وأقاموا لها سدنة . ٤٨ وانتشرت عبادتها بين العرب حتى سمت قريش بها عبد العزى وكانت أعظم الأصنام عند قريش وكانوا يزورونها ويهدون لها ويتقربون عندها بالذبح .

ولما كان يوم الفتح دعا الرسول – صلى الله عليه وسلم – خالد بن الوليد فقال انطلق إلى شجرة ببطن نخلة فاعضدها فانطلق فقتل دبية (آخر سدنة العزى) وعن ابن عباس قال ، كانت العزى شيطانة تأتي ثلاث سمرات ببطن نخلة فلما بعث النبي – صلى الله عليه وسلم – خالداً قال له ، ائت بطن نخلة تجد ثلاث سمرات فاعضد الأولى ، فعضدها فجاء الرسول – صلى الله عليه وسلم فقال له ، هل رأيت شيئاً قال لا فعضد الثانية فلم ير شيئاً . فعضد الثالثة فإذا هو بشيطانة نافشة شعرها واضعةً ثدييها على عاتقها وخلفها دبية ... ثم ضربها ففلق رأسها ، ثم عضد الشجرة وقتل دبية ثم أتى – النبي صلى الله عليه وسلم – فأخبره ، فقال ، تلك العزى ولا عزى بعدها للعرب .٤٩

ولقد اتسعت رقعة عبادة النبات عند العرب حتى سموا أبناءهم بأسماء النبات ، مما جعل عالماً لغوياً مثل ابن دريد يعقد باباً من أبواب كتابه الاشتقاق ، تحت عنوان " ومما اشتق من أسماء الشجر " عدد فيه الأسماء المشتقة من أسماء الشجر مع ذكر اسم الشجر المشتق منه ذلك الاسم وصفاته وهذا من مثل قوله ، مظة . والمظ ، رمان البر . وعضاه ، وهي شجرة لها شوك ، وكذلك طلحة وسمرة وغافة ، وقرظة ، كل هذا شجر له شوك ...

طرفة ، واحدة الطرفاء ، عرفجة ، ضرب من الشجر ، وكذلك خزمة وخزيمة ضرب من الشجر .

عرادة ، وهو ضرب من الشجر . قرملة ضرب من النبت . أرطأة ، ضرب من النبت . عوسجة ، نبت معروف . ٥٠

وابن دريد قبل أن يذكر تلك الأسماء من الشجر علل اتخاذ العرب تلك الأسماء لأبنائها بقوله ، اعلم أن للعرب مذاهب في تسمية أبنائها فمنها ما سموه تفاؤلاً على أعدائهم نحو غالب ، ظالم ... ومنها ما سمي بالسباع ترهيباً لأعدائهم ، نحو أسد وذئب ،... ومنها ما سمي بما غلظ وخشن من الشجر تفاؤلاً أيضاً نحو طلحة وسمرة و سلمة وقتادة .٥١

إن علاقة الأسماء بمسمياتها في الوعي الديني والأسطوري لدى الجاهليين لا يتأتى فهمها إلا بالوقوف على طبيعة هذه العلاقة ووضعها في سياق يلائم ماهية هذا الوعي . وهي ماهية تقوم على اعتقاد قديم في وحدة الاسم والمسمى بحيث يكون الاسم جزءاً جوهرياً من المسمى وليس مجرد علاقة خارجية ترمز للأشياء وتحضرها في الفهم ، فضلاً عن الاعتقاد في إمكانية انتقال التأثير من الاسم إلى المسمى ، ثم من المسمى إلى الآخر في تسلسل محكوم بالتأويل النفسي .

هوامش الفصل الأول

[١] د حسين الحاج حسن ، الأسطورة عند العرب في الجاهلية (المؤسسة الجامعية للنشر ، بيروت ، ط أولى ١٩٨٨ م) ، ص ١١٥ .

[٢] ديورانت ، قصة الحضارة ، الجزء الأول من المجلد الأول – نشأة الحضارة . ترجمة د/ زكي نجيب محمود (دار الجيل ، بيروت : ١٩٨٨ م) ، ص ١٠٣ .

[٣] فريزر ، الغصن الذهبي ، ترجمة ، د. أحمد أبو زيد ، (الهيئة المصرية العامة ، ١٩٧١) ، ص ٩١.

[٤] الأسطورة عند العرب في الجاهلية ، ص ١٣٤ .

[٥] رمز الماء في الأدب الجاهلي ، ص ١٦ .

[٦] قصة الحضارة ، الجزء الأول من المجلد الأول ، نشأة الحضارة ، ص ١٠٤ .

[٧] الغصن الذهبي ، ص ١٤١

[٨] المرجع نفسه ، ص ٩٠ وما بعدما .

[٩] الغصن الذهبي ، ص ٣٨٧ .

[١٠] نفسه ، ص ٣٨٩ .

[١١] نفسه ، ص٣٨٨ وما بعدها .

[١٢] المرجع نفسه ، ص ٣٨٨ .

[١٣] قصة الحضارة ، الجزء الثاني من المجلد الأول ، الشرق الأدنى .ص ١٥٧ وما بعدها .

[١٤] قصة الحضارة ، الجزء الثالث من المجلد الأول ، الهند وجيرانه ، ص٣٠ .

[١٥] المصدر نفسه ، الجزء الأول ،نشأة الحضارة ، ص ١٠٤ .

[١٦] الغصن الذهبي ، ص ٣٩٠ .

[١٧] نفسه ، ص ٣٩٣ .

[١٨] نفسه ، ص ٣٩٠ .

[١٩] نفسه ، ص ٣٩١ .

[٢٠] جيمس فريزر ، الفولكلور في العهد القديم ، ترجمة : د. نبيلة أبراهين سالم (القاهرة : دار المعارف ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٢)، الجزء الثاني ص ٦٣٣ .

[٢١] المصدر السابق ، ص ٦٥٠ وما بعدها .

[٢٢] نفسه ،ص ٦٥٢ وما بعدها .

[٢٣] نفسه ، ص ٦٣٣ ، ٦٣٤ ، ٦٣٥ بتصرف .

[٢٤] د. حسين الحاج حسن ، الأسطورة عند العرب في الجاهلية ، ص ١١٤ .

[٢٥] ابن الكلبي ، الأصنام ، تحقيق أحمد زكي (الدار القومية للطباعة والنشر ، ١٩٦٥) ، ص ٨ .

[٢٦] راجع التمهيد

[٢٧] الألوسي – بلوغ الأرب ، جـ ٢ ، ص ٢١٦ .

[٢٨] الأسطورة عند العرب في الجاهلية ، ص ١٧٥.

[٢٩] المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، جـ ١ ، ص ٢٠٧ .

[٣٠] د. جواد علي – المصدر نفسه ، جـ ١ ، ص ٢٠٧ .

[٣١] ابن هشام ، السيرة النبوية (المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت ، ١٩٩٤ م ط١) ج١ ، ص ٢٦ .

[٣٢] القز ويني ، عجائب المخلوقات ،(بيروت : دار الآفاق ، بدون تاريخ) ، ص ٢٣١ .

[٣٣] الحيس : خليط من تمر وسمن .

[٣٤] ابن قتيبة ، المعارف ، تحقيق ، د. ثروت عكاشة (الهيئة العامة ، ط ٦ ، ١٩٩٢ م) ، ص ٦٢١ .

[٣٥] قصة الحضارة – الجزء الأول من المجلد الأول – نشأة الحضارة ، ص ١١٥ .

[٣٦] موسكاتي ، الحضارة السامية القديمة ، ترجمة يعقوب بكر (القاهرة : دار الكتاب العربي) ص٩٠.

[٣٧] المصدر السابق ، ص ٩٠ .

[٣٨] د. عاطف جودة نصر ، الخيال : مفهومه ووظائفه (الهيئة المصرية ، ١٩٨٤) ، ص ٩١ .

[٣٩] نفسه ، ص ٩٢ .

[٤٠] نفسه ، ص ٩٣ .

[٤١] ياقوت الحموي ، معجم البلدان (بيروت : دار الكتب العلمية ، ط ١ و ١٩٩٠)جـ ١ ، ص ٣٢٤ .

[٤٢] ابن منظور ، لسان العرب (المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر ، طبعة مصورة عن طبعة بولاق .) نوط .

[٤٣] المصدر نفسه ، نوط .

[٤٤] نفسه ، نوط

[٤٥] لسان العرب ، نوط . والسيرة النبوية ، جـ ٤ ص ٧٤ .

[٤٦] المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، جـ ١ ، ص ٢٠٩ .

[٤٧] سورة النجم – الآية ١٩ .

[٤٨] معجم البلدان ، جـ ٤ ، ص ١٣٠ .

[٤٩] الألوسي ، بلوغ الأرب ، جـ ٢ ، ص ٢٠٤ وما بعدها .

[٥٠] الاشتقاق ، تحقيق عبد السلام هارون (الخانجي ، ط ٣) ص ٥٦٣ وما بعدها .

[٥١] الاشتقاق ، ص ٥ .

الفصل الثاني

الظواهر الكونية وعلاقتها بالنبات

الفصل الثاني

الظواهر الكونية وعلاقتها بالنبات

يقتضي منا الحديث عن النبات بوصفه كائنا حياً يتأثر بالبيئة ويؤثر فيها البدء بحديث عن الظواهر الكونية لنعرف العلاقة بينهما . وذلك لأن الكون هو " ما يعني مجموعة جزئيات العالم من سماء وأرض وما أودع الله تعالى في كل منهما على السواء ١. أو هو مكان ومكين ، فالمكان هو السماء والأرض والمكين هو الإنسان والمكان مخلوق لله والمكين مخلوق لله .

إن حقيقة الكون أنه مؤلف من شيئين هما السماء والأرض ، ذكر وأنثى . فالسماء بما فيها من كواكب تمنح الأرض الحياة بما تدره عليها من أمطار وأنوار تيسر للمخلوق علي ظهر الأرض سبل الحياة . فكل كائن حي وليد هذين الأبوين المتصلين اتصالا شرعه الله لهما منذ خلقهما إلى إن يأذن بزوالهما .

والنبات من بين هذه الكائنات التي نتجت عن علاقة السماء بالأرض ، وإن كان يعتبر من أهمها لأن عليه حياة الكائنات . لذلك بدأ الله تعالى بخلق السماء والأرض وتمهيدهما وتذليلهما لكي تعيش مخلوقاته فيما بعد .

وفي ذلك يقول جل شأنه :: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾ ٢ ويقول سبحانه وتعالى ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾﴾ ٣ .

وقد يسأل سائل هل خلقت السماء أولاً أم الأرض ؟ لكن الحق تبارك وتعالى يجيبنا عن هذا التساؤل بأنهما خلقتا معاً كتلة واحدة ملتصقة بعضها ببعض ثم تلا ذلك مرحلة الفتق وهو الفصل لهما : ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾﴾ ٤.

ثم تلت هذه المرحلة مرحلة أخرى متمثلة في فتق السماوات إلى سبع والأرض إلى سبع كذلك : ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴿١٢﴾﴾ ٥

وفي فصل السماء عن الأرض تمهيد لإقامة حياة على ظهر الأرض ، حيث بدأت السماء تمطر وبدأت الأرض تنبت بقدرة الله لتعلن صلاحيتها للحياة .

ولم لا والأرض هي الكوكب الوحيد الذي جعله الله تعالى صالحا للحياة ؟ فقربها من الشمس معتدل ، والحرارة التي تصل إليها معتدلة ، ودورتها اليومية معتدلة وكافية لإحداث ليل ونهار صالحين للسعي والراحة ، ودورتها السنوية معتدلة وكافية لإحداث فصول أربعة صالحة لإرواء الزروع وإنتاجها فضلاً عن أنها تمتاز بالماء والهواء الصالحين للحياة ٦ ... وكلها مقومات من أجل خليفة الله في الأرض ، الإنسان الذي كرمه الله وفضله على سائر المخلوقات .

فالحديث عن السماء والأرض حديث عن متلازمين ، للدلالة على أنهما مشتركان في إقامة الحياة وسيرها بما يلائم المخلوقات . يقول تعالى : {اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاء بِنَاء وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} ٧

ويقول جل شانه : وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَـٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَـٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَـٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ ٨ ويقول : ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا ﴿١٠﴾ ٩

حيث جعل الله الأرض للانسان مستقراً بساطاً مهادا يعيش عليها ويتصرف فيها ويمشي في مناكبها وأرساها بالجبال لئلا تميد بهم وجعل السماء سقفا محفوظا ١٠

والأرض هي المكان الذي يعيش فيه الناس ولا يستطيع أحد أن يدعي أنه خلق الأرض وأوجدها . وقوله " فراشاً" توحي بأنه أعد الأرض إعداداً مريحاً للبشر ، و " المهاد الفراش وقد جعل الله الأرض موطنا للناس والدواب يقيمون عليها فهي فراش لهم ١١ ونحن نتوارث الأرض جيلاً بعد جيل وهي تصلح لحياتنا جميعاً ، ومنذ أن خلقت الأرض إلى يوم القيامة ستظل فراشاً للانسان .

فوصف الأرض بهذه الأوصاف اللينة رمز لامتداد حياة يسيرة لبني البشر المخلوق الأول المكلف بعبادة الله تعالى .

وهاتان هما الأرض والسماء كأنهما " عاقلتان يوجه إليهما الخطاب فتسرعان بالجواب " أتينا طائعين" والخيال شاخص إلى الأرض والسماء تدعيان وتجيبان الدعاء ١٢ يقول تعالى : ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ١٣

ومعنى أمر السماء والأرض بالإتيان وامتثالهما أنه أراد تكوينهما فلم يمتنعا عليه ووجدتا كما أرادهما وكانتا في ذلك كالمأمور المطيع . فهو من المجاز الذي يسمى التمثيل . ويجوز أن يكون تخييلاً ويبنى الأمر فيه على أن الله تعالى كلم السماء والأرض وقال لهما ائتيا شئتما ذلك أو أبيتما فقالتا أتينا على الطوع لا على الكره . والغرض تصوير أثر قدرته في المقدورات من غير أن يحقق شيء من الخطاب والجواب ونحوه ... فالمعنى ائتيا على

ما ينبغي أن تأتيا عليه من الشكل والوصف ، ائت يا أرض مدحوة قراراً أو مهاداً لأهلك ، وائت يا سماء مقببة سقفاً لهم ١٤ .

إنها إيماءة عجيبة إلى انقياد هذا الكون للناموس و إلى اتصال حقيقته بخالقه اتصال الطاعة والاستسلام لكلمته . ويا للرضا ، ويا للراحة ويا للطمأنينة التي تملأ قلوبنا يومئذ في رحلتنا القصيرة مع هذا الكوكب الطائع الملبي السائر معنا في رحلتنا الكبرى إلى ربه في نهاية المطاف ١٥

ولما كانتا أي السماء والأرض على هذه الصفة من الأهمية لم يكن غريباً أن يقسم بهما المولى عز وجل ، حيث قال : ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا﴾ ١٦ . إذ اقسم تعالى بالسماء وما أودع فيها من نظام عبر عنه بالبناء . إذ رفعها على قواعد منها الجاذبية المعروفة بالمجموعة الشمسية ، وراء هذه القاعدة قواعد أخرى كثيرة لا نعرفها ولا يحيط بها علمنا . وبالمثل الأرض فقد طحاها الله أو مهدها ، ووطأها للإنسان وكأنه بيته ، بل كأنه نفس فراشة الذي يضطجع عليه ويجد فيه راحته ... وقد أمده الله في الأرض بالمياه والينابيع والأنهار ... كما أمده الله بالحيوانات والطيور والنبات والأشجار و الزروع ١٧ . إن هذه الآيات تساق لمن شاء أن يتصور صعوبة بناء سماء كهذه ، وقد ألفوا في المبنى أن يكون بمنال اليد وأن يشد بما يمسك به ويرفعه فلا ينقض ، وأين ذلك كله من تلك السماء في ارتفاعها الشاهق الذي لا مجال لبلوغه وفي قيامها على غير عمد ترى أو قوائم تحس ١٨ .

والبناء يفيد المتانة والتماسك أي أن السماء وهي فوقنا لا نرى شيئا يحملها حتى لا تسقط علينا ، إنها سقف متماسك متين . يؤكد الحق هذا المعني بقوله : ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ ١٩ .

والهدف من هذه الآيات أن نطمئن ونحن نعيش على الأرض ، أن السماء لن تتساقط علينا . ولذلك كان خلق السموات والأرض أكبر من خلق الإنسان ، لأن الإنسان خلق من الأرض وبما فيها عاش ، فالأصل أن الإنسان ابن الأرض ، واقتياته منها ، وحياته باقية عليها . ومن المعقول أن الله تعالى قد خلق ما يخلق من الإنسان قبل أن يخلق الإنسان ، وحتى يعيش ، أمده الله بجنس ما خلق منه .

ويمثل ما طمأن الله البشر من أن السماء محفوظة لن تقع على الأرض طمأنهم كذلك أن الأرض مستقرة متماسكة لن يصيبها اهتزاز أو اضطراب لأنه تعالى خلقها وأرساها بالجبال الرواسي ، فالجبال للأرض كالأوتاد للخيمة ، ولولاها لتحركت الأرض وتمايلت بمن عليها ، يقول تعالى : ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ ٢٠ ويقول : ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ ٢١

لقد ذكرت الجبال في القرآن في أماكن متفرقة لكن ذكرها ، كان معناه استعداداً للنشأة الثانية ، وما سيحدث للعالم من خلق جديد لا يعلم كنهه إلا الله . مثل قوله تعالى " وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ ٢٢

وقوله " وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴿١٤﴾ ٢٣ إلى غير هذا من الآيات المذكور فيها الجبال ذكراً يدل على قيام الساعة ، ولقاء الناس بربهم وتغير حال الأرض والسماء ، ولكن في مقابل ذلك نجد حملاً آخر لوظيفة الجبال في القرآن حيث استخدمت لتثبيت الأرض وإرسائها بمن عليها حتى لا تهتز أو تضطرب .

إن السماء والأرض مشهدان من مشاهد الطبيعة الخالدة الدالة علي قدرة الله تعالى ، إنهما تمثلان " لوحة طبيعية منسقة يوجه إليها البصر لينقل ما يراه إلى النفس ليقع في النفس ما يقع من الأثر لتؤمن بقدرة الله الذي خلقهما . وهما لوحتان معروضتان في كل حين ، لكن الإنسان يقرأ هذه الآيات فيلتفت إليها كأنما تعرض أول مرة في هذا الوجود ، وتلك طريقة القرآن في كل ما يوجه إليه النظر من مشاهد الطبيعة ٢٤ .

هاتان هما الأرض والسماء الأبوان الأصليان لكل كائن حي على الأرض . آثرت البدء بهما لأنهما أصل كل نبات بما في ذلك الإنسان . " وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ ٢٥ وهما كذلك محط كل إنسان ومقره .

لقد خلق الله تعالى السماء والأرض وخلق منهما الإنسان ، وخلق له من نفس جنسه الذي خلق منه – الطين – كل كائن حي مسخر لخدمته ، وذلك لاستمرار الحياة ، وهي نعم أمد الله بها الإنسان فتظل طوال فترة الحياة ، وعند الموت تنتهي علاقته بنعم الحياة الدنيا . لقد ترتب على خلق السماء والأرض جوهر نظام الحياة ، إذا أصبح هناك ليل ونهار ، وأصبح هناك شمس وقمر يجريان بحسبان مقدّر دقيق ونظام محكم دال على قدرة الله وأنه أودع الكواكب والأفلاك تدبيراً متقناً يقوم على قوانين ثابتة .

" إن في مسيرة الشمس والقمر التي لا تخطئ نهاراً وليلاً ، ما يد ل على أن وراءهما قوة عليا تسيطر على الكوكبين وتهديهما في مسيرتهما ، إذ يسيران دون اختلال أو اضطراب ... ويلفت القرآن مرارا إلى أن الكون جميعه مسخر للإنسان ينتفع به ، فهو الكائن الرفيع الذي يتجلى فيه الله بجميع صفاته ، والذي جعله الله له في أرضه . فإذا هو مشدود إلى التراب ونظره معلق بأنوار السماء ، وفي مقدمتها أنوار الشمس والقمر المسخرة له ولمنافعه . وأن كلاً من الكوكبين يسير إلى مستقر مقدر لا يحيد عنه يميناً ولا يساراً ... أما الشمس فمعها الفصول التي تنتظم بها حياة الإنسان والحيوان و الزروع ومعها النهار الذي يضرب فيه الإنسان الأرض باحثاً عن وجوه معاشه وكسبه . وأما القمر فمعه الأهلة ومعه منازله التي يسير فيها مدار كل شهر . والغاية العظمى من

زيادة القمر ونقصانه واكتماله واحتجاجه وتنقله في منازله ، معرفة المواقيت في العبادات وفي المعاملات وغيرها من مصالح الإنسان ... ومع القمر الليل والنوم الذي يستريح فيه الناس من أعباء العمل وأثقاله في النهار ٢٦ .

والله جل شأنه يمتن على الإنسان بأن جعل له الليل كاللباس يدخل فيه فيسكن ، ويخلد إلى النوم والراحة حتى إذا لاحت تباشير الصباح سعى في الأرض لكسب قوته ومعاشة . وبذلك ينظم هذان الكوكبان حياة الإنسان ، ويوزعانها على نهار عامل نشيط وليل ساكن مريح . وهي نعمة ينبغي على الإنسان أن يقدرها وهو لا يقدرها إلا إذا تصور الدنيا لا يعمرها إلا كوكب واحد من الكوكبين . فكانت ليلاً خالصاً أو نهاراً خالصاً . إذن لاضطربت شئون الإنسان وما استطاع أن يعيش ولا أن يرقى منازل الرقي التي حققها له انقسام اليوم إلى نهار وليل ٢٧ .

يقول تعالى : ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾﴾ ٢٨ ويقول جل شأنه : ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ ٢٩ ويقول : ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾﴾ ٣٠ ويقول : ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾﴾ ٣١ .

فالحق تبارك وتعالى يخبر عما خلق من الآيات الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه ، وأنه جعل الشعاع الصادر عن جرم الشمس ضياء وجعل شعاع القمر نورا ، هذا فن وهذا فن آخر ففاوت بينهما لئلا يشتبها ، وجعل سلطان الشمس بالنهار ، وجعل سلطان القمر بالليل ، وقدره منازل ، فأول ما يبدو صغيراً ثم يتزايد نوره وجرمه حتى يكمل ثم يشرع في النقص حتى يرجع إلى حالته الأولى في تمام الشهر٣٢ .

وانفلاق الإصباح من الظلام حركة تشبه في شكلها انفلاق الحبة والنواة ، وانبثاق النور في تلك الحركة كانبثاق البرعم في هذه الحركة ... وبينهما من مشابه الحركة و الحيوية والبهاء والجمال سمات مشتركة ، ملحوظة في التعبير عن الحقائق المشتركة في طبيعتهما وحقيقتهما كذلك .

وبين انفلاق الحب والنوى وانفلاق الإصباح وسكون الليل صلة أخرى هي أن الإصباح والإمساء والحركة والسكون في هذا الكون أو في هذه الأرض ذو علاقة مباشرة بالنبات و الحياة .

إن كون هذه الأرض تدور دورتها هذه الأيام أمام الشمس ، وكون القمر بهذا الحجم وبهذا البعد من الأرض ، وكون الشمس كذلك ، وهذه الدرجة من الحرارة هي تقديرات من العزيز ولولا هذه التقديرات ما انبثقت الحياة في الأرض على هذا النحو ، ولما انبثق النبت والشجر من الحب والنوى ٣٣ .

إننا لا نكون بمنأى عن النبات ونحن نتحدث عن الظواهر الكونية ، فالقرآن رشح النبات لتوضيح الصورة وتقريبها للإنسان خاصة في مجال الكونيات . ولنتأمل هذه الآية التي شبه الله تعالى فيها القمر بالعرجون القديم أو العزق في النخلة . يقول تعالى ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ۝٣٧ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ۝٣٨ وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ۝٣٩ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ۝٤٠﴾ ٣٤ .

إن منازل القمر ثمانية وعشرون منزلاً ينزل القمر كل ليلة في واحد منها لا يتخطاه ولا يتقاصر عنه من ليلة المستهل إلى الثانية والعشرين ثم يستتر ليلتين أو ليلة إذا نقص الشهر ، وهذه المنازل هي مواقع النجوم التي نسبت إليها العرب الأنواء المستمرة فإذا كان في آخر منازله دق و استقوس وعاد كالعرجون القديم وهو عود العزق مابين شماريخه إلى منبته من النخلة ، والقديم المحول ، وإذا قدم دق وانحنى واصفر فشبه به من ثلاثة أوجه . وبذلك لا ينبغي للشمس أن تجتمع معه في وقت واحد وتداخله في سلطانه فتطمس نوره .ولا يسبق الليل النهار بل هما متعاقبان بمقتضى تدبيره تعالى . وجعلت الشمس غير مدركة ، والقمر غير سابق ، لأن الشمس بطيئة السير تقطع فلكها في شهر فكانت الشمس لبطئها جديرة بأن توصف بالإدراك والقمر لسرعته جديراً بأن يوصف بالسبق٣٥ .

فصورة الهلال في الآية القرآنية تضعنا في مملكة النبات مباشرة إذ تواجهنا بعراجين النخل وأقنائها عندما تذوى وتصفر وتتقوس ٣٦ .

ولعل أروع ما لفت الإنسان على مر العصور موكب الشمس وهي تبدو من الأفق في مطلع النهار وتمضي في الصعود إلى وسط السماء ، وكلما تعالت ازدادت حرارتها حتى إذا كان الضحى زاغ البصر من كثرة ما ترسل من أضواء تحيط بكل شيء ،كأنما تريد أن تشعل الحياة إشعالاً ، لا يخمد في كل ما تقع عليه . وكأنما ألهم أجدادنا الأولون مالها من تأثير في حياتهم ، ومن المؤكد أنهم لم يكونوا يعرفون عنها ما نعرفه الآن من أنها مصدر الحياة في كل الأرض وكل ظواهرها الطبيعية بفضل طاقتها الحرارية التي تبعث الحياة في كل الكائنات الأرضية ، والتي تعد القوى المائية والأنهار والتي أتاحت وتتيح لنا جميع موارد الطاقة . وكل ذلك لم يكن يعرفه الأجداد المتعمقون في القدم ولكنهم أحسوا إحساساً دقيقاً بخطرها ، وراعهم موكبها اليومي وأنه لولا بزوغها كل صباح لأظلمت

الدنيا كأنما شعروا أنها صاحبة السلطان الأول في الوجود لذلك قدسوها وعبدوها وجعلوها أكبر معبوداتهم لا في مصر وحدها بل في جزيرة العرب وغيرها ، إنها آية كبرى من آيات الكون هي وضياؤها الذي يبلغ الأوج مذ الضحى وأنواره القوية .

أما القمر فهو الكوكب الثاني الذي لفت الإنسان منذ القدم ، إذ رآه حين يرخي الظلام سدوله علي التلال والوديان والجبال والأشجار والينابيع ، والآبار والأنهار وجميع المسالك والدروب يرسل نوره على جميع البقاع ، فإذا الحياة التي انطفأت في كل مكان بانطفاء الشمس قد استيقظت من سباتها ولم يعد يرين عليها الصمت والسكون والرقود ، ولم يعد الإنسان أسير الظلام ولا عاد يلابسه ويلابس كل ما حوله فقد طرده نور القمر . وهو نور لطيف لا تمازجه حرارة كحرارة الشمس ، وكأنه رحمة كبرى تبزغ في السماء لإنقاذ الإنسان من وحشة الظلام ومخاوفه ، ولذلك طالما ناغاه الإنسان على نحو ما يناغي الطفل المصباح لما له من أثر في تحريك نفسه وبعث خواطره فكان طبيعياً لأجدادنا الأولين في بدء الحياة الإنسانية أن يقدسوه ويعبدوه كما قدسوا الشمس وعبدوها ، إنه وحده الذي يعتلي عرش الليل كما تعتلي الشمس عرش النهار ٣٧ .

وكما جعل في الليل موتاً و جعل في النهار المتقلب والمعاش ، حيث ينطلق الناس إلى ما يفيدهم في شأن دنياهم . وفيه إيحاء بالعمل وحث عليه وإغراء به ، لأن النهار الذي هو جزء من الزمن يصبح نفسه معاش الخلائق . فمن أراد أن يعيش فلينشط فيه ومن أراد أن ينعم فليزدد نشاطه ، ولتتواصل حركته في تلك الرقعة الفسيحة من النهار . يقول تعالى ، وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلاً ﴿١٢﴾ ٣٨

ويقول جل شأنه : هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا . ٣٩

ويقول تعالى ، {اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ} ٤٠ .

ويقول تعالى ، وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١٠﴾ ٤١

فالضديات لابد أن تكون متساوية في ميزان التقدير الإلهي ، " وهذا ما يسمى بنظام حفظ الكون بدقة . وآيات التنزيل تزخر بالمقارنات بين الضديات مثل قوله تعالى " واختلاف الليل والنهار" أي تعاقبهما الأول بالظلمة والثاني بالضياء ، وهكذا ترى البياض والسواد ، والظلمات والنور ، والظل و الحرور بنسب متساوية ومقادير محكمة إلى آخر ما جاء في التنزيل من الآيات الدالة على عظمة الخالق ومدى حكمته في خلقه ورعايته وعنايته بما خلق ٤٢ .

ومشهد اختلاف الليل والنهار لو فتحنا له بصائرنا وقلوبنا لو تلقيناه كمشهد جديد تتفتح عليه العيون أول مرة لارتعشت له رؤانا ، ولاهتزت له مشاعرنا ...

وقيمة كل من الليل والنهار لا تتجلى للإنسان إلا إذا صارت الحياة على أحدهما فقط دون الآخر . أي كانت ليلاً دائما أو نهاراً دائما . فلو كانت كذلك لفسد جهاز هذا الإنسان فضلاً عن فساد ما حوله كله ، وتعذر حياته ونشاطه وإنتاجه . ويقول تعالى : قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ ٤٣ .

إنه الكون بتمامه وكل ما فيه من كائنات خيرة وشريرة يتألف منها بنيانه وكلياته وجزئياته ، وما يداخلها من كوامن الحكمة الإلهية و دفائنها ، مما يملأ النفوس بالعجب ومما يدفع العقول إلى الإيمان بإله قائم على هذا الوجود يدبره ويحكم تدبيره ، إنه رب يربي ما يخلقه وينميه ويتعهده في أطواره حتى يصل إلى الغاية المرتقبة ٤٤

هذا ولم تترك السماء دون جمال وبهاء ، ولكن الحق تبارك اسمه زينها وجملها لكي تبدو في أجمل صورة لعين المتأمل. " ونظرة إلى السماء كافية لرؤية هذه الزينة ولإدراك أن الجمال عنصر مقصود في بناء هذا الكون وأن صنعة الصانع فيه بديعة التكوين جميلة التنسيق ، وأن الجمال فيه فطرة عميقة ، لا عرض سطحي وأن تصميمه قائم على جمال التكوين ، كما هو قائم على الوظيفة سواء بسواء . فكل شيء فيه بقدر وكل شيء فيه يؤدي وظيفته بدقة وهو في مجموعه جميل ٤٥ .

يقول تعالى واصفاً السماء بالبهاء والجمال :إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ ٤٦ .

ويقول جل شأنه : ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ۝﴾ ٤٧.

والمقصود بالسماء هنا ، السماء الظاهرة لأعيننا التي نرى فيها الكواكب والنجوم . وسميت الكواكب مصابيح لأنها تضيء الليل ، ويدخل فيها القمر لأنه أعظم الكواكب إضاءة في الليل و جنح الظلام .

وبالإضافة إلى الزينة والجمال أضاف تعالى إلى هذه الكواكب منافع أخرى ، حيث جعلها رجوماً للشياطين . أي " الأعداء الذين يخرجون الناس من النور إلى الظلمات ، وكذلك يُهتدى بها في ظلمات البر والبحر ٤٨ .

إن السماء وتناثر الكواكب فيها " لأجمل مشهد تقع عليه الأعين ولا تمل طول النظر إليه . وكل نجمة توصوص بضوئها وكل كوكب يوصوص بنوره وكأنه عين محبة تخالسك النظر ، فإذا أنت حدقت فيها ، أغمضت وتوارت ، وإذا أنت التفت عنها أبرقت ولمعت . وتتبع مواقعها وتغير منازلها ليلة بعد ليلة وآناً بعد آن متعةً نفسية لا تملها النفس أبداً ٤٩ .

ولكن لما كان الكون بهذا الشكل المتكامل ، فمن المستفيد من ذلك كله ؟

إن الكون المليء بالكائنات الحية التي تعود عليها الفائدة منه ، ولكن هذه الكائنات وراءها غاية من خلقها غاية تتجلى في أنها مسخرة الإنسان الظاهرة الأولى في الكون . فكل شيء في هذا الكون تعود له فائدة على الإنسان الذي جعله الله خليفته في أرضه . وكرمه وفضله على سائر المخلوقات ، وتشاء الحكمة العليا أن يتغذى على جنس ما خلق منه ، فالنبات ينبت من الأرض بعد نزول الماء عليها ، والكائنات الحية تتغذى على هذا النبات . فكل كائن حي مرده إلى الأرض التي خلق منها الإنسان . فالعلاقة بين الأرض والإنسان ، ترقى إلى النسب ، أي نسبة الجزء إلى الكل ، فهي للإنسان بمثابة الأم ، إذ منها جمع الحق تعالى بنية أجزائه ومكونات أعضائه ، وعليها سعيه وحياته وفيها نومه وبياته ، وإليها عودته بعد مماته ٥٠ .

يقول تعالى : ﴿۞ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ۝﴾ ٥١ . ويقول جل شأنه : ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ ٥٢

ويقول الله تعالى : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝﴾ ٥٣ .

ويقول تبارك اسمه : ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۝﴾ ٥٤

فاشتقاق آدم من الأدمة وهو أديم الأرض ٥٥ . والصلصال هو الطين اليابس الذي يصلصل وهو غير مطبوخ ، وإذا طبخ فهو فخار ... والحمأ ، هو الطين الأسود المتغير ٥٦ .

إن أصل الإنسان وأصل الحياة كلها من طين هذه الأرض ومن عناصره الرئيسة التي تتمثل بذاتها في تركيب الإنسان الجسدي وتركيب الأحياء أجمعين . فالطين هو المصدر الأول أو الطور الأول والإنسان هو الطور الأخير ، والقرآن يقرر هذه الحقيقة ليتخذها مجالاً للتدبر في صنع الله ، ولتأمل النقلة البعيدة بين الطين والإنسان المتسلسل في نشأته من ذلك الطين ٥٧ .

إذن فنشأة جنس الإنسان من غذاء الأرض ، أو من عناصرها التي يتألف منها عناصر تكوينهم الجسدي . ومع أنهم من عناصر هذه الأرض فقد استخلفهم فيها ليعمروها ، استخلفهم بجنسهم ، واستخلفهم بأشخاصهم بعد الذاهبين من قبلهم .

من هنا كانت بداية البحث بهذا الحديث عن بعض الظواهر الكونية في السماء والأرض ، لأنها ذات تأثير مباشر على حياة الكائن الحي ، والنبات أحد هذه الكائنات الحية التي تتأثر بهذه الكونيات التي نتجت عن انفصال الأرض عن السماء ، هذا الانفصال الذي يعد تمهيدا لنشأة الحياة على الأرض .

وكما ذكرنا ، فالإنسان هو المخلوق الأول الذي تعود عليه الفائدة من ذلك كله ، لأن الكون بما فيه معد ومسخر لخدمة الإنسان الذي خلق لعبادة الله تعالى القائل : ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ ٥٨

****

هوامش الفصل الثاني

١ مظاهر كونية في معالم قرآنية ص ٧، د. محمد محمود عبد الله مؤسسة الخليج ط١ . ١٩٩٢ .
٢ سورة يونس - الآية ٣ .
٣ سورة الفرقان - الآية ٥٩ .
٤ سورة الأنبياء – الآية ٣٠
٥ سورة الطلاق – الآية ١٢ .
٦ مظاهر كونية في معالم قرآنية ص ٢٤ .
٧ سورة غافر – الآية ٦٥ .
٨ سورة الذاريات - الآيات ٤٧ – ٤٨ .
٩ من الآية ١٠ - سورة الزخرف .
١٠ ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ، ج ٤، ص ٨٦ .
١١ تفسير جزء عم : محمد عبده ،ص ٨٧ ، دار ابن زيدون – بيروت ، ط ٢ .
١٢ سيد قطب : التصوير الفني في القرآن ، ص٦٤ ، دار المعارف .
١٣ سورة فصلت – الآية ١١ .
١٤ الزمخشري : الكشاف ج ٣ ، ص٤٤٥ ، دار الفكر .
١٥ سيد قطب : في ظلال القرآن ، ج٢٤، ص ٣١١٥ ، دار الشروق .
١٦ سورة الشمس – الآيات ٥ ، ٦ .
١٧ د. شوقي ضيف : " تفسير سورة الرحمن وسور قصار " ، ص ٣٢٩ ، دار المعارف ، وانظر محمد عبده ، ص ١١ .
١٨ د. عائشة عبد الرحمن : "التفسير البياني " ، ج١ ، ص ١٥٠ ، دار المعارف ، ط ٧ .
١٩ سورة الحج ٦٥ .
٢٠ سورة النبأ – الآية ٦- ٧ .
٢١ سورة النحل - الآية ١٥ .
٢٢ سورة التكوير – الآية ٣ .
٢٣ سورة الحاقة – الآية ١٤ .
٢٤ التصوير الفني في القرآن ، ص ٥٨ .
٢٥ سورة نوح – الآية ١٧ ، ١٨
٢٦ تفسير سورة الرحمن وسور قصار ، ص ٥٠ بتصرف .
٢٧ المرجع السابق ، ص ٥١ .
٢٨ سورة يونس – الآية ٥ .
٢٩ سورة إبراهيم – الآيات ٣٣ ، ٣٤ .
٣٠ سورة الأنعام - الآية ٩٦ .
٣١ سورة الرحمن – الآية ٥ .
٣٢ ابن كثير ، جـ ٢ ص ٤١٥ .
٣٣ في ظلال القران . جـ ٧ ،ص ١١٥٧ .
٣٤ سورة يس – الآيات ٣٧ : ٤٠ .
٣٥ الكشاف ، جـ ٣ ص ٣٢٣ .
٣٦ د. عاطف جوده نصر ، الخيال ، ص ٢١٢ ، الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٨٤ م .
٣٧ د. شوقي ضيف ، المرجع السابق ، ص ٣٢١ وما بعدها بتصرف .
٣٨ سورة الإسراء – الآية ١٢ .
٣٩ سورة الفرقان – الآية ٤٧ .
٤٠ سورة غافر – الآية ٦١
٤١ سورة النبأ - الآيات ٩: ١١
٤٢ مظاهر كونية في معالم قرآنية ، ص ١١٥ .
٤٣ سورة القصص – الآيات ٧٢ ، ٧٣ .
٤٤ تفسير سورة الرحمن وسور قصار ، ص ١٩ .
٤٥ في ظلال القرآن جـ ٢٣ ص ٢٩٨٤ .
٤٦ سورة الصافات الآيات ٦ ، ٧ .

٤٧ سورة الملك – الآية ٥ .
٤٨ الكشاف جـ ٤ ، ص ١٣٥ .
٤٩ في ظلال القرآن جـ ٢٣ ، ص ٢٩٨٤ .
٥٠ مظاهر كونية ، ص ٣٥ .
٥١ سورة هود – الآية ٦١.
٥٢ سورة الحجر الآية ٢٧
٥٣ سورة المؤمنون الآية ١٢ .
٥٤ سورة ص الآية ٧٢ .
٥٥ الكشاف جـ ١ ص ٢٧٢ .
٥٦ السابق جـ ٢ ، ص ٣٦٠ .
٥٧ في ظلال القرآن ، جـ ١٨ ، ص ٢٤٥٧ .
٥٨ سورة الذاريات الآية ٥٦ .

الفصل الثالث

الظاهرة المائية وعلاقتها بالنبات

الفصل الثالث

الظاهرة المائية وعلاقتها بالنبات

في الفصل السابق ، أوضحت علاقة السماء بالأرض ، وذكرت أن الماء نازل من السماء وله علاقة مباشرة بكواكبها . إذن فتكوين الكون على هذا النظام هو الذي يسمح بنزول الماء من السماء ويسمح كذلك بإسكانه في الأرض .

لقد نزل القرآن الكريم أول ما نزل على سيدنا محمد- صلى الله عليه وسلم ، في مكة ، وهي بلد صحراوي ، حيث إنها تقع داخل نطاق شبه جزيرة العرب ، وهي جزيرة لا توجد بها أنهار أو جداول مائية . لذلك فإن الماء يمثل لهؤلاء القوم شيئاً ذا قيمة أدركوا عدم معيشتهم بدونه .

إنها بيئة فقيرة إلى الماء ، وتجد معاناة في سبيل الحصول عليه ، لذلك عندما أنزل الله تبارك وتعالى القرآن على محمد- صلى الله عليه وسلم . كان لابد أن تتخلله أمور جديدة وجذابة بالنسبة للعرب . أمور تختلف عن حياتهم وما بها من صعوبة وشظف عيش . والماء من بين هذه الأمور سواء كان ماء أمطار أم ماء أنهار . والمعروف أن العرب في مكة لم يألفوا الاعتماد على مياه الأنهار وإنما كان جل اعتمادهم على مياه الأمطار التي تسقط بنظام غير ثابت . مما نتج عنه معاناة أهل هذه البلاد وفقرهم إلى الماء ، وكانت نتيجة ذلك عدم وجود زراعة عندهم . ولكن الشيء الذي كانت تخدمهم فيه الأمطار تمثل في رعي الأغنام على الأعشاب والنباتات التي نبتت على أثر سقوط هذه الأمطار مما جعلهم في سعي و ترحال وراء تلك المراعي .

وبذلك يكون القرآن بما فيه من آيات تصور الماء للعرب بصور مختلفة ، منقذاً لهم من هذه الحياة الصعبة التي كانوا يعيشونها . وكأن الله تعالى طوال السنين التي سبقت نزول القرآن يمهد لانتشار دينه ، وذلك بالتقليل من هذه الأشياء فعندما يأتي لهم مبشر بهذا الشيء الذي تصبو إليه نفوسهم يؤمنون به ويتبعون طريقه .

فتركيز القرآن على الماء والنبات هذين العنصرين اللذين لا تقوم الحياة بدونهما لم يكن من قبيل المبالغة وإنما كان له حكمة وهدف عظيم ، يتمثل في إثبات قدرة الله تعالى على أن يأتي بالماء ، فلو شاء أتى به ولو شاء منعه وهلك هؤلاء القوم .

وبما أن الماء أساس كل كائن حي ، فإن طبيعة البحث تقتضي حديثاً عن خلق الكائنات الحية من الماء . حيث وردت آيات كثيرة تؤكد أن كل كائن حي مرده إلى الماء . يقول الله تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۝٣٠﴾ ١ .

فالماء هو سر الوجود ، والدعامة الأولى في تكوين الكون ، لذا جعل الله حياة كل شيء منه وإن كان يظهر من الطبيعة أن الماء في باطن الأرض إلا انه سابق عليها وهو الأصل في تكوينها بقوله جل علاه :

وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ ﴿٧﴾ ٢

إنه النعمة الكبرى التي أنعم الله بها على بني البشر ، منه أقام حياتهم ، وقسم أرزاقهم ، ومنه خلقهم ، فهو أثمن ما تملك البشرية إذ لا استمرار لها إلا به .

وإذا كان الحق تعالى بدأ بذكر أن كل شيء خلق من الماء ، فإنه تدرج من هذا الكل إلى الجزء حيث نص القرآن على أن كل دابة خلقت من الماء ، تذكيراً بقدرته التامة في خلقه أنواع المخلوقات من ماء واحد .

يقول تعالى : وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ﴿٤٥﴾ ٣

وسبب تنكير الماء في هذه الآية هو " أنه تعالى خلق كل دابة من نوع من الماء مختص بتلك الدابة . وسبب تعريفه في الآية السابقة ، هو أن أجناس الحيوان كلها مخلوقة من هذا الجنس الذي هو جنس الماء ٤

وعلم الإنسان قاصر عن معرفة كل الدواب التي خلقت من الماء . قال فخر الدين الرازي ، اعلم أن العقول قاصرة عن الإحاطة بأحوال أصغر الحيوانات علي الكمال ، والاستدلال بها على الصانع ظاهر ، لأنه لو كان الأمر بتركيب الطبائع لكان في الكل على السوية ، فاختصاص كل واحد من هذه الحيوانات بأعضائها وأعمارها ومقادير أبدانها ، لابد وأن يكون بتدبير قاهر حكيم ٥ .

ولكن أليس الإنسان أهم هذه الدواب التي خلقت من ماء ؟

يقول تعالى : وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ٦

ويقول جل شانه : أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ ٧.

ويقول أيضاً : فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ ٨

لقد خلق الله الإنسان من نطفة ضعيفة فسواه وعدله ، وجعله كامل الخلقة ، ذكر أو أنثى ، كما يشاء فهو في ابتداء أمره ولد نسيب ثم يتزوج ويصهر ثم له أصهار و قرابات وكل ذلك من ماء مهين . وفي ذلك تنبيه للانسان على ضعف أصله الذي خلق منه ، وإرشاد له إلى الاعتراف بالميعاد لأن من قدر على البداءة فهو قادر على الإعادة بطريقه الأولى ٩ .

وتشاء الحكمة الإلهية أن تكون حياة هذه الكائنات ا لمخلوقة من الماء ، على نفس جنس ما خلقت منه . إذ خلقها الله تعالى من الماء ، وجعل حياتها تمتد وتستمر عليه فالماء يدخل في تركيب أي جسم حي وبنائه بل هو المكون الأصلي في تركيب مادة الخلية الحية .

يقول تعالى : ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾ ١٠ .

فالتعبير القرآني يرد كل حركة إلى الله تعالى حتى شرب الماء " فأسقيناكموه" والمقصود أننا جعلنا خلقتكم تطلب الماء وجعلنا الماء صالحاً لحاجاتكم ١١ .

ومن رحمته أن أنزل الماء وجعله عذباً وحفظه في العيون و الآبار والأنهار ، لكي يبقى طول السنة يشرب منه الناس ويسقون أنعامهم و زروعهم .

ووصف الرياح في الآية القرآنية ، أكسبها حياة حيوانية ، تلقح وتنتج " أي تلقح السحاب ، فتدر الماء ، وتلقح الشجرة فتفتح عن أوراقها وأكمامها وذكرها بصيغة الجمع ليكون منها النتاج ، بخلاف الريح العقيمة فإنه أفردها ووصفها بالعقم ١٢ .

ولقد عدد القرآن الأغراض في إرسال الرياح ، حيث أرسلت للبشارة بالغيث ولإذاقة الرحمة وهي نزول المطر وحصوله وحصول الخصب الذي يتبعه ، و زكاء الأرض ، وتذرية الحبوب وغير ذلك ...١٣

يقول تعالى : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾﴾ ١٤

ولأهمية هذا المطر ، فإنه إذا تأخر هطوله فترة طويلة ، ييئس القوم من نزوله ، وعندما يمن الله عليهم برحمته يستبشرون ويفرحون بالماء ، ولا يعرف هذا الاستبشار على حقيقته كما يعرفه الذين يعيشون

على المطر . والعرب أعرف الناس بهذا ، وحياتهم كلها تقوم على ماء السماء ، وقد تضمنت ذكره أشعارهم وأخبارهم في لهفة وحب .

يقول تعالى مصوراً حالهم حين يتأخر نزول المطر وحين يستبشرون بالرياح المحملة بالماء : ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَـٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَـٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ﴾[15] .

فهذا تصوير لحالهم قبل أن ينزل عليهم المطر ، ثم بعد ذلك حولهم من اليأس إلى الاستبشار . وهذا أثر من آثار رحمة الله في النفوس المستبشرة بعد القنوط وفي الأرض المستبشرة بعد الهمود ، ترى وقد اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج . " ثم نبه بذلك على إحياء الأجساد بعد موتها ، وتفرقها وتمزقها ، فالذي فعل ذلك قادر على إحياء الأموات ... ولئن أرسل سبحانه وتعالى ريحاً يابسة على الزرع الذي زرعوه ونبت وشب و استوى على سوقه فرأوه مصفراً ، أي : قد اصفر وشرع في الفساد لظلوا من بعد هذه الحال يكفرون أي يجحدون ما تقدم إليهم من النعم ... وقيل الرياح ثمانية . أربعة منها رحمة وأربعة منها عذاب . فأما الرحمة ، فالناشرات ، والمبشرات والمرسلات ، والذاريات . وأما العذاب فالعقيم و الصرصر ، وهما في البر ، والعاصف والقاصف وهما في البحر ... والرياح مختلفة في منفعتها وتأثيرها ، فريح لينة رطبة تغذي النبات وأخرى تجففه وأخرى تهلكه ، وأخرى توهنه وتضعفه[16] .

والآيات تحمل دلالة على أن " عهدهم بالمطر قد تطاول وبعد فاستحكم بأسهم وتمادى إبلا سهم ، فكان الاستبشار على قدر اغتمامهم بذلك .... ورحمة الله هي الغيث وأثرها النبات و ذمهم الله تعالى بأنه إذا حبس عنهم القطر قنطوا من رحمة الله ، وضربوا أذقانهم على صدورهم مبلسين ، فإذا أصابهم برحمته ورزقهم المطر استبشروا وابتهجوا فإذا أرسل ريحاً تضرب زروعهم بالصفار ضجوا وكفروا بنعمة الله ، فهم في

جميع هذه الأحوال على الصفة المذمومة ، فكان عليهم أن يتوكلوا على الله وفضله ، فقنطوا وأن يشكروا نعمته فلم يزيدوا على الفرح و الاستبشار وأن يصبروا على بلائه فكفروا ١٧ .

وفي ذلك توجيه لأهل مكة ، لأن الماء أهم نقاط ضعفهم ، فهم لا يملكون مفاتيحه ، فما عليهم إلا انتظار هطوله من السماء ، لأن بيئتهم بيئة رعي في الغالب فإذا غاب الماء جفت المراعي وتعرضت أنعامهم للهلاك .

فاحتفال القرآن بالماء من قبيل أهمية الماء في تلك البيئة الصحراوية . ومن هنا مثل القرآن لقدرة الله بالماء يقول تعالى : ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾﴾ ١٨ .

فالرياح تقوم بتبخير الماء من البحار والأنهار وتحويله إلى كتل من السحاب ، فيساق السحاب بسرعة البرق إلى الأرض المجدبة ، وفوقها ينهمر الغيث وتخضر الأرض وتروى الكائنات ويشرب العطشى بعد أن كادوا أن يهلكوا ، وهذه حياة الأرض بعد موتها بالإنبات بعد أن كانت جرداء لا حياة عليها فتصبح حية بالزرع والثمار ، تكفي ما عليها من الكائنات بقدرة الله ١٩ .

نحن – المسلمين – لا ندهش عندما يفاجئنا القرآن بما لم نعلمه إلا بعد أبحاث لا ندهش لأننا نعلم أن عجائبه لا تنتهي ونؤمن بأن هذا القرآن هو كلام الله العليم وهذه الآيات كلها معجزات إذ أثبت العلماء أن الرياح تلقح السحاب وكذلك تلقح الشجر ومن خلال دراستنا عن النبات علمنا أن هناك تلقيحاً هوائياً بين النباتات المذكرة والنباتات المؤنثة .

ولكن هل كان في الجزيرة العربية والعالم من حولها أيام نزول القرآن أو قبله من يعلم أن الرياح لواقح للنبات ؟

إن هذا إعجاز خاص بالقرآن ولم يكتشف هذا إلا حديثا . إننا نعيش عصر العلم ، ومع ذلك من الناس من لا يعلم عن ذلك شيئاً فما بالنا بالعرب القدماء !!

وتطالعنا الصحف من آن لآخر بأنباء الجفاف الذي يصيب بعضاً من البلاد نتيجة لعدم هطول الأمطار ويكون هذا في بلاد تعتمد على ماء المطر كارثة لا تخفى نتائجها فتموت الأرض بعد خضرة وتختفي المراعي وتصير الأرض جرداء كالحة ولا يجد الناس ما يأكلون فتكون المجاعة والهجرة إلى أرض حية ٢٠ .

وفي ديننا الإسلامي الحنيف شرعت صلاة الاستسقاء وهي بمثابة دعاء إلى الله تعالى الذي خلق السحاب وسيره ويقدر على إنزال المطر منه أن ينزل هذا الماء إلى الأرض الجرز ، ليستفيد منه الإنسان والحيوان وكل كائن حي .

ونلحظ في الآية القرآنية السابق ذكرها تقديماً لإحياء الأرض وسقي الأنعام على سقي الإناس وذلك لأن حياة الإناس بحياة أرضهم وأنعامهم وقدم ما هو سبب حياتهم وتعايشهم على سقيهم ، لأنهم إذا ظفروا بما يكون سقياً لأرضهم ومواشيهم لا يعدمون سقياهم ٢١ .

وفيها كذلك نلحظ أن التعبير بالحياة والموت يخيل أن الأرض كائن حي يحيا ويموت ، وإنها لكذلك في حقيقتها التي صورها القرآن لأن الماء حين يصيب الأرض يبعث فيها الخصب فتنبت الزرع الحي ، وتموج صفحتها بالحياة المنبثقة في هذا النبات ومن ثم في الحيوان والإنسان فالماء رسول الحياة حيث كان تكون الحياة ٢٢ . يقول تعالى ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ ٢٣ .

ويقول جل شأنه : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ ﴾ ٢٤ .

وإذا كانت هذه الآيات تساق لتثبت أن الله تعالى هو الذي خلق البشر ، وهو الذي بيده مفاتيح أرزاقهم ، فإن فيها دلالة أخرى ، هي أن الله مثلما خلق الناس من الماء وجعل حياتهم قائمة عليه ، فهو سبحانه قادر على بعثهم وإعادتهم مرة أخرى .

ولكن ماذا تعني كلمات الخوف والطمع في آية سورة الروم السابقة ؟

يقول صاحب الكشاف : إن من البلاد ما لا ينتفع أهله بالمطر كأهل مصر . ويطمع فيه من له فيه نفع ويحيا به ٢٥ .

ومعنى كلام الزمخشري أن البلاد التي لا ينتفع أهلها بالمطر تخاف المطر وكأنه عائق لهم ، لأن بها ما يغني أهلها عنه من الأنهار . أما البلاد التي لا تجري بها أنهار فإنها تترقب المطر وتنتظره طمعاً في أن يحييها أي يحيي نباتها وأنعامها .

ولفظ الغيث المختار في بعض آي التنزيل ، يلقى ظل الغوث ، وتلبية المضطر في الضيق ، كما أن تعبيره عن آثار الغيث " وينشر رحمته " ، يلقى ظلال النداوة والخضرة التي تنشأ عن تفتح النبات في الأرض وارتقاب الثمار ٢٦ .

ولنا أن نتخيل قوماً - وقد غاب عنهم الغيث ، ووقفوا عاجزين عن سبب الحياة الأول - الماء- وأدركهم اليأس والقنوط ، ثم ينزل الله الغيث فتحيا الأرض ، وينبت البذر ويترعرع النبات وتنطلق الحياة .

ولهذا كان الماء وسيلة من وسائل تحذير أهل مكة لعنادهم وجحودهم رسالة محمد - صلى الله عليه وسلم . يقول تعالى : قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾

٢٧

فالماء أعز مفقود وأهون موجود وهو من أعظم نعم الله على الإنسان . فليس حي من الإنسان والحيوان والنبات وإلا وفيه ماء أو خلق من ماء ٢٨ .

والماء الغور : هو الماء الغائر الذاهب في الأرض لا يقدرون عليه ، والمعين الفائض المتدفق ، وهي لمسة قريبة من حياة أهل مكة ، إذ كانوا يستبعدون ذلك اليوم ويشكون فيه ... فكيف لو توجهت إرادة الله إلى حرمانهم مصدر الحياة القريب ! ثم يدعهم يتدبرون ما يكون لو أذن الله بوقوع هذا المحذور ٢٩ .

يقول تعالى : أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ ٣٠

أي لو يشاء الله لجعل الماء مراً لا يصلح لشرب ولا لزرع ، فلولا تشكرون " أي فهلا تشكرون نعمة الله عليكم في إنزاله المطر عليكم عذباً زلالا ... وروي أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - كان إذا شرب الماء قال : الحمد لله الذي سقانا عذباً فراتاً ولم يجعله أجاجاً بذنوبنا ٣١ .

هذا ، وإذا كان هذا الكلام موجهاً لأهل مكة ، فإن ذلك لأن القرآن نزل أولاً في بيئتهم ، ووجه إليهم ، وهم قوم عرفوا بين الأمم بفصاحة اللسان ، وبراعة البيان ، وإذا قالوا أحسنوا القول ، فجمعوا فيه بين

شرف اللفظ وكرم المعنى ، وإذا سمعوا الكلام البليغ اقبلوا عليه ، وكانوا مع ذلك أولى حمية وإعجاب بالنفس شديد .

و يجدر بي أن أتحدث عن الماء في الآيات المدنية ، فأقول إن أهل المدينة عندما انتقل الرسول – صلى الله عليه وسلم – إليهم وعاش بينهم قرءوا الآيات المكية وفهموها بل حفظوها في صدورهم ، ولذلك لم يعد القرآن بحاجة إلى أن يقرو لهم ويعيد عليهم ما جاء في الآيات المكية خاصة وأنهم أقبلوا إقبالاً شديداً على الدين الإسلامي الحنيف ، ولم يجادلوا أو يعاندوا محمداً بل أعلن جلهم إسلامه فور نزول الرسول أرض يثرب .

وكذلك خلت الآيات المدنية من التحذير أو التهديد بالماء ، وذلك لأنهم آمنوا بالقرآن إيماناً كفاهم تحذير منزله سبحانه ، أما أهل مكة فالقرآن يعرض عليهم في كل مرة مشاهد مألوفة ومحسوسة ، تطالع حواسهم في كل لحظة ، وتتصل بحياتهم ومعاشهم وتلمس شعورهم ووجدانهم . وهو يوجههم إلى هذه المشاهد ويعرضها عليهم كأنها مشاهد جديدة ، وإن مشاهد الطبيعة لجديدة أبداً عند من ينظر إليها بحس مرهف وعين مفتوحة ٣٢ .

وارتباط الماء بكل شيء حي ، ارتباط لا غنى عنه ، ذلك فالآيات التي تتحدث عن النبات يكون الماء عنصراً أساسا فيها ، إذ إنه المصدر الأساس في إنبات النبات وإحيائه ولقد حظي النبات و الزروع واخضرار الأرض بالنصيب الأوفى من حديث المولى عن الماء ، إذ ذكر الماء مقترناً بالنبات في أماكن كثيرة . لأن النبات بالنسبة للإنسان والحيوان أهم ضروريات الحياة ، فهو وسيلة تجديد الأكسجين اللازم للتنفس ، ولولاه لماتت الحيوانات التي تتغذى عليه ، ومن ثم انتهت حياة الإنسان ، لأن غذاءه إما نبات أو حيوان ٣٣ .

يقول تعالى : ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾﴾ ٣٤ .

فهذه آية من الآيات التي تصور رحلة النبات حتى يصل إلى أكمل صورة ، منذ نزول الماء إلى أن يخرج ثمره ويأكله البشر .

والآية نصت على أن السبب واحد وهو الماء ، والمسببات صنوف ، فأخرج الله من هذا النبات شيئاً غضاً أخضر ، وهو ما تشعب من أصل النبات الخارج من الحبة ، فأخرج من الخضر حباً متراكباً وهو السنبل ... وقنوان دانية أي سهلة المجتنى كالشيء الداني القريب التناول ٣٥ .

والنخل والعنب أشرف الثمار عند أهل الحجاز وربما كانا خيار الثمار في الدنيا ... " والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه " أي متشابه في الورق والشكل ، ومختلف في الثمار شكلاً وطعماً ، وقوله " انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه " أي فكروا في قدرة خالقه من العدم إلى الوجود ... وكذلك الزيتون والرمان من عطف الخاص على العام لمزيد الشرف لأنهما من أعظم النعم ٣٦ .

ولفظ الجنة في الآية جدير بالوقوف عنده قليلاً ، فهو بالطبع كان معروفاً عند العرب ، وإلا لما ذكر في القرآن ، وهو نابع من صميم بيئتهم . وهم يدركون أن معنى الجنة يتمثل في الحدائق والبساتين وإن لم يكونوا عاشوها ، أو امتلكوها ، فإنهم شاهدوها أثناء رحلاتهم التجارية . ومن لم يرها منهم عندما يسمع أو يقرأ هذه الآيات فإن خياله يجول مستحضراً هذه الصورة الرائعة أمام عينيه . وبذلك يكون الجمال عنصراً مقصوداً في القرآن لأن أجمل شيء أن يرى الإنسان حديقة أو يجلس فيها ، وقد نصت الآية على ذلك حين قال تعالى : " انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه " أي انظروا بالحس البصير والقلب اليقظ ... انظروا إليه في ازدهاره ، وازدهائه عند كال نضجه ، وانظروا إليه واستمتعوا بجماله ... إن المجال هنا مجال جمال ومتاع ، كما أنه مجال تدبر في آيات الله .... بدليل أنه لم يقل كلوا ولكن قال انظروا ٣٧ .

وهذا يعد من قبيل التنسيق الجمالي في الكون ، ويظهر أكثر عندما نقارن بين مكان قفر ، ومكان تملؤه الخضرة ويكسوه الجمال الإلهي .

كتب قيصر الروم إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، أما بعد ، فإن رسلي أخبروني ، أن قبلكم شجرة تخرج مثل آذان الفيلة ، ثم تنشق عن مثل الدر البيض ، ثم تخضر مثل الزمرد الأخضر ، ثم تحمر فتكون كالياقوت الأحمر ، ثم تنضج فتكون كأطيب فالوذج أكل ، ثم تينع وتيبس فتكون عصمة للمقيم وزادا للمسافر ، فإن تكن رسلي قد صدقت فإنها شجرة الجنة .

فكتب إليه عمر بن الخطاب ، بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى قيصر الروم السلام على من اتبع الهدى ، أما بعد ، فإن رسلك قد صدقتك وإنها الشجرة التي أنبتها الله عز وجل على مريم حين نفست بعيسى ، فاتق الله ولا تتخذ عيسى إلهاً من دون الله ٣٨ .

يقول تعالى : ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾﴾ ٣٩ .

فبيئة كبيئة العرب في الجزيرة العربية يحمل فيها الشجر من معاني الظل والراحة كثيراً . وبمناسبة ذكر المراعي في الآية ، يجدر بنا أن نتخيل إنسانا وهو يرعى أنعامه في مكانٍ قفر من أماكن الجزيرة العربية ، وقد من الله عليه بأشجار يتخذها ظلاً ومقيلاً وقت اشتداد الحر وهو تخيل يبرز مدى حب الإنسان العربي للأشجار ومدى ولعه بها ، لذا حرص القرآن على تصويرها تصويراً يريح النفوس .

وارتباط الماء بالنبات ليس مقصوراً على لحظة النمو وإخراج الثمر ، ولكن الله تعالى ينزل الماء فيبقى في الأرض كي يستفيد منه كل كائن حي على ظهر الأرض ، فالأنهار الجارية أساسها ماء أنزل من السماء فاحتفظت به الأرض وصارت أودية كي يستخدمها الإنسان في أي وقت يشاء ، يقول تعالى : ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ﴿٢٠﴾﴾ ٤٠ .

يذكر تعالى نعمه على عبيده في إنزاله القطر من السماء بحسب الحاجة ، لا كثيراً فيفسد الأرض ، ولا قليلاً فلا يكفي الزروع بل بقدر الحاجة إليه من السقي والشرب ، حتى إن الأرض التي تحتاج ماء كثيرا لزروعها ، ولا تحتمل دمنتها إنزال المطر عليها يسوق إليها الماء من بلاد أخرى كما في أرض مصر ، ويقال لها الأرض الجرز ، يسوق إليها الله ماء النيل معه طين أحمر فيسقي أرض مصر ويقر الطين على أرضهم ليزرعوا فيه وقوله تعالى " فأسكناه في الأرض " أي جعلنا الماء إذا نزل من السحاب يخلد في الأرض وجعلنا في الأرض قابلية له ، ويشربه ويتغذى به ما فيها من الحب والنوى ... وكذلك أخرج به جنات أي بساتين وحدائق ذات منظر حسن فيها من النخيل والأعناب وهذا ما كان يألف أهل الحجاز ٤١ .

وما النخيل والأعناب إلا نموذجان من الحياة التي تنشأ بالماء في عالم النبات . كما ينشأ الناس من ماء النطفة في عالم الإنسان ، نموذجان قريبان لتصوير المخاطبين إذ ذاك بالقرآن ، ويشيران إلى نظائرهما الكثيرة التي تحيا بالماء ... ثم تنقلنا الآية الكريمة إلى شجرة عظيمة ، وهي شجرة الزيتون " وهي شجرة

تزرع في سيناء منذ آلاف السنين ، وتعمر أشجارها أحيانا إلى أكثر من ألفي سنة ... وهناك صنفان شائعان منها أحدهما ثماره صغيره والآخر ثماره كبيرة وزيتها من أجود الأنواع الصالحة للاستخدام الآدمي ، وثمارها ملتبس بها الدهن ٤٢ . وهي تنبت هناك من الماء الذي أسكن في الأرض ، وذكر هذا المكان على وجه خاص لتذكير العرب بالوادي المقدس .

يقول تعالى : ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ۝ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ۝ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ۝﴾ ٤٣ ويقول جل شأنه : ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ۝﴾ ٤٤ .

قال أبو حيان : إن النظر في هذه الآيات يحتاج إلى فضل تأمل واستعمال فكر ألا ترى أن الحبة الواحدة إذا وضعت في الأرض ومر عليها زمن معين لحقها من نداوة الأرض ما تنتفخ به فيشق أعلاها فتصعد منه شجرة إلى الهواء ، وأسفلها يغوص منه في عمق الأرض شجرة أخرى هي العروق ، ثم ينمو الأعلى ويقوى وتخرج الأوراق والأزهار والأكمام والثمار المشتملة على أجسام مختلفة الطبائع والألوان والمنافع ، وذلك بتقدير قادر هو الله تعالى ٤٥ .

لقد وصف الماء في الآيات السابقة بالبركة لأنه جعل سببا في إنبات جنات الفاكهة ، وحب الحصيد ، وهو النبات المحصود الذي يقتات به من نحو الحنطة والشعير وغيرهما ، وكذلك جعل الماء سبباً في إنبات النخل الذي وصف بالسموق والجمال وهو وصف مقصود لإبراز جمال الطلع المنضد في النخل الباسق ، رزقاً للعباد رزقاً يسوقه الله سبباً ويتولى نبته ويطلع ثمره للعباد ٤٦ .

إن عالم النبات يشبه عالم الإنسان ، فكلاهما يسعى للحفاظ على نوعه ، وعالم النبات ما هو إلا مملكة تسعى دائماً من أجل ارتقائها للأفضل ، وذلك باختيار الحياة المناسبة مع الكائن الحي المناسب في هذا العالم ، ولذلك يوجد في هذا العالم أزواج مثلما في عالم الإنسان .

يقول تعالى : خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ ٤٧ .

فهذا تقرير قرآني يثبت أن النبات خلق أزواجاً وهي حقيقة ضخمة اهتدى إليها العالم مؤخراً . فكل نبات له خلايا تذكير وخلايا تأنيث .. و لا توجد الثمرة إلا بعد التقاء وتلقيح بين زوج النبات كما هو الشأن في النبات والحيوان .

لقد عبر الحق عن الماء النازل من السماء بالرزق في قوله تعالى " وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ ٤٨ .وذلك لأن عليه تنبت البساتين ذات المنظر الحسن والشكل البهي كما قال تعالى ، أَمَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ ﴿٦٠﴾ ٤٩

وقوله تعالى " حدائق ذات بهجة " يشي بأن لعالم الألوان في القرآن اهتماما خاصاً ينسجم مع التنسيق الكلي لهذا الكون " و هو تناسق يبعث البهجة والنشاط في القلب ... وإن تلوين الزهرة الواحدة وتنسيقها ليعجز عنه أعظم رجال الفنون من البشر ، وإن تموّج الألوان وتداخل الخطوط وتنظيم الوريقات في الزهرة الواحدة ليبدو معجزة تتقاصر دونها عبقرية الفن القديم والحديث ٥٠ .

إنها نباتات تسر النظر بما فيها من خضرة وظل و ثمار ، ولم يختصر الأمر فيقول " لتأكلوا منها " لأن الذي يأكل هو الذي يملك فقط ، لكن جمال المنظر ملك لكل من يراه ويستمتع به .

يقول تعالى ، أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٖ مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهَاۚ وَمِنَ ٱلۡجِبَالِ جُدَدُۢ بِيضٞ وَحُمۡرٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٞ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ

ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلۡأَنۡعَـٰمِ مُخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَـٰٓؤُاْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ ٥١ .

فهذا تنبيه من الله على كمال قدرته في خلق الأشياء المتنوعة المختلفة من الشيء الواحد ، وهو الماء الذي ينزله من السماء يخرج به ثمرات مختلفاً ألوانها من أصفر وأحمر وأخضر وأبيض إلى غير ذلك من ألوان الثمار كما هو مشاهد من تنوع ألوانها وطعومها وروائحها ... وخلق الجبال كذلك مختلفة الألوان وكذلك الحيوانات من الناس والدواب والأنعام هي مختلفة أيضاً ٥٢ .

ولأن المعرض هنا معرض أصباغ فإنه لم يذكر هنا من الثمرات إلا ألوانها .. وألوان الثمار معرض بديع للألوان يعجز عن إبداع جانب منه من الرسامين في جميع الأجيال فما من نوع من أنواع الثمار يماثل لونه نوع آخر بل ما من ثمرة يماثل لونها لون أخواتها من النوع الواحد وينتقل من ألوان الثمار إلى ألوان الجبال لأن في ألوان الصخور شبهاً عجيباً بألوان الثمار ٥٣ .

ولكن هل كان العرب على علم بتناسق الألوان قبل أن ينزل عليهم القرآن الكريم ؟

أقول إنهم كانوا يعيشون في بيئة يشعرون من خلالها بقيمة الجمال في عالم النبات لأن الشعور بالجمال فطرة جبل عليها الإنسان . لكن هذا لم يهدهم إلى تقديم أنواع من الفنون تعتمد على براعة التقليد لعالم النبات ، لكنهم برعوا في تقديم أوصاف له من خلال أشعارهم وقصائدهم التي دلت على حسهم المرهف .

ولذلك عندما نزل عليهم القرآن كان لابد وأن تقف عقولهم وتأملاتهم عند كل لفظ ورد فيه لذلك يمكن أن يقال أن هذه الآيات كانت النبراس الذي استضاء بنوره وسار على هديه الفنانون التشكيليون المسلمون ومن سار على نهجهم واهتدى بهديهم منذ صدر الإسلام وحتى هذا الوقت .

" لقد سار على نهجهم وتأثر بهم كثير من الفنانين التشكيليين الأوروبيين ، أولئك الذين كانت أعمالهم الينبوع الذي تدفقت منه المدارس الفنية الحديثة . لقد استغرق الأوروبيون قرابة ثلاثة عشر قرناً كي يتفهموا الفن الإسلامي ويقتبسوا منه قبساً يصنعون ثورة تشكيلية نشاهد آثارها اليوم فيما يسمى بالفن المعاصر ٥٤ .

إن عنصر الجمال في الكون يبدو مقصوداً قصداً تاماً في تصميمه وتنسيقه ، ومن كمال هذا الكون أن وظائف الأشياء تؤدى عن طريق جمالها . والجمال في الجنس هو الوسيلة لجذب الجنس الآخر إليه لأداء الوظيفة التي يقوم بها الجنسان ٥٥ .

وإذا كانت الآيات خاطبت العرب من قبل ، فإنها في الوقت نفسه صالحة لكل زمان ومكان ، وتخاطب البشر على اختلاف أزمنتهم وأمكنتهم ، وذلك لأن الرزق بإنزال الماء من السماء وإخراج الثمر من الأرض ليس مقصوراً على عصر دون عصر ولا على قوم دون قوم ونحن إذا تأملنا حالنا الآن ولاحظنا الطبيعة الغنية فسوف نجد أن هذه الآيات تخاطبنا كما خاطبت العرب من قبل .

وإذا كان القرآن من بين أساليبه إبراز المعنى الواحد بأساليب وصور مختلفة فذلك من قبيل تحدي الكفار وإثبات عجزهم وضعفهم حيال هذا الكتاب ، وأنهم مهما وصلوا من بلاغة وفن قول ، لن يصلوا إلى بلاغة القرآن ونظمه لأنه المعجزة الخالدة .

وكما أن آيات الماء والنبات تلمس الوجدان مباشرة لأنهما سببا الحياة الأساسان ، فإنها تحمل دلالة أخرى متمثلة في استدلال القرآن بهما على البعث مرة أخرى . إذ شبه القرآن إحياء الأجسام بعدما صارت عظاماً بالية ، بعملية إنزال الماء على الأرض ثم إخراج النبات منها .

يقول تعالى : ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾﴾ ٥٦ .

ويقول تبارك اسمه : ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾﴾ ٥٧ .

إن المنصفين إذا نظروا في خلق أنفسهم وفي خلق ما على ظهر الأرض من صنوف الحيوان ازدادوا إيمانا ، وأيقنوا وانتفى عنهم اللبس ، فإذا نظروا في نزول الأمطار وحياة الأرض بعد موتها خلص يقينهم ٥٨ .

والنشر في قوله تعالى " فأنشرنا به بلدة ميتا " مستعار وحقيقته : أظهرنا به النبات والأشجار والثمار ، فكانت كمن أحييناه بعد إماتته ، فكأنه قيل أحيينا به بلدةً ميتا من قولك أنشر الله الموتى فنشروا وهذه الاستعارة أبلغ من الحقيقة لتضمنها من المبالغة ما ليس في أظهرنا والإظهار في الإحياء والإنبات إلا أنه في الإحياء أبلغ ٥٩.

فالذي أنشأ الحياة أول مرة كذلك يعيدها ، والذي أخرج الأحياء أول مرة من الأرض الميتة كذلك يخرج الأحياء منها يوم القيامة .

قال الإمام الغزالي ، لنتأمل كيف كانت الأرض ميتة ، فإذا أنزل عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من عجائب النبات . ثم انظر كيف أودع الحياة تحتها ففجر العيون وأسال الأنهار تجري على وجهها ، وأخرج من الحجارة اليابسة ومن التراب الكدر ماء رقيقا عذبا زلالاً وجعل به كل شيء حي فأخرج به فنون الأشجار والنبات ، رطب وعنب وقضب وزيتون ونخل ورمان وفواكه كثيرة ، لا تحصى ، مختلفة الأشكال والألوان والطعوم والصفات والأراييح ، يفضل بعضها على بعض في الأكل ، تسقى بماء واحد ، وتخرج من أرض واحدة فإن قلت إن اختلافها باختلاف بذروها وأصولها ، فمتى كان في النواة نخلة مطوقة بعناقيد الرطب . ومتى كان في حبة واحدة سبع سنابل ، في كل سنبلة مائة حبة . ثم انظر إلى أرض البوادي وفتش ظاهرها و باطنها فتراه ترابا متشابها فإذا أنزل عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ، ألوانا مختلفة ونباتا متشابها وغير متشابه ، لكل واحد لون وطعم وشكل يخالف الآخر ... فانظر إلى كثرة منافع النبات . وكيف أودع الله تعالى العقاقير المنافع الغريبة ، فهذا نبات يغذى ، وهذا نبات يقوي وهذا يضعف ، وهذا يحيي ، وهذا يساعد على اليقظة ، فلم تنبت من الأرض ورقة ولا نبته إلا فيها منافع ٦٠ .

يقول تعالى : أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَـٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ ٦١.

ويقول جل شأنه : وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ ٦٢.

ويقول تبارك اسمه: وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَـٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ٦٣

فهذه آيات تدور معانيها حول أن إحياء الأجساد بعد فنائها يشبه إحياء الأرض بعد موتها .

والأرض الجرز : هي الأرض التي جرز نباتها أي يقطع إما لعدم الماء ، أو لأنه رعي أو أزيل " وبه " أي بالماء تأكل من الزرع أنعامهم ويأكلون هم من حبه ٦٤ .

أما الأرض الخاشعة ، فوصفها هذا مشتق من الخشوع بمعنى التذلل فاستعير لحال الأرض إذا كانت قحطة لا نبات فيها ٦٥ .

فخشوع الأرض هنا هو سكودها قبل نزول المطر عليها ، فإذا أنزل عليها الماء اهتزت وربت . وكأنها حركة شكر على أسباب الحياة .

وأما الأرض الهامدة فهي الأرض الميتة اليابسة وهي هنا وصفت بالاهتزاز والربو وهو الانتفاخ ، إذا أخصبت وتزخرفت بالنبات ، كأنها بمنزلة المختال في زيه ٦٦ .

وهذه دلالة ثانية على البعث كما يحيي الأرض الميتة الهامدة وهي المقحلة التي لا ينبت فيها شيء ، فإذا أنزل الله عليها المطر اهتزت وتحركت بالنبات وحييت بعد موتها وربت أي ارتفعت ، ثم أنبت ما فيها من الألوان والفنون من ثمار و زروع وأشتات النبات في اختلاف ألوانها وطعومها وروائحها ولهذا قال تعالى : " وأنبتت من كل زوج بهيج " أي حسن المنظر طيب الريح ٦٧ .

لقد عبر القرآن عن الأرض قبل نزول الماء ، وقبل تفتحها بالنبات ، مرة بأنها هامدة ، ومرة بأنها خاشعة ، وقد يفهم البعض أن هذا مجرد تنويع في التعبير . فلننظر كيف وردت هاتان الصورتان ؟

لقد وردتا في سياقين مختلفين وعند التأمل السريع في هذين السياقين يتبين وجه التناسق في هامدة وخاشعة إن الجو في السياق الأول جو بعث وإحياء وإخراج . مما يتسق معه تصوير الأرض بأنها هامدة ، ثم تهتز وتربو وتنبت من كل زوج بهيج ، وإن الجو في السياق الثاني هو جو عبادة وخشوع وسجود يتفق مع تصوير الأرض بأنها خاشعة ، فإذا أنزل عليها الماء اهتزت وربت ، ثم لا يزيد على الإرباء والإنبات هنا الإنبات والإخراج كما زاد هناك لأنه لا محل لهما في جو العبادة والسجود .

ويجدر أن نلاحظ أن الهمود والخشوع يتحدان في المعنى العام ، ويستدل بهما في الآيتين على قدرة الخالق على البعث ، فما هو إلا سكون أو خمود تعقبه الحركة والحياة ، فلو كان المقصود هو مجرد أداء المعنى الذهني ، لما كانت هناك ضرورة لهذا التنويع ، ولكن التعبير القرآني لا يرمي لمجرد أداء المعنى الذهني ، إنما يريد الصورة كذلك والصورة تقتضي هذا التنويع ... ودلالة هذا التنويع حاسمة في أن التصوير عنصر أساس في أسلوب القرآن ، وأن التعبير لا ينتهي إلى أداء المعنى الذهني مجردا ، إنما ينبض بطبيعته بصورة حية للمعاني ٦٨ .

ولكننا إذا تعمقنا الآيتين فسوف نضع أيدينا على فرق آخر بين كلمتي " هامدة وخاشعة " يتمثل في أن الآية التي وردت في سياقها كلمة "خاشعة" مكية ، والآية التي وردت في سياقها كلمة " هامدة " مدنية ، فكأن الله تعالى يخاطب أهل مكة المعاندين الجاحدين ويقول لهم ، إن هذه الأرض التي خلقناكم منها والتي

جعلنا حياتكم بحياتها ، تعبدني وتخشع لي ، وأنتم لا تخشعون ولا تخافون الذي يقدر على إماتتكم ثم بعثكم مرة ثانية . أما أهل المدينة فلم يوجه لهم هذا الخطاب لأنهم أهل عبادة وتقوى .

إنها : آيات ترد على منكري البعث رداً فيه منطق وإقناع وتوبيخ وهو منطق مشحون بطاقات العبر الحية والمواعظ البليغة التي تتجاوز نطاق المعاني الأولى المفهومة من مجرد الكلمات ، ومن ثم تجيء الآية لوناً جديداً من التعبير يتسم بالحركة ، وتدب فيه الحياة وتصاحبه أنماط عميقة من التفكير تتطلب من الإنسان أن يعيد النظر في أمر نفسه وفي أمر عقيدته وفي أمر الحياة وما وراءها

٦٩

◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆

هوامش الفصل الثالث

---

[1] الأنبياء – الآية ٣٠ .
[2] هود – الآية ٧ .
[3] النور – الآية ٤٥ .
[4] الكشاف جـ ٣ ، ص ٧١ .
[5] التفسير الكبير ، جـ ٢٤ ، ص ١٩ ، دار الفكر العربي ، ١٩٨١ .
[6] الفرقان – الآية ٥٤ .
[7] المرسلات - الآية ٢٠
[8] الطارق - الآيات ٥ ، ٦ .
[9] ابن كثير جـ ٣ ، ص٣٣٢ و جـ ٣ ، ص ٤٩٨ .
[10] الحجر الآية ٢٢ .
[11] في ظلال القرآن جـ ١٤ ، ص ٢١٣٥ .
[12] ابن كثير جـ ٢ ص ٥٦٥ .
[13] الكشاف : جـ ٣ ، ص ٢٢٥.
[14] الروم - الآية ٤٦
[15] الروم ٤٨ : ٥١ .
[16] ابن كثير جـ ٣ ، ص ٤٥٢ .
[17] الكشاف جـ ٣ ، ص ٢٢٦ .
[18] الفرقان – الآية ٤٨ : ٥٠
[19] د. محمد عبد الله مظاهر كونية ص ٦٠ .
٢٠ د. محمد الطوبي : وجعلنا من الماء كل شيءٍ حيّ ، أقرأ ، دار المعارف ، ص ١٤٥ وما بعدها .
٢١ الكشاف جـ ٣ ، ص ٩٥ .
٢٢ في ظلال القرآن جـ ٢١ ، ص ٢٧٦٥ .
٢٣ الروم - الآية ٢٤ .
٢٤ الشورى – الآية ٢٨ .
٢٥ الكشاف جـ ٢ ، ص ٣٥٣ .
٢٦ في ظلال القرآن جـ ٢٥ ، ص ٣١٥٧ .
٢٧ الملك - الآية ٣٠ .
٢٨ تفسير سورة الرحمن وسور قصار ، ٢٣٨ .
٢٩ في ظلال القرآن جـ ٢٩ ، ص ٣٦٤٨ .
٣٠ الواقعة – الآية ٦٨ : ٧٠ .
٣١ القرطبي ، جـ ١٧ ، ص ٢٢٠ ، وابن كثير جـ ٤ ، ص ٢٩٦ .
٣٢ التصوير الفني في القرآن ، ص ١٨٩ .
٣٣ الماء سائل الحياة ، جمال الكومي ، ص ١٩ ، دار الاعتصام ، بدون تاريخ .
٣٤ الأنعام - الآية ٩٩ .
٣٥ الكشاف ، جـ ٢ ، ص ٣٩ .
٣٦ ابن كثير جـ ٢ ، ص ١٦٣ ، وانظر أحكام القرآن ، جـ ٧ ، ص ٤٧ – ٥٠ .
٣٧ في ظلال القرآن ، جـ ٧ ، ص ١١٦١ .
٣٨ كتاب النخل لأبي حاتم الجستاني ، ص ٤٧ و وما بعدها ، دار اللواء للنسر ، مؤسسة الرسالة ، وابن كثير جـ ٤ و ص ٢٧٠ ، وما بعدها .
٣٩ النحل ١٠ - ١١ .
٤٠ المؤمنون ١٨ – ٢٠
٤١ ابن كثير جـ ٣ ، ص ٢٥٠ ، وانظر القرطبي ، جـ ١٢ ، ص ١١٢ ، الكشاف ، جـ ٣ ، ص ٢٨ .
٤٢ إعجاز النبات في القرآن ، د. نظمي أبو العطا ، مكتبة النور ، ٩١ .
٤٣ النبأ ١٤ – ١٦ .

٤٤ ق ٩ – ١١ .
٤٥ البحر المحيط ، جـ ٥ ، ص ٤٧٩ .
٤٦ في ظلال القرآن ، جـ ٢٦ ،ص ٣٣٦١ .
٤٧ لقمان – ١٠ .
٤٨ الذاريات ٢٢ .
٤٩ النمل ٦٠ .
٥٠ في ظلال القرآن جـ ٢٠ ، ص ٢٦٥٦ .
٥١ فاطر ، الآيات ٢٧ – ٢٨ .
٥٢ تفسير بن كثير جـ ٣ ، ص ٥٧١ .
٥٣ في ظلال القرآن ، جـ٢٢ ، ص ٢٩٤٢ .
٥٤ الألوان في القرآن ، أحمد رأفت ، ص ٩٧ ، مطبعة الأمانة ، نشر دار المعارف .
٥٥ في ظلال القرآن ، جـ ٢٤ ، ص ٢٩٤٣ .
٥٦ النحل ٦٥ .
٥٧ الزخرف ١١ .
٥٨ الكشاف ، جـ ٣ ، ص ٥٠٩ .
٥٩ النكت في إعجاز القرآن ، الرماني ، ص ٨٩ ، ضمن ثلاث رسائل ، دار المعارف .
٦٠ إحياء علوم الدين ، جـ ٤ ، ص ٤٢٥ ، دار الكتب العلمية ببيروت ، ١٩٨٦ .
٦١ السجدة – ٢٤ .
٦٢ الحج – الآيات ٥- ٦ .
٦٣ فصلت - ٣٩ .
٦٤ الكشاف ، جـ ٣ ص ٢٤٧ .
٦٥ المصدر نفسه جـ ٣ ص ٤٥٤ .
٦٦ نفس المصدر جـ ٣ ، ص ٤٥٤ وما بعدها .
٦٧ ابن كثير جـ ٣ ، ص ٢١٤ .
٦٨ التصوير الفني في القرآن ، ص ٨ ٩، وما بعدها بتصرف .
٦٩ المعاني الثانية في الأسلوب القرآني . د. فتحي عامر ، ص ٣٠٤ ، منشأة معارف الإسكندرية.

الفصل الرابع

النبات بين الحياة والموت

أولاً : في الآيات المكية .

ثانياً : في الآيات المدنية .

الفصل الرابع

النبات بين الحياة والموت

أولاً : في الآيات المكية .

ليس من شك في أن مكة المكرمة أهم مواضع الحضر في الحجاز وأنها ربما ترجع في نشأتها الأولى إلى عهد الخليل وولده إسماعيل عليهما السلام . ومن ثم أطلق عليها القرآن عدة أسماء منها بكة ، وأم القرى ، والبلد ، والبلد الأمين ، وهي أسماء تدل على عظم مكانة مكة بين مدن الحجاز . هذا بالإضافة إلى أنها تضم بيت الله الحرام أول بيت وضع للناس فيه الهدى والبركة والخير العميم .ومن هذا البلد انطلقت الدعوة الإسلامية غازية جميع أقطار الأرض ، وإليه يحج المسلمون وافدين من مشارق الأرض ومغاربها . وصدق الله العظيم حيث يقول ، وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧) ١ .

ولقد حباها الله بموقع جغرافي جعلها ملتقى القوافل التي ترد من اليمن تريد الشام والتي تأتي من الشام تريد اليمن ، حتى إذا كان القرن السادس الميلادي نجح القرشيون في احتكار التجارة في بلاد العرب ، فضلا عن السيطرة على طريق القوافل التي تربط اليمن بالشام من ناحية وبالعراق من ناحية أخرى ٢ .

وأهل مكة لم يكونوا زراعاً يرتبطون بالأرض ، كما لم يكونوا صناعاً وإنما كانوا أقواماً غلبت عليهم البداوة وعاش أكثرهم عيشة الارتحال . ولذا كانت التجارة تعويضاً لهم عن فقر بيئتهم إلى الطعام بسبب قلة المياه ، بالإضافة إلى توفير الطعام للحجيج في منطقة فقيرة نباتياً .

وكان سكان مكة في ذلك العصر يتألفون من طبقات ثلاث ، طبقة لها كل الحقوق ، وهي قريش تستند حقوقها إلى ما كانت ترى من شرف أصولها أولا ومن أنها كانت صاحبة البيت ثانياً .... وتأتي بعدها طبقة أخرى من طبقة الحلفاء وهم ناس من العرب على اختلاف قبائلهم أووا إلى مكة ليأمنوا فيها ، وناس من العرب آخرون تسامعوا بغنى قريش ودعة الحياة في مكة فأقبلوا يبتغون فضلاً من رزق .

وطبقة ثالثة ، هي الرقيق الذي لا حق له حتى في نفسه ، يملكه سيده كما يملك ما في بيته من أداة ويسخره فيما يريد من أمره كما يشاء ... ومن الطبيعي أن أغنياء قريش وأهل الطبقة المتوسطة منهم لم يكونوا يعملون إلا في التجارة ، فكان الرقيق يكفونهم حاجاتهم اليومية ، يرعون عليهم ما كانوا يملكون

من الأرض خارج مكة في الطائف أو في غيرها ...ولكن قريشا على ذلك كانت تسكن قرية في واد غير ذي ذرع ، قرية منقطعة انقطاعا تاماً عن البلاد المتحضرة ٣ .

ومن ثم كان من العرب فريق ينعم بالثراء والترف وفريق يعاني مرارة البؤس والفقر . ومع ذلك كان أثرياء العرب قلة إذا قيسوا بالفقراء الذين كانوا يؤلفون سواد العرب .

من هنا كان جل اعتمادهم في حياتهم الاقتصادية على التجارة التي ألفوها وأصبحت حياتهم لا تقوم بدونها ، وخاطبهم القرآن الكريم خطاباً دالاً على ذلك ، إذ يقول تعالى : ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾﴾ ٤ .

حيث تعلقت نفوس أهل مكة بالرحيل لاستدرار مادة الرزق ولو نزلت مكانة البيت من نفوس العرب ونقصت حرمته عندهم واستطالت الأيدي بالتعدي على سفارهم لنفروا من تلك الرحلات وكرهتها نفوسهم فقلت وسائل الكسب بينهم لأن أرضهم ليست بذات زرع ، و ما هم بأهل صناعة مشهورة يحتاج الناس إليها فيأتونهم ليأخذوا منها . فكادت تضيق عليهم مسالك الرزق ، وتنقطع عنهم ينابيع الخير ... فعليهم أن يعبدوا رب هذا البيت الذي أوسع لهم من الرزق ولولا ذلك لكانوا في جوع وضنك عيش ... ٥ .

وهي آيات أستطيع من خلالها أن أفهم الدافع الذي كمن وراء ظاهرة الوأد أو قتل البنات التي كانت منتشرة في الجاهلية ٦ ، وهي الظاهرة التي وصفها القرآن في أكثر من آية ، يقول المولى تعالى :﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا﴾ ٧

ويقول تبارك اسمه في سورة الأنعام :

﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾﴾ ٨ .

﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾ ٩

﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ﴾ ١٠.

ويقول عز من قائل في سورة النحل :

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ ١١

فالخوف من توقع الفقر عند الأغنياء أو الرغبة في التخفف من الفقر عند الفقراء كان دافعاً إلى الوأد ، ذلك لأن بلاد العرب كانت شحيحة بالزاد والخير ، وكثيراً ما انتابها القحط والجدب ، وقاسى سكانها مرارة الجوع بسبب الجفاف . وظاهرة وأد البنات بالذات كانت شائعة عند العرب ، لأن ولادة البنت مع الفقر أو مع توقعه تعتبر نكبة على الأب الجاهلي ، أما الصبيان فكان يرجى نفعهم ، فلا ضرر من الإبقاء عليهم مع الفقر والفاقة لأنهم كانوا أقدر علي الكسب من الإناث .

وظاهر الآيات يوحي أنهم كانوا يئدون بناتهم ، لأنهم كانوا فقراء وأن الفقر تمكن منهم لدرجة جعلتهم لا يستطيعون تربية أولادهم . وهذا من الأوضاع السقيمة التي استقرت على مر الأجيال ، وتوارثها هذا البلد ولدا عن ولد وطبقة في إثر طبقة ١٢ .

وعندما نزل القرآن بدأ يوضح لهم أن الله تعالى أرحم بعباده من الوالد بولده ، لأنه نهى عن قتل الأولاد كما أوصى الآباء بالأبناء ، وكان أهل الجاهلية يقتلون بناتهم لئلا تكثر عيلتهن فنهى الله تعالى عن ذلك ١٣ . وكان كذلك لابد أن يغير من هذه الأوضاع التي لا تحفظ حياة الإنسان ، فأكد سبحانه وتعالى قضية الرزق وأنه أي الرزق بيده تعالى فهو الذي قدر أقوات البشر . يقول تعالى : ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾ ١٤.

ويقول جل شأنه : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ ١٥.

ويقول : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ ١٦

والدابة كل نفس دبت على وجه الأرض عقلت أن لم تكن تعقل لا تطيق أن تحمل رزقها لضعفها عن حمله لا يرزقها إلا الله ولا يرزقكم أيها الأقوياء إلا هو ، وإن كنتم مطيقين لحمل أرزاقكم وكسبها لأنه لو لم يقدركم ويقدر لكم الكسب لكنتم أعجز من الدواب التي لا تحمل ١٧ .

فمدلول الرزق أوسع مدى وأقدم عهدا وأعمق جذورا مما يتبادر إلى الذهن عند سماع هذه الكلمة لأن مرد كل صغيرة وكبيرة إلى قدرة الله . إنها آيات يجب على الناس التفكير فيها لأنهم إن آمنوا بالله واتقوه لرزقهم كما يرزق الطير تخرج جائعة وتعود قانعة .

ولكن ما علاقة الرزق بالنبات ؟ يقتضي مني الحديث عن هذا ، لفتة إلى معنى كلمة الرزق حتى أقع على هذه العلاقة .

يقول صاحب روح المعاني : الرزق لغة الإعطاء لما ينتفع به الحيوان . واختلف المتكلمون في معناه شرعا ، فالمعول عليه عند الأشاعرة ما ساقه الله إلى الحيوان ، فانتفع به من المطعومات أو المشروبات أو الملبوسات ، وغير ذلك والمشهور أنه اسم لما يسوقه الله تعالى إلى الحيوان ليتغذى به ١٨ .

من هذا التفسير لكلمة الرزق يتضح أن العلاقة بين الرزق والنبات علاقة مباشرة فعلى أي شيء يتغذى كل كائن حي ؟! ولذا لم يكن غريبا أن يوضح القرآن هذا لأهل مكة حتى يعرفهم بحقيقة رزقهم وأنه بيد الله تعالى ، مازجا ذلك بقدرته تعالى على البعث مرة أخرى ، حيث كانوا ينكرون البعث بعد الموت . وهذا ما سوف أتحدث عنه في فصل النبات في الأمثال القرآنية .

يقول تعالى : ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ ١٩ .

أي إذا كانت الأرض ميتة هامدة لا شيء فيها من النبات فإذا أنزل الله عليها الماء أنبتت من كل زوج بهيج ، وبهذا جعلها رزقاً لهم ولأنعامهم . ولما امتن على خلقه بإيجاد الزروع عطف بذكر الثمار وتنوعها وأصنافها .

وفي قوله تعالى :" فمنه يأكلون " دلالة على أن الحب هو الشيء الذي يتعلق به معظم العيش ويقوم بالارتزاق منه صلاح الإنسي ، وإذا قل جاء القحط ووقع الضرر ، وإذا فقد جاء الهلاك ونزل البلاء . وفي قوله تعالى : " ثمره " معنى ليأكلوا مما خلق الله من الثمر وما عملته أيديهم من الغرس والسقي إلى أن بلغ الثمر منتهاه ٢٠ .

وفي الآية تنبيه لأهل مكة على إحياء الموتى وتذكير لهم بتوحيده وكمال قدرته بالأرض الميتة التي أحياها بالنبات وأخرج الحب منها ٢١ .

وبعد هذه اللمسة الرفيعة يلتفت للتسبيح بحمده ، الذي أطلع لهم النبت وجعل الزرع أزواجا كالناس ، فقد خلق الله الحياة أزواجا النبات فيها كالإنسان .

يقول تعالى مخاطباً أهل مكة : وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ ٢٢ .

ويقول : أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ ٢٣ .

ويقول جل شأنه : وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ ٢٤ .

فارتباط النبات بالرزق ظاهر العلاقة في الآيات . وكأن الله يقول لهم : لا تظنوا أنكم أنتم الرازقون ولكن نحن نرزقكم من نبات الأرض الذي بدونه لا تقوم لكم الحياة . إنها ثورة قرآنية على هذه الأوضاع الظالمة التي نشأت عن غرور القادرين وطغيان أصحاب المال في هذا البلد . فليس ما كان المجتمع المكي

يعانيه من مآسي الرق ومن التصدع الطبقي إلا أثرا لطغيان هذا الإنسان الذي غرته قوته فاستعبد مخلوقين مثله ٢٥ .

ولا تقتصر دلالات النبات في مكة على الرزق ، وإنما هناك دلالات أخرى للنبات مثل ، اتخاذه وسيلة لتهديد أهل مكة من منطلق أنه لا حياة لهم بدونه ، ودورهم في هذا الزرع الذي يرونه نباتا بين أيديهم ويؤتي ثماره التي عليها معيشتهم – لا يتعدى الحرث وإلقاء البذور التي صنعها الله ، وبعد ذلك تتولى القدرة الإلهية رعايته حتى يثمر .

يقول تعالى : ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ۝٦٣ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ۝٦٤ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ۝٦٥ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ۝٦٦ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ۝٦٧﴾ ٢٦ .

أي أخبروني عما تحرثون من أرضكم فتطرحون فيها البذر ، أأنتم تنبتونه وتحصلونه زرعا فيكون فيه السنبل والحب أم نحن نفعل ذلك ؟ وإنما منكم البذر وشق الأرض ، فإذا أقررتم أن إخراج السنبل من الحب ليس إليكم ، فكيف تنكرون إخراج الأموات من الأرض وإعادتها ؟ وأضاف الحرث إليهم والزرع إليه سبحانه وتعالى ، لأن الحرث فعلهم ويجرى على اختيارهم والزرع من فعل الله عز وجل وينبت على اختياره لا على اختيارهم .. قال الماوردي : وتتضمن هذه الآيات أمرين ، أحدهما : الامتنان عليهم بأن أنبت زرعهم حتى عاشوا به ليشكروه على نعمته عليهم . والثاني البرهان الموجب للاعتبار ، لأنه لما أنبت زرعهم بعد تلاشي بذورهم ، وانتقاله إلى استواء حاله حتى صار زرعاً أخضر ، ثم جعله قوياً مشتداً أضعاف ما كان عليه فهو بإعادة من أمات أخف عليه وأقدر وفي هذا البرهان مقنع لذوي الفطر السليمة . ثم قال (لو نشاء لجعلناه حطاماً) أي متكسرا يعني الزرع . والحطام الهشيم الهالك الذي لا ينتفع به في مطعم ولا غذاء ، وهو بذلك نبه على وجوب شكره تعالى ، وعلى اعتبارهم بذلك ٢٧ . لأنه لو جعله هكذا لظلوا يتفكهون في المقالة ينوعون كلامهم ، فتارة يقولون إنهم مجدودون لا حظ لهم حزنا على ما فاتهم من زرعهم وتارة يقولون : إنهم لملقون للشر لا ينبت لهم مال ٢٨ .

وكأن الله جل ثناؤه يقول : إنهم مع كل ما يرون من آيات الحق يتمادون في العتو والطغيان . وحتى لو كان الرزق موجوداً وفي متناول أيديهم وطعم منه أحدهم وأصبحت اللقمة في فمه وأمسك الله عنه قدرة الابتلاع لعجز أهل السموات والأرض على أن يعيدوا تلك القدرة . إن كل شيء بيد الله رزقاً وغير رزق وكل ما ينبغي ، أن ينيبوا إليه ويدخلوا في دينه ولكن عنادهم أعماهم فلم يؤدوا لربهم ما يستحق من شكر

بما رزقهم به صباح مساء . وهو يمزج ذلك بتهديدهم وبيان قدرته التي صورها في الآيات السالفة كي يعرفوا أنه الرازق الذي يستطيع أن يعصف بهم ويمزقهم شر ممزق ٢٩ .

وحياة كل كائن حي كما ذكرت قائمة علي النبات ومن هذه الكائنات الحية الأنعام التي ذكر طعامها مقرونا بطعام الإنسان ، الذي يتغذى عليها . وهم كانوا أهل رعي أكثر منهم أهل زراعة . ومن ثم فالأنعام تشكل عندهم حرفة لا يمكن الاستغناء عنها ، يقول تعالى :

فلينظر ٱلْإِنسَـٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَـٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَـٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَـٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾ ٣٠ .

فالقضب والأب ، هما ما أنبتت الأرض مما يأكله الدواب وما لا يأكله الناس ٣١ . وقد أوجب سبحانه على نفسه مختاراً أن يرزق هذا الحشد الهائل الذي يدب على هذه الأرض فأودع هذه المخلوقات القدرة على الحصول على رزقها من هذا المودع في الأرض في صورة من صوره ٣٢ . والأنعام من بين هذه المخلوقات وسخرها الله تعالى لخدمة الإنسان ومنفعته ، نلمح هذه الفائدة في بعض آي الذكر الحكيم .

يقول تعالى : وَٱلْأَنْعَـٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَـٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَـٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ ٣٣ .

ويقول تبارك اسمه : وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَـٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّـٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ ٣٤ .

ويقول جل شانه، ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ أَثَٰثٗا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ﴾ ٣٥.

ويقول تعالى في النحل وهو مما يتغذى على النبات ويتخذ منه مساكن له ويفيد منه الإنسان فائدة عظمى : ﴿وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعۡرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسۡلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلٗاۚ يَخۡرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٞ لِّلنَّاسِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ ٣٦.

فمن قبيل العناية الإلهية خلق سبحانه الأرض وقدر فيها أرزاق الأنعام بجانب أرزاق الإنسان ، وهي من أرزاق الإنسان فقال تعالى : ﴿أَخۡرَجَ مِنۡهَا مَآءَهَا وَمَرۡعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلۡجِبَالَ أَرۡسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ﴿٣٣﴾﴾ ٣٧ .

إن الدلالات النباتية في القرآن الكريم كثيرة ومتنوعة ، وتمتد لتشمل جوانب الحياة كلها ، فكل كائن حي تقوم حياته على هذا الكائن الحي ، وأهل مكة كانوا بحاجة لبيان هذا الأمر . ومن هذه الدلالات النباتية التي خاطبت عقول أولئك القوم الظل . ونحن نعلم أنهم قوم يعيشون في صحراء جرداء تندر فيها الأشجار التي تقيهم حر الشمس ، أو يجدونها في طريقهم أثناء رحلاتهم التجارية ، فينشدون الراحة بين أفيائها ، وكذلك أثناء رعيهم إبلهم في الصحراء .لذلك أبرز القرآن أهمية الظل ، ترغيبا لهم في الدين الجديد ، وإظهارا لقدرة الله تعالى .

يقول تعالى : ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡجِبَالِ أَكۡنَٰنٗا وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأۡسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾ ٣٨ .

ويقول جل شانه : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ ﴾ ٣٩ .

والمراد بالظل " ما يكون من مقابلة كثيف كجبل أو ، بناء أو شجر للشمس عند ابتداء طلوعها . والمعنى ألم تنظر إلى صنع ربك كيف أنشأ ظلا عند ابتداء طلوع الشمس ممتدا إلى ما شاء الله عز وجل ... ولا ريب في أن المراد تنبيه الناس على عظيم قدرة الله عز وجل وبالغ حكمته فيما يشاهدونه .

وقوله تعالى : " ولو شاء لجعله ساكنا " أي لو شاء جعله ثابتاً عل حاله ظلا أبداً وذلك بأن لا يجعل سبحانه للشمس على نسخه سبيلا . وقوله : ثم جعلنا الشمس عليه دليلا " أي ثم جعلنا طلوع الشمس دليلا علي ظهوره للحس فإن الناظر إلى الجسم حال قيام الظل عليه لا يظهر له شيء سوى الجسم ولونه ثم إذا طلعت الشمس ووقع ضوؤها على الجسم ظهر له أن الظل كيفية زائدة على الجسم ولونه " ثم قبضناه إلينا قبضاً يسيراً " أي ثم أزلناه بعدما أنشأناه ممتداً ٤٠ .

وفي ذلك كله دلالة على بيان قدرته تعالى علي خلق الأشياء المتضادة المختلفة . والعرب أعرف الناس بقيمة الظل لأنهم يعيشون في صحراء مقفرة خالية من الأشجار التي تمدهم به وهو مشهد لا يخلو من جمال يغري الخيال بالجولات . وكم في المشاهد المألوفة المكرورة ما يبدو جديداً كأنما تتملاه العين حين تتجه إليه بالحس الشاعر المتفتح والعين المتيقظة للألوان ٤١ .

والذي يدلنا على أهمية الظل والشجر عند العرب أنه " ذكر الحر في الآية ولم يذكر البرد لأن الوقاية من الحر أهم عندهم وقلما يهمهم البرد لكونه يسيراً محتملاً ٤٢ .

إنه لتعبير القرآني يرسم للظل مشهداً إذ تمده يد الله تعالى في رفق وتقبضه في لطف .

ومن دلالات الصورة النباتية في القرآن عند العرب في مكة ، النار ، حيث كان للعرب " شجرتان " إحداهما المرخ والأخرى العفار إذا أخذ منهما غصنان أخضران فحك أحدهما بالأخر تباين من بينهما شرار النار٤٣ .

ألم تكن هاتان الشجرتان من النبات الذي نحن بصدده ؟ على أن هناك لفتة أخرى في ذكر شجرة النار فمن احتكاك فرع من شجرة بفرع أخر من شجرة أخرى كان العرب يوقدون نارهم على الطريقة البدائية التي لا تزال مستعملة في بعض البيئات حتى الآن .

يقول تعالى : أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَـٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَـٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ ٤٤ .

والله تعالى جعل هذه النار تذكرة على النار الكبرى هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى متاعاً للمقوين لأن الحاضر والبادي الجميع محتاجون إليها للطبخ والاصطلاء والإضاءة وغيرها من المنافع . ثم من لطف الله تعالى أن أودعها في الأحجار وخالص الحديد بحيث يتمكن المسافر من حمل ذلك في متاعه وبين ثيابه فإذا احتاج إلى ذلك في منزله أخرج زنده وأوقد نارا فأطبخ بها واصطلى بها و اشتوى واستأنس بها وانتفع بها سائر الانتفاعات فلهذا أفرد المسافرون ، وإن كان ذلك عاماً في حق الناس كلهم . " فسبح باسم ربك العظيم " أي الذي بقدرته خلق الأشياء لمتضادة مثل النار المحرقة التي فيها مصلحة للعباد في معاش دنياهم وزجر لهم في المعاد ٤٥ .

وإذا كنا نحن بوصفنا نعيش عصور التقدم لم نر هاتين الشجرتين ، فلنا أن نتخيل كيف كان العرب يأخذون منهما الأغصان ليشعلوا نيرانهم وكيف يكون احتكاك الغصنين وخروج النار من بينهما ، آية دالة على القدرة . وكأن الله أخرج الشجرة التي تؤتي الثمار كما أخرج الشجرة التي تطهو هذه الثمار وفي ذلك حياة كل الحياة .

ودلالة أخرى من دلالات النبات في الآيات المكية تتصل بأمر هام من أمور حياتهم ، هذه الدلالة تتمثل في الخمر ، حيث كانت تصنع من العنب والنخيل ، وقد نص القرآن على ذلك ، والقرآن أمعن في وصف الواقع المكي في ذلك الوقت ، يقول تعالى : وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَـٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ٤٦ .

وامتدادا لأمر الواقع في ذلك الوقت " دل على إباحته شرعاً قبل تحريمه ودل على التسوية بين المسكر المتخذ من النخل ومن العنب .... وكذا حكم سائر الأشربة المتخذة من الحنطة والشعير والذرة . والرزق الحسن هو ما أحل من ثمرتيها ٤٧ . وأخرج مسلم عن أبي هريرة : الخمر من هاتين الشجرتين وأشار إلى الكرم والنخلة ٤٨ .

لقد كانت معاقرة الخمر منتشرة في المجتمع المكي منذ زمن بعيد ، وتوارثها الأجيال على مر الأزمنة . ولذلك لم يكن من السهل عليهم التخلي عنها ، فاحتفل القرآن بذكرها على أنها كانت عندهم عادة . أما في المدينة فسوف تحرم كما سنرى .

فالطابع المكي من خلال هذه الملاحظات طابع تركيز على جوانب العقيدة . وذلك لأنه واجه الوثنيين فكان لا بد وأن يبين لهم أنهم على باطل ، وذلك بأن يلفتهم إلى آيات الله في الكون ، ونعمه التي تدفعهم إلى التفكير في مصدرها لاسيما أنه نعم ليست في طاقتهم . ومن هنا أدرك السر في الحديث عن النبات كثيرا في الآية المكية إذا ما قورنت بالآيات المدنية .

◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆

ثانياً : في الآيات المدنية

المدينة المنورة ثاني مدن الحجاز بعد مكة ، ودار الهجرة التي نصرت الإسلام فاستحقت التكريم والتخليد حتى يقوم الناس لرب العالمين . ولقد شاءت الإرادة الإلهية أن تخص المدينة بميزة حين شرفت بأن تضم في ثراها جثمان سيد الخلق أجمعين . هذا إلى أنها البلد الذي اختاره الله ليكون أول عاصمة في التاريخ حيث خرجت منها الجيوش تنشر التوحيد والحب والعدل والإخاء والمساواة ، ومن ثم فقد كانت وما زالت وسوف تظل قلوب المؤمنين في كل الأنحاء تنبض بحب المدينة وتهفو إلى زيارتها .

وقد حبت الطبيعة المدينة المقدسة بمزايا لم تعرفها مكة من طيب الهواء وجودة التربة ، كما أنها لم تكن على طريق القوافل التجارية بين الشام واليمن فحسب ، بل كانت واحة حقيقية ذات تربة صالحة لزراعة النخيل وهو كثير فيها . ومن ثم فقد أصبحت المدينة واحدة من أمهات المراكز الزراعية في بلاد العرب ٤٩ .

ونظراً لأن أرض المدينة خصبة ، فإن أهلها يختلفون عن أهل مكة من حيث ميلهم إلى الاشتغال بالزراعة وعنايتهم بغرس الأشجار المثمرة التي كانوا دائمي السعي إلى تحسين أنواعها ٥٠ .

ومن ثم ندرك السر في أن الله تعالى أمر رسوله بالهجرة إليها ، وكذلك المسلمون الذين واجهوا صعوبة في سبيل الحصول على مقومات حياتهم في مكة التي سيطر على مصادر الرزق فيها سادة القوم . وكذلك ندرك السر في تحول الصورة النباتية في المدينة عنها في مكة . حيث أمعنت الآيات المكية في وصف النبات لكي يؤمن هؤلاء القوم المعاندون بأن هناك إلهاً واحداً وأن هذه الأصنام والتماثيل من صنع خيالهم . أما في المدينة فإن الصورة النباتية تغيرت ، إنهم قوم آمنوا بالله ورسوله الكريم ، فهم قوم علم وهدى بأمور الحياة أكثر من أهل مكة ولذلك لم يعد القرآن بحاجة إلى إثبات أشياء عقلوها وفهموها ، وهو أن لهذا الكون إلهاً واحداً هو الله .

لقد كان أهل مكة يستخدمون النبات في صناعة الخمر ، واستخراج النار ، وإطعام الأنعام ، وغير ذلك من الأمور التي ترد إلى النبات بصورة مباشرة . كذلك انقسم المجتمع في مكة إلى سادة وعبيد السادة يتحكمون في العبيد ويسخرونهم لقضاء حوائجهم .

كل هذا لابد أن يتغير في المجتمع الجديد ، الذي هاجر إليه الرسول – صلى الله عليه وسلم ليؤسس حياة جديدة مليئة بالعدل والمساواة بين الناس . فبدلاً من أن ينقسم المجتمع إلى سادة وعبيد ، انقسم إلى طبقتين أخريين تؤمن كلتاهما بالله ورسوله ، طبقة الأنصار وهم أهل المدينة الأغنياء الذين يمتلكون الأراضي ويزرعونها ويعيشون على ما تنتجه لهم من فواكه و ثمار . والطبقة الثانية طبقة المهاجرين الذين تركوا كل

شيء في مكة ، وهاجروا في سبيل الله ورسوله ، وبالتالي أصبحوا بحاجة إلى أن يعيشوا مثلما يعيش أهل الأرض التي هاجروا إليها .

لقد تحول الحديث عن النبات من الوصف والتفصيل إلى أمور أخرى قائمة عليه ، أمور يعيش عليها بشر غير الذين يمتلكون الأرض ، هذه الأمور تتمثل في الزكاة والإنفاق ، والصدقة ، والصوم ، وهي أمور لم تكن موجودة في المجتمع المكي الذي لم يكن مهيأ لتقبلها ، وكذلك تحولت الصورة لتعطي دلالات أخرى تتعلق بأمور كانت موجودة في المجتمع المكي ، ويجب أن تتغير في المجتمع المدني لأنها لا تلائمه ولا تساير طبيعة الحياة التي تقوم على العمل لأجل الجماعة . كان موجودا بالمجتمع المكي الخمر التي تذهب العقل وهي كما نرى لم تعد صالحة للمجتمع المدني الجديد . وذلك لأن الإسلام دعا إلى العمل الجاد لأن الإنسان لابد أن يعمل وينشط ، فالرزق يلتمس ويطلب ، وكلما جد الإنسان في طلبه كان أكثر حصولا عليه واستمتاعا به ، فلا حظ منه لكسول يقضي وقته في سكر ومجون ، والحظ منه قليل لعابد غير الله الرزاق .

وتحت طبقتي المهاجرين والأنصار انقسم المجتمع المدني إلى عدة طبقات ، فأصبح هناك فقراء ومساكين ، وأصبح هناك محاربون غزاة في سبيل الله وأصبح هناك عاملون لحساب الدولة الجديدة ، وعاملون في المساجد ، وأصبح هناك متقاعدون بسبب الحروب . فكان لابد من قوانين جديدة تضمن لهذه الطبقات سبل الحياة مثل غيرهم . فالظروف الاجتماعية تشاء أن تتعدد الطبقات في كل مجتمع ما بين غني وفقير ، فلابد من رباط وثيق لجمع تلك الطوائف بعضها إلى بعض ويكون عاملا عاما للمساواة الاجتماعية حتى تتحقق العدالة في ميزان الجماعة ، ويعيش الناس إخوانا متحابين تحت لواء الإسلام .

لقد بدأ الإسلام هذه الأمور بالزكاة ، بل جعلت الركن الثالث من أركان الإسلام ، من باب إدراك أن العطاء من رزق الله تعالى ما هو إلا غرس للعادات النبيلة في نفوس البشر ، وتخليص لها من الشح ودمج للمشاعر والطاقات الإنسانية في طريق الخير . بل إدراك أن المسلم الذي يتعود إخراج زكاة زرعه كلما حصد يصبح الإعطاء صفة أصيلة من صفاته ومن ثم كان هذا الخلق من أوصاف المؤمنين المتقين في نظر القرآن .

ولا تقتصر الزكاة على زكاة الزروع وإنما هناك زكوات أخر مثل زكاة النقدين الذهب والفضة وزكاة النعم وغير ذلك .

يقول تعالى : وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ٥١

ويقول جل شأنه : ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾﴾ ٥٢

ويقول تبارك اسمه : ﴿۞ لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَٰٓئِكَةِ وَالْكِتَٰبِ وَالنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَٰمَىٰ وَالْمَسَٰكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَوٰةَ وَءَاتَى الزَّكَوٰةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا ۖ وَالصَّٰبِرِينَ فِي الْبَأْسَآءِ وَالضَّرَّآءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ۗ أُولَٰٓئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ۖ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾
٥٣

ووراء هذا الغرض الديني معان كثيرة وكلها بسبيل من ضمان التوازن للحياة الاجتماعية نذكر منها " بالنسبة للغير من الأفراد الذين لم تمكنهم ظروف الحياة من الوصول إلى مستوى لقمة العيش وستر البدن تجيء الزكاة بلسماً شافياً من أمراض الحقد والكراهية والاستياء ... وبالنسبة للمجتمع تهيئ الزكاة سبل الكرامة الإنسانية لكل عنصر من أعضائه ومن ثم يتوافر الجهد الذي يبذل في مصالح الناس المشتركة ٥٤.

ومن خلال هذه المعاني التي تنبض في نسق الآيات القرآنية الواردة في شأن الزكاة نعلم لماذا كثر الحديث عنها في القرآن ، والسر في هذا التكرار ولماذا كانت الزكاة تاليه للصلاة في الذكر ففي الزكاة من المعاني والأفكار ما يشغل حيز كتاب ، لأنها نظام اقتصادي قائم على أسس من تطهير النفس ومعرفة شاملة لغرائز الأثرة والإيثار في الطبيعة البشرية . ولن تسعفني تلك الصفحات لإبراز ما في هذا الركن من أركان الإسلام من دعائم وأسس خشية أن يخرج بي ذلك عن طبيعة البحث وهدفه .

ومن حكمة الله تعالى ، أن جعل الزكاة تؤدى في وقت يشعر فيه المحتاجون بحاجتهم إليها ، هذا الوقت هو شهر رمضان الذي يألف من خلاله الصائم عادات الشفقة والرحمة الداعيتين إلى البذل والصدقة ، فالصائم عندما يجوع يتذكر من لا يجد قوتا من أولئك البائسين فيرق قلبه لهم ويشفق عليهم وفي ذلك

تكافل للأمة وشعور بالأخوة الدينية . وفيه المساواة بين الأغنياء والفقراء والملوك والسوقة في أداء فريضة دينية في وقت واحد .

يقول تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿١٨٥﴾﴾ ٥٥.

والله تعالى ، يوجه خطابه للمؤمنين من هذه الأمة آمراً لهم بالصيام . والصيام هو الإمساك عن الطعام والشراب بنية خالصة لله عز وجل لما فيه من زكاة النفوس وطهارتها وتنقيتها من الأخلاق الرذيلة ٥٦.

فالصوم بذلك يكون من التكاليف الإيجابية التي حددت صور التعامل بالمال في المجتمع الإسلامي ، وما كان الإسلام ليتعرض لهذه الأحكام في مكة لأنه لم يكن هناك المجتمع الإسلامي الذي يتطلبها ، من هنا كان الصوم تاليا للزكاة في أركان الإسلام الخمسة .

ومن الأمور التي فرضت بالمدينة وهي متصلة بالزكاة الإنفاق ولكنه ليس بديلا عنها وهي كذلك ليست بديلة عنه ، إنما الزكاة ضريبة مفروضة والإنفاق تطوع طليق .

وورود آيات قرآنية كثيرة في الإنفاق يعني أن الإنفاق في مثل هذه الظروف التي يعيشها المسلمون في المدينة ، والتي أشرت إليها من قبل كان ضرورة لقيام الجماعة المسلمة في وجه الصعاب ثم هو ضرورة

من ناحية التضامن بين الجماعة وإزالة الفوارق الشعورية ، وهذا أمر له قيمته في قيام الجماعة شعوريا إذا كان سد الحاجة له قيمته في قيامها عمليا٥٧ .

يقول تعالى : ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣﴾ ٥٨

ويقول جل شانه : ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ وَأَحۡسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝١٩٥﴾ ٥٩.

ويقول : ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلۡ مَآ أَنفَقۡتُم مِّنۡ خَيۡرٖ فَلِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ ۝٢١٥﴾ ٦٠

ويقول تبارك اسمه : ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتۡبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنّٗا وَلَآ أَذٗى لَّهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ۝٢٦٢ ۞ قَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞ وَمَغۡفِرَةٌ خَيۡرٞ مِّن صَدَقَةٖ يَتۡبَعُهَآ أَذٗىۗ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٞ ۝٢٦٣﴾ ٦١

ويقول : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ۝٢٦٧﴾ ٦٢

ويقول عز من قائل : ﴿۞ لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلِأَنفُسِكُمۡۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ ٱللَّهِۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ۝٢٧٢ لِلۡفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحۡصِرُواْ فِي

سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ ٦٣

من خلال لآيات التي ورد في سياقها الإنفاق يظهر أن الله تعالى كثيرا ما يقرن بين الصلاة و الإنفاق من المال فإن الصلاة حق الله والإنفاق هو من الإحسان إلى المخلوقين بالنفع المتعدى إليهم ٦٤ .

وهناك شروط للإنفاق منها ما يتصل اتصالا وثيقا بالنبات ، وهو الشيء المنفق منه ، ومنها ما يتصل بالمنفق عليهم . فشرط الإنفاق المتعلق بالنبات يظهر من خلال قوله تعالى : {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَلاَ تَيَمَّمُواْ الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ } (٢٦٧) سورة البقرة .

ومعنى هذا أن الشيء المنفق لابد أن يكون من حلال طيب ، ومما أخرجه الله من الأرض من زرع طيب ، والآية تعطي صورا تحدث في المجتمع البشري . وكانت من قبل تحدث في مجتمع المدينة بعد أن أسس فيها الرسول – صلى الله عليه وسلم – دولة الإسلام " إذ كان الأنصار أيام جذاذ النخل يحضرون العذق من النخل ويعلقونه في المسجد من أجل أن يأكل منه من يريد ، و العذق هو فرع قوي من النخل يضم الكثير من الفروع الصغيرة المعلقة عليها ثمار البلح . وكان بعضهم يأتي بالعذق غير ناضج أو بالحشف وهو أردأ التمر ، فأراد الله أن يجنبهم هذا الموقف ، حتى لا يجعلوا لله ما يكرهون فأنزل هذا القول الحكيم ٦٥ .

وفي الآية وسيلة من وسائل الإنفاق من عطاء الله " ومما أخرجنا لكم من الأرض "

وشرطا الإنفاق المتعلقان بالمنفق عليهم أولهما ، أن يكون للوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل . وأهم من هؤلاء الفقراء الذين قصد بهم جماعة حبسهم الجهاد أو العمل مرضاة لله ، ولا يستطيعون مشيا في الأرض وذهابا للتكسب والتجارة ، وهم أهل الصفة رضي الله عنهم . " قال ابن عباس كانوا نحواً من ثلا ثمائة ويزيدون وينقصون من فقراء المهاجرين ، يسكنون سقيفة المسجد ، يستغرقون أوقاتهم بالتعلم والجهاد وكانوا يخرجون في كل سرية يبعثها الرسول – صلى

الله عليه وسلم . وعن سعيد بن جبير ، هم قوم أصابتهم الجراحات في سبيل الله تعالى وصاروا زمنى ، فجُعل لهم في أموال المسلمين حق ٦٦ .

والثاني من شرطي الإنفاق عدم إتباع الصدقة ، بالمن والأذى ، لأن " الإسلام قرر أن المال مال الله ، وأن الرزق الذي في أيدي الواجدين هو من رزق الله عز وجل ، وحبة القمح الواحدة ، قد اشتركت في إيجادها قوى وطاقات كونية ، ليست في مقدور الإنسان ، وقس على حبة القمح نقطة الماء ، وخيط الكساء وسائر الأشياء . فإذا أعطى الواجد من ماله فإنما من مال الله أعطى ٦٧ .

وهي حالة – وإن كانت قد حدثت في المدينة – فإنها ترينا الصفحة التي خطها الأنصار في تاريخ البذل السمح والعطاء الفياض .

إن الأسلوب القرآني وهو بصدد الدعوة إلى الإعطاء في سبيل الله لم يكن لينتهي عند كلمتي الزكاة والإنفاق ولكن امتد ليضم لفظاً آخر وإن كان داخلا ضمن هذه الدلالات القرآنية للإنفاق ، هذا اللفظ هو الصدقة ، التي فضل الله تعالى أن يكون إخفاؤها أفضل من إظهارها حتى تبرأ من شوائب التظاهر والرياء .

يقول تعالى : إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾ ٦٨

ويقول عز وجل : ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾ ٦٩

ولم يكن تركيز القرآن الكريم على وجوه الإنفاق هكذا إلا لأمور أهمها : بصر الإسلام بالطبيعة البشرية ، وما يخالجها من الشح بالمال ، وحاجتها إلى التحريك المستمر ، لتنطلق من هذا الشح ، وترتفع إلى المستوى الكريم الذي يريده الله للناس ، وكذلك ما كان يواجهه القرآن من هذه الطبيعة في البيئة العربية التي اشتهرت بالكرم ولكنه كرم يقصد به الذكر والصيت ٧٠ .

وفي مقابل هذه الأشياء التي أمر الله تعالى بها في قرآنه الكريم هناك أشياء أخرى نهى عنها تقابل هذه الأمور ولا تسير معها في نفس اتجاهها وذلك من منطلق أنه إذا كانت تلك الأمور فيها صلاح المجتمع ،

وفيها حياة أفراده ، فإن هذه الأشياء التي نهى عنها . وهي في أساسها تقوم على النبات فيها فساد المجتمع وتؤدي إلى موت أفراده .

وتتمثل هذه الأشياء التي تحمل دلالات نباتية ، والتي نهى عنها القرآن الكريم في البخل والخمر وكذلك نهى عن أكل أصناف معينة من الحيوان . وهي أشياء لم تحرم في الآيات المكية .

ولندع المداد يتحدث عن كل أمر منهي عنه من خلال إيراد بعض آي الذكر الحكيم .

يقول تعالى : ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (١٨٠) ٧١

قال الزمخشري في تفسير هذه الآية " يجعل الله ما بخل به من الزكاة حية يطوقها في عنقه يوم القيامة ٧٢ .

إنه التضاد بين الزكاة والبخل لإبراز ما في هذا الركن الركين وهو الزكاة من فائدة في الدنيا والآخرة . وإذا كان المفسرون ذهبوا إلى أن الآية في عمومها نزلت بمناسبة دعوة اليهود إلى الوفاء بالتزاماتهم المالية الناشئة عن معاهدتهم مع الرسول – صلى الله عليه وسلم– ودعوتهم إلى الإنفاق في سبيل الله . فإن مدلول الآية عام ، فهو يشمل اليهود كما يشمل غيرهم ممن يبخلون بما آتاهم الله من فضله ، ويحسبون أن أهل هذا البخل خير لهم يحفظ أموالهم فلا تذهب بالإنفاق .

يقول تعالى : ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ (٣٧) ٧٣

فالبخل جحود لنعمة الله ، فلا تظهر عليه في إعطائه وبذله ولهذا توعدهم بقوله " واعتدنا للكافرين عذابا مهنيا " والكفر هو الستر فالبخيل يستر نعمة الله عليه ، فهو كافر بنعمة الله ٧٤ .

أما الخمر –وكانت تصنع من النبات كما ذكرت في الآيات المكية فكانت معاقرتها منتشرة في المجتمع المكي ، ولكنها في المدينة حرمت تمشياً مع سياسة الإصلاح الاجتماعي والأخلاقي . ولم يكن تحريمها أمراً مفاجئاً ، حيث سبقت هذا التحريم مراحل ، من أجل علاج هذه التقاليد الاجتماعية الملتبسة

ببعض الجوانب الاقتصادية . وكان التحريم النهائي لها في سورة المائدة ، يقول تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ ٧٥.

ومن دلالات التنويع في الرزق لأن المنهج القرآني يكثر من عرض حقيقة الرزق الذي يختص الله بمنحه للناس . نجد الحيوان الذي تحدث عنه القرآن في الآيات المكية دون تحريم ، ذكر في الآيات المدنية وقد حرمت أنواع منه .

يقول تعالى : ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلۡمُنۡخَنِقَةُ وَٱلۡمَوۡقُوذَةُ وَٱلۡمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيۡتُمۡ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسۡتَقۡسِمُواْ بِٱلۡأَزۡلَٰمِۚ ذَٰلِكُمۡ فِسۡقٌۗ ٱلۡيَوۡمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِۚ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝﴾ ٧٦

ولكن ما مصدر هذا كله ؟ إن مصدره النبات الذي لم يكثر ذكره في الآيات المدنية على الرغم من أن الطبيعة النباتية في المدينة أغنى منها في مكة والأسباب التي تكمن وراء ذلك أن أهل المدينة قرؤوا الآيات المكية وتدبروها ولذلك لم يعد القرآن بحاجة إلى ذكر ما ذكر من قبل ، ، وكذلك لأن أهل المدينة آمنوا ولم يجادلوا كثيراً فلم يعودوا بحاجة إلى تأكيد مظاهر قدرة الله ، ولكنهم أصبحوا بحاجة إلى فرض الشرائع التي تضمن لهم سبل الحياة .ومن أمثلة الآيات التي ورد فيها النبات مما نزل في المدينة ، قوله تعالى : ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۡهَٰرٗاۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوۡجَيۡنِ

ٱثۡنَيۡنِۖ يُغۡشِى ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٞ مُّتَجَٰوِرَٰتٞ وَجَنَّٰتٞ مِّنۡ أَعۡنَٰبٖ وَزَرۡعٞ وَنَخِيلٞ صِنۡوَانٞ وَغَيۡرُ صِنۡوَانٖ يُسۡقَىٰ بِمَآءٖ وَٰحِدٖ وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فِى ٱلۡأُكُلِۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿٤﴾ وَإِن تَعۡجَبۡ فَعَجَبٞ قَوۡلُهُمۡ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلۡقٖ جَدِيدٍ ٧٧

فهذه هي حقيقة المدينة ، فهي واحة خضراء مكونة من جنات من أعناب ونخيل ، ولكن إذا تدبرنا هذه الآيات وتعمقناها فسوف نلاحظ أنها وإن كان نزولها بالمدينة تخاطب أهل مكة وذلك ملحوظ من الآية التي يُتعجب فيها من إنكارهم البعث ، لأن أنصار المدينة لم ينكروا البعث لإيمانهم فور نزوله – صلى الله عليه وسلم – أرضهم .

ومن المساقات التي تبرز أهمية النبات بالنسبة لكل كائن حي في الآيات المدنية إطلاق لفظ **الحرث** ، وهو كل أرض متخذه للزرع على المرأة لما بينهما من التشابه الدقيق .

يقول تعالى : نِسَآؤُكُمۡ حَرۡثٞ لَّكُمۡ فَأۡتُواْ حَرۡثَكُمۡ أَنَّىٰ شِئۡتُمۡۖ ﴿٢٢٣﴾ ٧٨.

وإذا نحينا سبب نزول الآية جانباً نجد أن الحرث هو " إلقاء البذور في الأرض وهنا شبه النطف بالبذور من حيث أن كلا منهما مادة لما يحصل منه ولا يحسن بدونه وهو تشبيه يكنى به عن تشبيه آخر " فأتوا حرثكم " أي ما هو كالحرث ففيه استعارة تصريحية ٧٩

وفي التعبير دقة ، وأدق ما فيه هو ذلك التشابه بين صلة الزارع بحرثه وصلة الزوج بزوجه في هذا المجال الخاص وبين ذلك النبت الذي يخرجه الحرث ، وذلك النبت الذي تخرجه الزوج ، وما في كليهما من تكثير وعمران وفلاح ٨٠.

وما دام الحرث مثل النساء فليس عجيباً أن يصبح شهوة وقد نص القرآن على أن الحرث ،– وهو كما ذكرت كل أرض متخذة للغرس والزراعة – أحد الشهوات التي زينها الله للانسان .

يقول تعالى : زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ٨١

فالحرث شهوة بما فيه من مشهد الإنبات والنماء وإن تفتح الحياة في ذاته لمشهد حبيب فإذا أضيف إليه شهوة الملك كان الحرث شهوة ٨٢

من هنا أستطيع القول أن معظم التكاليف التي تحمل دلالات نباتية من زكاة وإنفاق وصوم وصدقة وتحريم للخمر وغيرها نزلت بالمدينة ولولا ذلك لما كان هناك فرق بين المجتمع المكي والمجتمع المدني .

❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖

هوامش الفصل الرابع

١ الحج ٢٧ .
٢ تاريخ العرب القديم . د. محمد بيومي مهران ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية .١٩٨٩ ، ص ٤١٧ .
٣ د. طه حسين ، مرآة الإسلام ، دار المعارف ط ٧ ، ص ١٧ – ١٩ بتصرف .
٤ سورة قريش .
٥ تفسير جزء عم للإمام محمد عبده ، ص ١٨٣ وما بعدها دار ابن زيدون ، بيروت ط٢ ، ١٩٨٩ .
٦ لم يكن وأد البنات عاما في جميع القبائل ، وإنما كان خاصا ببعض القبائل مثل تميم وأسد .
٧ الإسراء ٣٠ .
٨ الأنعام ١٣٧ .
٩ الأنعام ١٤٠ .
١٠ الأنعام ١٥١ .
١١ النحل - ٥٨ ، ٥٩ .
١٢ التفسير البياني جـ ١ ، ص ١٨٥ .
١٣ ابن كثير جـ ٣ ، ص ٣٨ وما بعدها .
١٤ فصلت ١٠ .
١٥ هود ٦
١٦ العنكبوت ٦٠ .
١٧ الكشاف جـ ٣ ، ص ٢١١ .
١٨ روح المعاني جـ ١ ، ص ١١٧ ، دار إحياء التراث بيروت ، ط ٤ ، ١٩٨٥ م .
١٩ يس ٣٣ – ٣٦ .
٢٠ الكشاف جـ٣ ، ص ٣٢١ .
٢١ أحكام القرطبي جـ ١٥ ، ص ٢٥ .
٢٢ النحل ١٣ .
٢٣ الشعراء ٧ – ٨ .
٢٤ الحجر ١٩ : ٢١ .
٢٥ التفسير البياني جـ ١ ، ص ١٨٥ .
٢٦ الواقعة ٦٣ : ٦٧ .
٢٧ القرطبي جـ ١٧ ، ص ٢١٧ وما بعدها بتصرف .
٢٨ الكشاف جـ ٤ ، ص ٥٧ ، وابن كثير جـ ٤ ، ص ١٩٦ .
٢٩ سورة الرحمن وسور قصار ، ص ٢١٧ .
٣٠ عبس ٢٤ : ٣٢ .
٣١ ابن كثير جـ ٤ ، ص ٤٧٢ .
٣٢ في ظلال القرآن جـ ١٢ ، ص ١٨٥٦ .
٣٣ النحل ٥ : ٨ .
٣٤ النحل ، ٦٦ ،
٣٥ النحل ، ٨٠ .
٣٦ النحل ٦٨ : ٦٩ .
٣٧ النازعات ٣١ : ٣٣ .
٣٨ النحل ٨١ .
٣٩ الفرقان ٤٥ – ٤٦ .
٤٠ روح المعاني ، جـ ١٩ ، ص ٢٦ - ٢٨ بتصرف .
٤١ التصوير الفني ، ص ٦١ .
٤٢ الكشاف جـ ٢ ، ص ٤٢٣ .
٤٣ ابن كثير جـ ٤ ،ص٢٩٦.
٤٤ الواقعة ٧١ – ٧٣ .
٤٥ ابن كثير جـ ٤ ، ص ٢٩٦ ، وما بعدها بتصرف . والقرطبي ، جـ ١٧ ، ص ٢٢١ ، وما بعدها .
٤٦ النحل ٦٧ .
٤٧ تفسير القرآن العظيم جـ ٢ ، ص ٥٩٢ ، والقرطبي جـ ١٠ ، ص ١٢٨ .
٤٨ روح المعاني جـ ٢ ، ص ١١٢ .
٤٩ د. محمد بيومي مهران : تاريخ العرب القديم ، ص ٤٢٩ .
٥٠ المرجع السابق نفس الصفحة .

٥١ البقرة ٤٣ .
٥٢ البقرة ١١٠ .
٥٣ البقرة ١٧٧ .
٥٤ المعاني الثانية في الأسلوب القرآني . د. فتحي عامر ، ص ١٨٢ ، بتصرف منشأة معارف الإسكندرية ، بدون تاريخ .
٥٥ البقرة ١٨٣- ١٨٥ .
٥٦ ابن كثير جـ ١ ، ص ٢١٣ .
٥٧ في ظلال القرآن جـ ٢ ، ٢٢١ .
٥٨ البقرة ٣ .
٥٩ البقرة ١٩٥ .
٦٠ البقرة ٢١٥ .
٦١ البقرة ٢٦٢ – ٢٦٣ .
٦٢ البقرة ٢٦٧ .
٦٣ البقرة ٢٧٢ – ٢٧٣ .
٦٤ ابن كثير جـ ١ ، ص ٤٢ .
٦٥ الكشاف جـ ١ ، ص ٣٩٦ بتصرف .
٦٦ روح المعاني ، جـ ٣ ، ص ٤٦ .
٦٧ في ظلال القرآن جـ ٣ ، ص ٣٠٧ .
٦٨ البقرة ٢٧١ .
٦٩ التوبة ٦٠ .
٧٠ في ظلال القرآن الكريم ، جـ٣ ، ص ٣١٤ .
٧١ آل عمران ١٨٠ .
٧٢ الكشاف جـ ١، ٤٨٤ .
٧٣ النساء ٣٧ .
٧٤ ابن كثير جـ ١ ٤٩٦ .
٧٥ الآيات ٩٠ – ٩١ .
٧٦ المائدة ٣ .
٧٧ الرعد ٣- ٥ .
٧٨ سورة البقرة الآية ٢٢٣ .
٧٩ روح المعاني جـ٢ ، ص ١٢٤ .
٨٠ التصوير الفني ، ص ٧٧ وما بعدها .
٨١ آل عمران ١٤ .
٨٢ في ظلال القرآن جـ ٣ ، ص ٣٧٤ .

الفصل الخامس

النبات بين الجنة والنار

أولاً : النبات في الجنة

ثانياً : النبات في النار

الفصل الخامس

النبات بين الجنة والنار

أولاً : النبات في الجنة

إذا كنا تحدثنا عن النبات وأهميته للإنسان في الحياة الأولى ، فإنه يجدر بنا أن نتحدث عن أهميته للإنسان في حياته الآخرة . فالإنسان يلزمه فيها ما لزمه في حياته الأولى ، لأنها حياة أيضا مثل هذه الحياة الأولي ، مع فرق جوهري هو أن الحياة الأولى حياة لفناء ، أما الحياة الآخرة فهي حياة لحياة ، هي حياة دائمة . والنبات فيها مثل الإنسان دائم لا ينقطع على عكس نبات الحياة الأولى فهو كإنسانها فانٍ.

وإذا كان هدف القرآن الأسمى هو الترغيب في دخول الدين وعبادة إله واحد ، فقد أولى القرآن نبات الجنة عناية خاصة ،وذلك من منطلق فقر العرب وحاجاتهم إلى ما تفتقده بيئتهم الصحراوية على ما لاحظناه في الفصل السابق ، من هذا البحث ، خاصة البيئة المكية .

والجنة هي دار النعيم في الآخرة وسميت بهذا الاسم من الاجتنان وهو الستر لتكاثف أشجارها وتظليلها بالتفاف أغصانها ١ .

إن لفظ الجنة مأخوذ من " الجن" وهو الستر ، والجنة هي البستان الذي به الشجر إذا سار فيه إنسان يستره لأن به أشجارا عالية كثيفة ، وليس معنى هذا أن لفظ الجنة لم يكن معروفا عند العرب ، ولكن كان يقال عندهم للأرض المغطاة بالشجر والزرع جنة . ثم نقلت الجنة إلى المصطلح الإسلامي في جنة الآخرة . وهذا هو الاستعمال الغالب للفظ الجنة في القرآن ٢ .

وإذا كان هذا هو مفهوم الجنة ، فإن الرزق فيها مضمون مكفول ، لا يحتاج إلى كد أو طلب في سبيل الحصول عليه ، هذا الرزق الذي كان يمثل مشكلة للعرب قبل نزول القرآن عليهم بدليل قتلهم أولادهم . والطعام والشراب بالنسبة لأهل الجنة لا يكون عن جوع وظمأ . وإنما عن مجرد الرغبة والتمتع .

يقول تعالى : ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنۡهَا مِن ثَمَرَةٖ رِّزۡقٗا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗاۖ وَلَهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَهُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾﴾ ٣

ويقول جل شأنه : ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا ﴿٦١﴾ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمٗاۖ وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ﴿٦٢﴾﴾ ٤

ويقول : ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَمَغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴿٤﴾﴾ ٥

فالجنات تجري من تحتها الأنهار ، وما دامت الأنهار تجري من تحت الجنة ، فلابد أن يكون هناك نبات ، ثم ثمر ، وفي قوله تعالى " كلما رزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا هذا الذي رزقنا من قبل وأتوا به متشابهاً " حديث عن ثمر الجنة ... وثمر الجنة يختلف عن ثمر الدنيا ، لأن الإنسان في الدنيا يذهب إلى الثمرة ويأتي بها ، أو يأتيه غيره بها . أما في الجنة الثمر هو الذي يأتي الإنسان ، بمجرد أن يشتهيه يجده ، ويعتقد أن هناك تشابها بين ثمر الدنيا و ثمر الجنة ، ولكن ثمر الجنة ليس كثمر الدنيا ، لا في طعمه ولا في رائحته ، وإنما أهل الجنة عندما يرون الثمرة يعتقدون أنها مثل ثمر الدنيا ، فيجدون اختلافاً في خضرة الورق وظهور النور والثمر .

ويقول تعالى عن أهل الجنة " وهم فيها خالدون " وهو سبحانه وتعالى يخاطب قوما شهدوا بعض النعيم في دنياهم من آثار نعمة عليهم ، لكنهم شهدوا أيضاً أن النعمة تزول عنهم أو شهدوا غيرهم تزول عنه النعمة ، فقال عن جنة الآخرة " وهم فيها خالدون " فلا هي تزول عنهم ولا هم يزولون عنها .

وقوله تعالى " ولهم رزقهم فيها بكرة وعشياً " وارد على عادة المتنعمين في دار الإقامة المعبر عنها ، بالعدن . أخرج المنذر عن يحيى بن كثير قال ، كانت العرب في رزقها إنما لها أكلة واحدة فمن أصاب أكلتين سمي فلان الناعم ، فأنزل الله يرغب عباده فيما عنده ٦ .

ووصف الرزق بالكريم " إشارة إلى كون تلك المنافع خالصة دائمة مقرونة بالإكرام والتعظيم .
وقيل ما أعد الله لهم في الجنة من لذيذ المآكل والمشارب وهناء العيش ٧.

ولكن إذا كنا أدركنا أن مصدر الزرق في الحياة الدنيا السماء لقوله تعالى : وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ ٨. فما مصدر الرزق في الجنة ؟

يقول فخر الدين الرازي : لما ذكر تعالى أن لهم رزقاً بين أن ذلك الرزق ما هو فقال : فواكه والفاكهة عبارة عما يؤكل لأجل التلذذ ، لا لأجل الحاجة ، وأرزاق أهل الجنة كلها فواكه لأنهم مستغنون عن حفظ الصحة بالأقوات ، فإنهم أجسام محكمة مخلوقة للأبد ، فكل ما يأكلونه فهو على سبيل التلذذ ٩.

ثم يقول في موضوع آخر من تفسيره الكبير : " واعلم أنه تعالى بعث محمدا – صلى الله عليه وسلم – إلى العرب أولا ثم إلى العالمين ثانيا ، والعرب كانوا في ضيق شديد بسبب المآكل والمشرب والفاكهة فلهذا السبب تفضل تعالى عليهم بهذه المعاني مرة بعد أخرى تكميلا لرغبتهم وتقوية لدواعيهم ١٠.

يقول تعالى : أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ ۖ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ ١١

أي أن لهم عطية معلومة لا تنقطع . قال قتادة يعني الجنة ... وقيل هي الفواكه....

والفواكه جمع فاكهة وهي الثمار كلها رطبها ويابسها ... والجنات النعيم البساتين التي يتنعمون فيها ١٢ .. والسبب في ذكر هذا المعنى أن ديار العرب حارة قليلة الفواكه و الأشربة فرغبهم الله تعالى فيها ١٣.

يقول جل شأنه : مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَـٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ ١٤

ويقول : ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ ١٥

إنها فاكهة كثيرة بحسب الأنواع والأصناف لا بحسب الأفراد فقط . وقوله تعالى " منها تأكلون " أي لا تأكلون إلا بعضها ، وأعقابها باقية في أشجارها ، فهي مزينة بالثمار أبداً موقرة بها لا ترى شجرة عريانة من ثمارها كما في الدنيا . وفي الحديث لا ينزع رجل في الجنة من ثمرها إلا نبت مكانها مثلاً ١٦.

ويقول تبارك اسمه : ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ١٧.

ويقول عز من قائل : ﴿فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ ١٨

ويقول سبحانه : ﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ ١٩

آيات متنوعة تبرز مدى النعيم الذي يلقاه المؤمن في الجنة ، لدرجة أن الفاكهة قريبة من يده ينالها قاعداً أو نائما ، بل يتخير من أنواعها ما تشتهيه نفسه .

ولعل تكرير ذكر المطاعم في القرآن العظيم مع أنها كلا شيء بالنسبة إلى سائر أنواع نعيم الجنة لما كان بأكثرهم في الدنيا من الشدة والفاقة فهو تسلية لهم ٢٠ .

ولعلنا لو ذكرنا أنواعا من نبات الجنة أدركنا أنه نعيم مادي محسوس يبدو في أوصافه شيء من خشونة البداوة ويلبي هواتف أهل البداوة حسبما تبلغ مداركهم وتجاربهم من تصور ألوان النعيم ٢١.

ومن نبات الجنة المذكورة في القرآن ، السدر والطلح .

يقول تعالى : ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾﴾ ٢٢

ويكاد المفسرون قديما وحديثا يتفقون على أن السدر هو شجر النبق المعروف عند العرب ٢٣ . ويذكرون قصة رجل أعرابي ، يعرف السدر جيدا ، ويدرك أنه ليس بطعام الإنسان ، عندما أتى رسول الله – صلى الله عليه وسلم . وقال له " لقد ذكر الله تعالى في القرآن شجرة مؤذية وما كنت أرى في الجنة شجرة تؤذي صاحبها . قال : ما هي ؟ قال السدر فإن له شوكا . فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم : أليس الله يقول " في سدر مخضود " ؟ خضد الله شوكه فجعل مكان كل شوكة فجعل مكان كل شوكة ثمرة وأن الثمرة من ثمره تفتق عن اثنين وسبعين لونا من الطعام ما فيها لون يشبه الآخر ٢٤ .

أما الطلح فلم يتفق في تفسيره المفسرون ، فذهب البعض إلى أنه الموز ، وذهب آخرون إلى أنه شجر من أشجار الحجاز من عظام العضاة فيه شوك . ولكنه في الجنة منضود معد للتناول بلا كد ولا مشقة . ومنهم من قال شجر أم غيلان وله نوار كثير ٢٥ .

أما فخر الدين الرازي ، فله رأي خاص في تفسير السدر والطلح إذ يقول " وأية نعمة تكون في كونهم في سدر ، وهو من أشجار البوادي ، لا بمر ولا بحلو ولا بطيب ؟ نقول فيه حكمة بالغة غفلت عنها الأوائل والأواخر ، واقتصروا في الجواب ، أن الجنة تمثل بما كان عند العرب عزيزا محمودا وهو صواب ولكنه غير فائق ، والفائق هو أن نقول إنا قد بينا أن البليغ يذكر طرفي أمرين ، يتضمن ذكرهما الإشارة إلى جميع ما بينهما .. فنقول لا خفاء في أن تزين المواضع التي يتفرج فيها بالأشجار ، وتلك الأشجار تارة يطلب منها نفس الورق ، والنظر إليه و الاستظلال به ، وتارة يقصد بها إلى ثمرها ، وتارة يجمع بينهما . لكن الأشجار أوراقها أقسام ويجمعها نوعان . أوراق صغار ، وأوراق كبار . والسدر في غاية الصغر ، والطلح وهو شجر الموز في غاية الكبر . فقوله تعالى : في سدر مخضود . وطلح منضود . إشارة إلى ما يكون ورقه في غاية الصغر من الأشجار ، وإلى ما يكون ورقه في غاية الكبر منها ، فوقعت الإشارة إلى الطرفين جامعة لجميع الأشجار نظرا إلى أوراقها . و الورق أحد مقاصد الشجر ، ونظيره في الذكر ذكر النخل والرمان عند القصد إلى ذكر الثمار لأن بينهما غاية الخلاف ٢٦ .

من خلال كلام المفسرين عن السدر والطلح ، أقول : إنهما نوعان من النبات يعرفها العرب ، لذلك ذكرا في القرآن على أنهما من أهم نباتات الجنة . وإذا كان بهما أطراف من خشونة البيئة الصحراوية فلم يستطع أحد أكلهما فأن الله تعالى بقدرته جعلهما في الجنة من أهم أطعمة أهل الجنة على ما نصت عليه الآيات .

إنها صورة نباتية جديرة بأن يتأملها كل إنسان مؤمن وغير مؤمن فهي تدعو المؤمنين وتدفعهم إلى أن يزدادوا طاعة وتقوى للوصول إلى هذه النعم في الجنة .كما تدفع غير المؤمنين إلى التدبر والتفكير فيما أعده الله لمن أطاعه وبالتالي يعودون إلى رحاب الله ودينه الحنيف .

ورغم ما نلاحظه اليوم من ازدهار فنون الرسم والتصوير ، إلا أن فنانا مالا يستطيع أن يرسم صورة حقيقية للجنة وسحرها ، هذه الصورة التي صورها القرآن بالكلمة ففاقت كل إبداع ، وكل تصوير ،حتى أن خيال الإنسان مهما كانت عبقريته وسعته لا يستطيع الوصول إلى كنهها . إنها أي الجنة فواكه مختلفة الألوان والطعوم ، ظل ظليل ، وروح وريحان . أنهار جارية ، حور عين ، ثياب من سندس ... نقول إنها صورة كلية لأشياء جزئية جمعها القرآن ونسقها بحيث تكون من الروعة والعظمة بما يفوق كل تخيل وكل تصور .

ومثل هذه الصور الكلية للجنة نجدها في سورة الرحمن ، إذ يقول جل شأنه : وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ ٢٧

والأفنان جمع فنن وهو الغصن ، فهي جنات ذات أغصان لا حصر لها ولا حد ، أغصان تنشر على أهل الجنة الظلال ، ويجنون منها الثمار ، وقد سخرت الغصون بجميع ثمارها لأهل الجنة كي يقطفوا منها كما يشاءون ... واختلف المفسرون في المراد بالزوجين ، فقيل هما صنفان : معهود

وغريب لم يره أحد ولم يسمع به . وقيل ضربان : رطب ويابس أو حلو وحامض . وعن ابن عباس : ما في الدنيا شجرة حلوة ولا مرة إلا وهي في الجنة حتى الحنظل إلا أنه حلو ... وجنى الجنتين : وهو ما يجني من ثمارها الطبيعية . دانٍ ، فهو في متناول أيديهم ، قريب منهم بحيث يقطفون منه كلما شاءوا قائمين أو جالسين أو مضطجعين لا يرد أيديهم بعد ولا شوك . وقيل إن كل ما يطلبون يجدونه فوقهم فيتناولو نه ٢٨ .

ويقول جل شأنه في نفس السورة : وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ ٢٩

و مدها متان من الدهمة، وهي سواد الليل ، ويعبر بها عن الخضرة التامة للزر وع والرياض ، كأنها من شدة خضرتها سوداء اللون ، واختلف المفسرون ، هل عطف النخل والرمان على الفاكهة من باب عطف الأشياء المختلفة بعضها على بعض ، أو من باب عطف الخاص على العام . والقائلون بالرأي الأول يقولون أن النخل والرمان عند العرب بمنزلة القمح لأن النخل عندهم قوتهم ، والرمان كالثمرات وكانوا يتقوتون به أيضا لكثرته عندهم ، ولذلك أفردت عنهما الفواكه . وأما القائلون بالرأي الثاني وهو أن النخل والرمان من الفواكه ، فيقولون إنهما خصا بالذكر لفضلهما وحسن موقعهما من الفاكهة ٣٠ .

ولا يقتصر طعام أهل الجنة المذكور في القرآن على هذه الأنواع التي ذكرناها وإنما هناك أنواع أخرى من الفاكهة مثل العنب .

يقول تعالى : إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ ٣١

والمفاز "الفوز بالنعيم والثواب أو مكان ذلك و " الحدائق " البساتين فيها أنواع الشجر المثمر ٣٢ والعربية تستعمل الحدائق فيما يحدق به بناء من شجر أو نخل . ثم شاع إطلاقه على القطعة من النخل توسعا ، بملحظ من إحداقه بها . وذهب الراغب في المفردات إلى أنها سميت حديقة تشبيها بحدقة العين في الهيئة وحصول الماء فيها ٣٣ والأعناب معروفة جمع عنب خصها بالذكر لأهميتها .

إنها آيات تكمل ما سبق من وصف للجنة في الآيات السابقة ، وتظهر أن ذلك "عطاء لهم من مالك السموات والأرض والذي لا يملك أحد أن يخاطبه في شأن الثواب والعقاب بل هو المتصرف وحده في ذلك اليوم الذي يقوم فيه الروح والملائكة صفا لا يمكن لأحد منهم أن يتكلم إلا من أذن له الرحمن ونطق الصواب ٣٤ .

وللنبات في الجنة دور آخر يكمل الصورة التي سبق توضيحها من قبل . يتمثل هذا الدور في الظل الناجم عن هذه البساتين وهذه الرياض المتشابكة الأغصان . وهي صورة تبرز أكثر عندما نتصور إنسان النار وهو يتقلب فيها لا يجد ملجأ ولا محيصا منها ولا ظلا ولا ما يشبه الظل

وسبق أن تحدثت في الفصل السابق ، عن البيئة المكية وافتقارها إلى الظل ، ومن ثم ندرك أن السبب في احتفال القرآن بالظل في الجنة ، هو ترغيب أهل مكة في الإيمان بالله القادر على أن يأتي لهم بما تفتقده بيئتهم وتصبو إليه نفوسهم . فالظل من مراتع البدوي ومناعمه ، التي يطمح إليها خياله وتهتف بها أشواقه . فلنتأمل هذه الصورة التي يرسمها القرآن للظل في الجنة صورة الإنسان وهو متكئ على أريكة ومن حوله الحور العين ، والأشجار تحوطه بظلها الدائم . يقول تعالى : إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ ﴿٥٦﴾ ٣٥

والظلال جمع ظل والمراد به الوقاية من مكان الألم فإن الجالس تحت كن لا يخشى المطر ولا حر الشمس فيكون به مستعدا لدفع الألم ، فكذلك لهم من ظل الله ما يقيم الأسواء٣٦ .

ويقول جل شأنه : أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾ ٣٧

وهو الموضع الذي يستقرون فيه من منازلهم في الجنة من مستقر هؤلاء المشركين الذين يفتخرون بأموالهم وما أوتوا من عرض هذه الدنيا فإن قال قائل وهل في الجنة قائلة فيقال وأحسن مقيلا فيها ؟ قيل المعنى وأحسن فيها قرارا في أوقات قائلتهم في الدنيا ٣٨ وقال الزمخشري : إن المقيل : هو المكان الذي يأوون إليه للاسترواح إلى أزواجهم والتمتع بمغازلتهن وملامستهن . كما أن المترفين في الدنيا يعيشون على ذلك الترتيب ... وسمي مكان دعتهم واسترواحهم إلى الحور العين

مقيلا على طريق التشبيه . وفي لفظ الأحسن رمز إلى ما يتزين به مقيلهم من حسن الوجوه وملاحة الصور إلى غير ذلك من التحاسين والزين ٣٩ .

ويقول تبارك اسمه : وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ ٤٠

ويقول : ﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾ ٤١

فجنات الدنيا لا يدوم ورقها و ثمرها . أما جنات الآخرة فثمارها دائمة غير منقطعة . وظلها دائم أيضا ، والمراد أنه ليس هناك حر ولا برد ولا شمس ولا قمر ولا ظلمة ونظيره قوله تعالى : " لايرون فيها شمسا ولا زمهريرا " ٤٢ .

يقول تعالى : إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ ٤٣

ويقول جل شأنه : وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ٤٤

فالمقصود " ظلال الأشجار وظلال القصور . قال رسول الله – صلى اله عليه وسلم : إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها ٤٥ .

لقد ذكر القران الكريم أصنافا للجنة منها الفردوس والمأوى والخلد ودار السلام وعليون . وكل جنة من هذه الجنات يكون النبات عنصراً مقصودا فيها وما الجنة إلا بساتين ورياض . فللون الأخضر إذن دوره الكبير في الجنة ، حتى لباس أهل الجنة وفراشهم وصف بالخضرة التي تأخذ بالألباب . وذلك لأن الخضرة كما قال الألوسي " أحسن الألوان والنفس تنبسط بها أكثر من غيرها ... وقيل ثلاثة مذهبة للحزن : الماء والخضرة والوجه لحسن ٤٦ .

يقول تعالى : ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ ۚ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ ٤٧

ويقول جل شانه : ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ۝ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ ٤٨

ويقول عز من قائل : ﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ۖ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ ٤٩

والسندس : غليظ الديباج . وقيل هو الحرير ٥٠ . وخص الأخضر بالذكر لأنه الموافق للبصر ، لأن البياض يبدد النظر ويؤلم ، والسواد يذم ، والخضرة بين البياض والسواد وذلك يجمع الشعاع ٥١ .

" وفي الجمع بين السندس والإستبرق إشعار ما بأن لأولئك القوم في الجنة ما يشتهون ، وذكرا لتعظيم شأنهما ، وكيف لا وهما وراء ما يشاهد من سندس الدنيا وإستبرقها بل وما يتخيل من ذلك ؟ . وأخرج البيهقي عن أبي الخير مرثد بن عبدالله قال : في الجنة شجرة تنبت السندس منه يكون ثياب أهل الجنة ٥٢ .

وهذا الذي ذكر من نعيم أهل الجنة ليس إلا بعض المتاع ذي المظهر المادي الذي يلبي بعض رغائب النفوس المؤمنة .

◆◆

ثانيا : النبات في النار

لاحظنا أن حديث القرآن الكريم عن النبات في الجنة كان متنوعا شكلا ومضمونا ، وهو تنويع يتلاءم مع المؤمنين المقيمين في الجنة حتى يهيئ لهم حياة ناعمة ، وذلك جزاء لهم عما قضوه من حياتهم الأولى وقد حرموا أنفسهم من ملاذها وقضوها عابدين الله تعالى .

أما في النار فسوف يكون العقاب بما يتلاءم مع من قضى حياته لا هم له إلا ملاذه ورغائبه ، ونسي أن هناك إلها خلقه لعبادته ؛ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ ٥٣ نسي ذلك وتكبر وتجبر وعلا في الأرض وكان من المفسدين . فهذا أخذ حظه من الدنيا ونسي الآخرة الأفضل منها ، فهذا مصيره النار بما فيها من مظاهر العذاب الأليم .

إن هؤلاء الكفرة لهم طعام مُعدلهم ، طعام نما في النار وتغذى عليها وكأن الله تعالى يقول لهم ؛ مثلما جعلتم حياتكم الأولى نامية على النار وذلك - لأكلهم مما لم يحله للإنسان مثل الربا- فسوف تكون حياتكم أيضاً في النار نامية على ما ينبت فيها ويتغذى عليها . فهؤلاء يخاطبهم الله تعالى واصفاً طعامهم بقوله تعالى : إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا٥٤ .

فهذا لتهديد يجيء رداً على تكذيب أولي النعمة خاصة .فالطعام ذو الغصة هو الجزاء المقابل للنعمة ، وألو النعمة يستأهلون لأنهم لم يراعوا نعمتهم ولم يشكروا واهبها إياهم ٥٥ . وهذا الطعام ينشب في الحلوق ولا يكاد يساغ كالزقوم و الضريع ٥٦

فطعام أهل النار بين الزقوم و الضريع فما هو الزقوم وما هو الضريع ؟

يقول الله تعالى ؛ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَأَكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ٥٧ .

فعلى ترتيب نزول الآيات الواردة في شجرة الزقوم هذه أول آية نزلت في شجرة الزقوم [٥٨]

ومن خلالها لا ندري ما شجرة الزقوم ، ولكن اللفظ نفسه يصور بجرسه ، ملمسا خشنا شائكا مدببا يمزق الأيدي ، وذلك مقابل ، السدر المخضود الذي لا شوك فيه ، ومع هذا فإنهم لآكلون من هذه الشجرة الشائكة فمالئون منها البطون [٥٩].

والآيات تصور حال الآثمين حين يأكلون من شجر الزقوم ، وإذ يقر ما يأكلون منه في بطونهم فهم حين الأكل ، لا يأكلون من شجرة واحدة بل من عدة من شجره ، كأن لكل شجرة مذاقاً غير الأخرى ، فبعض الشجر أخبث من بعض واشد تعذيبا وفي تعدد ما يأكلون منه إذن تنويع في العذاب ومزيد منه .

ولا يلبث الطاعمون من الزقوم أن يجدوا من حر العطش مالا يطيقون صبرا عليه فلا يكون لهم ما يشربون إلا الحميم . فيشربون منه ضارين به كما يشرب الهيم وهو على شدة حره واستبشاع مذاقه عليهم مما يذيقهم العطش من هول العذاب [٦٠].

أما كفار مكة حين سمعوا هذه الآيات في شجرة الزقوم ، جعلوها موضع سخرية واستهزاء وقالوا : إن محمدا يزعم أن الجحيم تحرق الحجارة ثم يقول ينبت فيها الشجرة . وبلغ بأبي جهل حد السخرية أن قال : يا معشر قريش هل تدرون ما شجرة الزقوم التي يخوفكم بها محمد؟ قالوا : لا . قال : إنها عجوة يثرب بالزبد والله لئن استمكنا منها لتزقمنها ترقما . واستهزاء أبي جهل والمشركين بشجرة الزقوم كان سببا في أن جعلها الله فتنة لهم في الحياة الأولى وعذابا لهم في الآخرة نلمس ذلك من خلال قوله تعالى في سورة الإسراء : ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ ۚ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾﴾ [٦١]

وكذلك قوله تعالى في سورة الصافات :

﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا

﴿فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ۝٦٦ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ۝٦٧ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ۝٦٨﴾ ٦٢

يقول فخر الرازي في تفسيره الكبير : وكانت هذه الفتنة في ذكر هذه الشجرة من وجهين : الأول : أن أبا جهل قال : زعم صاحبكم أن النار تحرق الحجر حيث قال (وقودها الناس والحجارة) ثم يقول بأن في النار شجرا ، والنار تأكل الشجر فكيف تولد فيها الشجرة .؟ والثاني : قول أبي جهل ما نعلم الزقوم إلا التمر والزبد فتزقموا منه ، فأنزل الله تعالى حين عجبوا أن يكون في النار شجر (إنا جعلناها فتنة للظالمين) . ثم قال تعالى (ونخوفهم فما يزيدهم إلا طغيانا كبيرا) . وذلك لأن هؤلاء خوفوا بمخاوف الدنيا والآخرة وشجرة الزقوم فما زادهم هذا التخويف إلا طغيانا كبيرا وذلك يدل على قسوة قلوبهم وتماديهم في الغي والطغيان ٦٣.

واصل النزل : " الفضل والريع في الطعام . يقال طعام كثير النزل فاستعير للحاصل من الشيء . وحاصل الرزق المعلوم اللذة والسرور . وحاصل شجرة الزقوم الألم والغم ...يعني أن الرزق المعلوم نزل أهل الجنة و أهل النار نزلهم شجرة الزقوم . فأيهما خير في كونه نزلا ؟ ... ومعلوم أنه لا خير في شجرة الزقوم ولكن المؤمنين لما اختاروا ما أدى إلى الرزق المعلوم واختار الكافرون ما أدى إلى شجرة الزقوم قيل لهم ذلك توبيخا على سوء اختيارهم .(فتنة للظالمين) محنة وعذابا لهم في الآخرة أو ابتلاء لهم في الدنيا . وذلك أنهم قالوا كيف يكون في النار شجرة والنار تحرق الشجر فكذبوا . (في أصل الجحيم) قيل منبتها في قعر جهنم وأغصانها ترتفع إلى دركاتها . والطلع للنخلة فاستعير لما طلع من شجرة الزقوم من حملها ... وشبه برؤوس الشياطين دلالة على تناهيه في الكراهية وقبح المنظر . لأن الشيطان مكروه مستقبح في طباع الناس لاعتقادهم أنه شر محض لا يخلطه خير . فيقولون في القبيح الصورة كأنه وجه شيطان و كأنه رأس شيطان . وإذا صوره المصورون جاءوا بصورته على أقبح ما يقدر وأهوله ... ٦٤.

والزقوم : اسم لشجرة صغيرة الورق مرة كريهة الرائحة تكون في تهامة وفي البلاد المجدبة المجاورة للصحراء ٦٥.

وعلى الرغم من إلقاء بعض المفسرين الضوء حولها إلا أنه يوجد منهم من اختلفوا حولها ، وهل هي من شجر الدنيا التي تعرفها العرب أم لا ؟ على قولين : إنها معروفة من شجر الدنيا .قال قطرب : إنها شجرة مرة تكون بتهامة من أخبث الشجر . وقال غيره : بل هو كل نبات قاتل .

والثاني : إنها لا تعرف في شجر الدنيا فلما نزلت هذه الآية قال كفار قريش ما نعرف هذه الشجرة . فقال أبو جهل قولته المشهورة ٦٦.

ويقول جل شأنه في شأن هذه الشجرة أيضا :.

إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ ٦٧

فعندما يجوع أهل النار يلتجئون إليها فيأكلون منها ، فتغلي بطونهم كما يغلى الماء الحار . وشبه ما يصير إلى بطونهم بالمهل وهو النحاس المذاب ٦٨.

من خلال وصف القرآن لشجرة الزقوم أستطيع أن أقول : أنها شجرة لا كشجر الدنيا هيئة وطبيعة ، لأنها تنبت في قرار جهنم ، وتنمو علي السعير ، خبيثة الطعم ، كريهة المنظر ، تضرم العطش في جوف طاعمها فلا يجد غير الحميم ، فيشرب منه ليزيد ما يتأجج في جوفه من حر الظمأ .

أما عن النوع الأخر من أطعمة أهل النار وهو الضريع فيقول تعالى فيه : لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ ﴿٧﴾ ٦٩.

والضريع نبت ذو شوك لاصق بالأرض تسميه قريش الشبرق ، إذا كان رطباً ، فإذا يبس فهو الضريع ، لا تقربه دابة ولا بهيمة ولا ترعاه وهو سم قاتل وهو أخبث الطعام . على هذا عامة المفسرين ٧٠.

ومعنى قوله تعالى " لا يسمن ولا يغني من جوع " أي إذا طلب أهل النار الطعام ليدفعوا به ما يصيبهم من ألم الجوع الذي يلائم عالمهم الأخروي وحياتهم في تلك الدار الباقية قدم إليهم من الطعام مالا يدفع جوعا ولا يفيد سمنا . أي ما ليس له اثر من آثار الطعام ٧١.

قال القرطبي : لما نزلت هذه الآية قال المشركون : إن إبلنا لتمسن بالضريع ، فنزلت " لا يسمن ولا يغني من جوع " وكذبوا فإن الإبل إنما ترعاه رطبا ، فإذا يبس لم تأكله ، وقيل اشتبه عليهم أمره فظنوه كغيره من النبت النافع لأن المضارعة المشابهة ، فوجدوه لا يسمن ولا يغني من جوع ٧٢.

وهناك نوع آخر من أطعمة أهل النار يسمي الغسلين يقول فيه تعالى : إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾ ٧٣

و الغسلين من الغسل فكأنه يتغسل من أبدانهم ، وهو صديد أهل النار السائل من جروحهم ٧٤.

وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن الغسلين من أشجار النار الملتهبة ٧٥. واعتقد أنه أخذ بالحديث الذي ورد في أحكام القرطبي والذي رواه الضحاك والربيع بن أنس " أن الغسلين شجر يأكله أهل النار . ٧٦ وسواء كان الغسلين نباتا أم سائلا من أجسادهم ، فإن ما يهمنا أنه من أطعمتهم التي تناسبهم وتتناسب مع حياتهم في النار .

من خلال الآيات المذكورة في شأن طعام أهل النار أقول مع الإمام محمد عبده " إنه شيء يوافق النشأة الآخرة ،وقد عبر الله عنه بالعبارات المختلفة ، وكلها مما يصور في أذهاننا بشاعته وخبثه لتنفر منه نفوسنا وتطلب كل وسيلة للفرار منه فتبعد بذلك عن العقائد الفاسدة والأعمال الخاسرة ٧٧.

ومن باب الملاحظة أشير إلى أن الآيات التي وردت في شأن طعام أهل النار من الزقوم والضريع الغسلين جميعها مكية ، وذلك راجع إلى أن مكة وقت نزول القرآن كانت منبع الشرك والكفر ، فلابد لهم من التهديد . ومن ثم تكرر لفظ الزقوم في أربع آيات من القرآن وبصور متخلفة .

أما أهل المدينة فآمنوا بالله ورسوله فوعدوا بالجنة التي تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها .

أما عن الظل في النار فتصوره الآيات تصويراً منفرا وهذا أمر طبيعي ، لأن نبات النار كما رأينا منفر ، فقد نما وتغذى على النار فكذلك ظل النار مثل نباتها .

يقول تعالى : ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ ٧٨

يعني لهب النار ارتفع وصعد معه دخان فمن شدته وقوته أن له ثلاث شعب . وظل الدخان المقابل للهب لا ظليل هو في نفسه ولا يغني من اللهب يعني ولا يقيهم حر اللهب ٧٩.

وتسميته بالظل هنا "امتداد للتهكم في قوله تعالى " انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون " وهو تمنية ما تكاد تطوف بخيالهم حتى يفجعوا فيها فهو ظل ولا ظل ٨٠.

ويقول جل شأنه : وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ ٨١ .

فهم يفزعون من السموم إلى ظل كما يفزع أهل الدنيا ، فيجدونه ظلا من يحموم . أي من دخان جنهم أسود شديد السواد .وهو ظل ليس باردا بل حار ، وكذلك ليس كريما ٨٢ .فلا يهيئ لهم الراحة والاسترواح وأي راحة في جنهم ؟!! فهذا ظل ليس له من الظل إلا اسمه .

يقول تعالى : لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾ ٨٣

وهو مشهد رعيب مشهد النار في هيئة ظلل من فوقهم وظلل من تحتهم وهم في طيات هذه الظلل المقتمة تلفهم وتحتوي عليهم ، وهي من النار . إنه مشهد يعرضه القرآن للعباد وهم بعد في الأرض يملكون أن ينأوا بأنفسهم عن طريقه ويخوفهم مغبته لعلهم يجتنبونه ٨٤.

وهي آيات كما نلاحظ مكية والبيئة المكية تفتقر إلى الظل لهذا فالقرآن يرغبهم في ظلال الجنة ويتوعدهم بظلال النار .

أما عن لباس أهل النار فهو مناسب لحياتهم في النار ،

يقول تعالى : وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ ٨٥

أي ثيابهم التي يلبسونها من قطران وهو الذي تهنأ به الإبل أي تطلي به . ومن شأنه أنه يسرع فيه اشتعال النار وهو أسود اللون ، فتطلى به جلود أهل النار حتى يعود طلاؤه لهم كالسرابيل وهي القمص لتجتمع عليهم الأربع : حرقة القطران وإسراع النار في جلودهم واللون الأسود والرائحة الكريهة ٨٦.

لقد عني القرآن بمشاهد يوم القيامة البعث والحساب والنعيم والعذاب ، فلم يعد ذلك العالم الآخر الذي وعده الناس بعد هذا العالم الحاضر موصوفا فحسب ، بل عاد مصورا محسوسا وحيا متحركا وبارزا شاخصا وعاش المسلمون في هذا العالم عيشة كاملة ، رأوا مشاهده وتأثروا بها وخفقت قلوبهم تارة واقشعرت جلودهم تارة وسرى في نفوسهم الفزع مرة وعاودهم الاطمئنان أخرى ، ولفحهم من النار شواظ ، ورق إليهم من الجنة نسيم ، ومن ثم باتوا يعرفون هذا العالم تمام المعرفة قبل اليوم الموعود .

العالم بسيط كل البساطة ، واضح وضوح العقيدة الإسلامية ، موت وبعث ونعيم وعذاب . فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم الجنة بما فيها من نعيم . وأما الذين كفروا وكذبوا بلقاء الله فلهم النار بما فيها من جحيم . ولا شفاعة هناك ولا فدية من العذاب ولا اختلال قيد شعرة في ميزان العدالة الدقيق ٨٧ . ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ ٨٨

◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆

هوامش الفصل الخامس

١ تفسير جزء عم للأستاذ محمد عبده ص ٨٥ .
٢ التفسير البياني جـ ٢ ، ص ٦٢ .
٣ البقرة ٢٥ .
٤ مريم ٦١ – ٦٢ .
٥ الأنفال ٤ .
٦ الألوسي جـ ١٦ ، ص ١١٢ ، وأنظر ابن كثير جـ٣ ، ص ١٣٣ .
٧ مفاتيح الغيب جـ ١٥ ، ص ١٢٨ .
٨ الذاريات الآية ٢٢ .
٩ جـ ٢٦ ، ص ١٣٦ ، وانظر الألوسي جـ ٢٣ ، ص ٨٦ . و الزمخشري الكشاف جـ ٣ ، ص ٣٣٩ .
١٠ ج ٢٧ ، ص ٢٢٦ .
١١ الصافات ٤١ – ٤٣ .
١٢ الجامع لأحكام القرآن جـ ١٥ ، ٧٧ .
١٣ مفاتيح الغيب جـ ٢٦ ، ص ٢١٩ .
١٤ صورة ص ٥١ .
١٥ الزخرف ٧٢ – ٧٣ .
١٦ روح المعاني جـ ٢٥ ، ص ١٠١ والقرطبي جـ ١٦ ، ص ١١٥ .
١٧ الطور ١٧ – ١٩ .
١٨ الحاقة ٢٢ – ٢٣ .
١٩ الواقعة ٢٠ .
٢٠ روح المعاني جـ ٢٥ ، ص ١٠١ .
٢١ في ظلال القرآن جـ ٢٧ ، ٣٤٦٤ .
٢٢ الواقعة ٢٧ – ٢٩ .
٢٣ الألوسي جـ ٢٧ ، ص ١٤٠ . والكشاف جـ ٤ ، ص ٥٤ ، وابن كثير جـ ٤ ، ص ٢٨٨ . والظلال جـ ٢٧ ، ص ٣٤٦٤ .
٢٤ المصادر نفسها والصفحات نفسها .
٢٥ روح المعاني جـ٢٧ ، ١٤٠ والكشاف جـ ٤ ، ص ٥٤ ، وابن كثير جـ ٤ ، ص ٢٨٨ . والظلال جـ ٢٧ ، ص ٣٤٦٤ .
٢٦ جـ ٢٩ ، ص ١٦٣ بتصرف .
٢٧ الرحمن ٤٦ – ٥٥ .
٢٨ تفسير سورة الرحمن ، ص ١٢٣ – ١٢٧ بتصرف .
٢٩ الرحمن ٦٢ – ٦٩ .
٣٠ د. شوقي ضيف : المرجع السابق ، ص ١٣٤ ، ١٤٤ بتصرف
٣١ النبأ ٣١ – ٣٢ .
٣٢ تفسير جزء عم ص ١١ .
٣٣ الإعجاز البياني .د. عائشة عبد الرحمن ، ص ٤٢٩ ، دار المعارف ، ط ٢ .
٣٤ تفسير جزء عم ، ص ١١ .
٣٥ يس ٥٥ – ٥٦ .
٣٦ مفاتيح الغيب ، ج ٢٦ ، ص ٩٢ .
٣٧ الفرقان ٢٤ .
٣٨ أحكام القرطبي ج ١١ ، ص ٤ ، الرازي جـ ٢٤ ، ص ٧٣ .
٣٩ الكشاف ، جـ ٣ ، ص ٨٩ .
٤٠ الواقعة ٣٠ .
٤١ الرعد ٣٥ .
٤٢ الرازي جـ ١٩ ، ص ٦٠ .
٤٣ المرسلات ٥٦ .
٤٤ النساء ٥٧.
٤٥ روح المعاني جـ ٢٧ ، ص ٤٤٠ . والقرطبي جـ ٥ ص ٢٥٥ . وابن كثير جـ٤ ص ٢٨٩ . والطبري جـ٢٧ ، ص ١٠٥ .
٤٦ جـ ١٥ ، ص ٢٧١ .
٤٧ الكهف ٣١ .
٤٨ الدخان ٥١ – ٥٣ .
٤٩ الإنسان ٢١ .

٥٠ روح المعاني جـ ١٥ ، ص ٢٧١ ، والطبري جـ١٥ ، ص ١٥٩ .
٥١ القرطبي جـ ١٠ ، ص ٣٩٧ .
٥٢ روح المعاني جـ ١٥ ، ص ٢٧٢ .
٥٣ الذاريات ٥٦ – ٥٧ .
٥٤ المزمل ١٢ – ١٣ .
٥٥ مشاهد القيامة في القرآن الكريم ص ٦٠ ، سيد قطب ط ١١ ، ١٩٩٣ . دار الشروق .
٥٦ روح المعاني جـ ٢٩ ، ص ١٠٧ ، والقرطبي ، جـ ٢٩ ،ص ٤٦ ، والكشاف جـ ٤ ، ص ١٧٧ .
٥٧ الواقعة ٥١ – ٥٦ .
٥٨ البرهان في علوم القرآن للزركشي ، المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت جـ ١ ، ١٩٣ ، ط ٢ .
٥٩ مشاهد القيامة ١٣١ .
٦٠ علي النجدي ناصف ، مع القرآن الكريم ، ص ١٤٦ ، دار المعارف بدون تاريخ .
٦١ الآية ٦٠ .
٦٢ الآيات ٦٢ – ٦٨ .
٦٣ جـ ١٥ ، ٢٣٨ وما بعدها .
٦٤ الكشاف جـ٣ ، ص ٣٤٢ . الألوسي جـ ٢٣ ، ص ٩٥ .
٦٥ الألوس جـ٢٣ ، ص ٩٥ .
٦٦ أحكام القرآن للقرطبي ، جـ ١٥ ، ص ٨٥ وما بعدها
٦٧ الدخان ٤٣ – ٤٦ .
٦٨ القرطبي جـ ١٦ ، ص ١٤٩ ، والطبري جـ ٢٥ ، ص ٧٨ .
٦٩ الغاشية ٦ – ٧ .
٧٠ القرطبي جـ ٢٠ ، ص ٢٩
٧١ جزء عم ص ٨٤ .
٧٢ جـ ٢٠ ، ص ٣٢ ، من الجامع لأحكام القرآن .
٧٣ الحاقة ٣٣ ، ٣٧ .
٧٤ القرطبي جـ ١٨ ، ص ٢٧٣ ، والطبري جـ ٢٩ ، ص ٤١ ، الكشاف ،جـ ٤ ،ص ١٥٤ ، ابن كثير جـ ٤ ، ص ٤١٦ .
٧٥ سورة الرحمن ، د. شوقي ضيف ، ص ١٠١ .
٧٦ جـ ١٨ ، ص ٢٧٣ .
٧٧ ص ٨٤ من تفسير جزء عم .
٧٨ المرسلات ٣٠- ٣١ .
٧٩ ابن كثير جـ ٤ ، ص ٤٦٠ ، والطبري جـ ٢٩ ، ص ١٤٦ .
٨٠ مشاهد القيامة ، ص ٨٥ .
٨١ الواقعة ٤١- ٤٣
٨٢ القرطبي جـ ١٧ ، ص ٢١٣ .
٨٣ الزمر ١٦ .
٨٤ في ظلال القرآن جـ٢٤ ، ص ٣٠٤٥ .
٨٥ ابراهيم ٤٩ – ٥٠ .
٨٦ الكشاف جـ ٢ ، ص ٣٨٥ ، وانظر ابن كثير جـ ٢ ، ص ٥٦١ .
٨٧ مشاهد القيامة ، ص ٤٢ .
٨٨ الزلزلة ٧ – ٨ .

الفصل السادس

النبات وضرب الأمثال

مدخل

أولا : في الآيات المكية

ثانيا : في الآيات المدنية

الفصل السادس

النبات وضرب الأمثال

مدخل

كان العرب عند مبعث النبي – صلى الله عليه وسلم – في نهضة لغوية شاملة ، فيهم نوابغ الشعراء ، ومصا قع الخطباء ، ولهم كما يقول الجاحظ القصيد العجيب ، والرجز الفاخر والخطب الطوال البليغة والقصار الموجزة ، ولهم الأسجاع ، والمزدوج ، واللفظ المنثور وكانوا يتنافسون على الفصاحة والبلاغة ١ .

ولذلك بدأ القرآن خاصة في أواسط العهد المكي الذي اشتد فيه الجدل يواجههم بالتحدي المعاجزة حسما لكل جدل أو ريب فيه ، وبرهانا قاطعا على إعجازه . وأول ما نزل من آيات المعجزة ، آية الإسراء المكية التي تقول :

﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾﴾ ٢

وبعد هذا التحدي العام نزلت آية يونس تتحداهم أن يأتوا بسورة واحدة فحسب مثل هذا القرآن : ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ ﴿٣٨﴾﴾ ٣ .وكذلك تحدتهم آية هود التي نزلت بعد يونس أن يأتوا بعشر سور مثله : ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَـٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٣﴾﴾ ٤

وبذلك قرر القرآن أن هناك نوعين من النفوس : نفوس مؤمنة ، ونفوس غير مؤمنة ، النفوس المؤمنة يربيها القرآن تربية خاصة تتلاءم مع قوتها ، والنفوس غير المؤمنة يقدم لها من بالغ كلمه وروائع مثله ما يجلو غوامض الأمور . ومن أجل هذا كانت الأمثال في القرآن لونا من ألوان الهداية الإلهية٥ .

والأمثال من الأوجه التي نزل عليها القرآن ، كما قال رسول - الله صلى الله عليه وسلم ، حلال وحرام ومحكم و متشابه وأمثال ، فاعملوا بالحلال ، واجتنبوا الحرام ، واتبعوا المحكم وآمنوا بالمتشابه ، واعتبروا بالأمثال .

وقسمه أبو عبد الله البكر أباذي إلى أربعة أوجه :

أحدها : إخراج مالا يقع عليه الحس إلى ما يقع عليه ، وثانيهما : إخراج ما لا يعلم ببديهة العقل إلى ما يعلم بالبديهة ، وثالثها :إخراج ما لم تجر به العادة إلى ما جرت به ، ورابعها : إخراج مالا قوة له من الصفة إلى ماله قوة٦ .

ومن الوسائل التي استخدمها القرآن لتحقيق المراد من المثل وتقريبه إلى الأذهان النبات . فأروع الأمثال القرآنية ما ذكر فيه نبات لأنه يبرز المعنى ويوضحه ويصوره بصورة قريبة من الأذهان .

إن استخدام القرآن عناصر تشبيهاته من الطبيعة سر أسرار خلوده ، فهو باق ما بقيت هذه الطبيعة ، وبذلك يؤثر في الناس لإدراكهم عناصره التي يرونها قريبة منهم وبين أيدهم ٧ فهي معان مستمدة من الطبيعة التي تخلع عليها الحياة ، واتبع القرآن في ذلك طريقة التصوير فبلغ الغاية بمادته وطريقته وجمع بين الغرض الديني والغرض الفني٨ .

ولقد شاء الله تعالى أن يجعل من ضرب الأمثال في القرآن آية لفوائد جمة حتى يستفاد منها أمور كثيرة قال الأصبهاني : لضرب العرب الأمثال واستحضار العلماء المثال والنظائر شيء ليس بالخفي في إبراز خفيات الدقائق ورفع الأستار عن الحقائق تريك المتخيل في صورة المتحقق والمتوهم في معرض المتيقن ، والغائب كأنه مشاهد ، وفي ضرب الأمثال تبكيت للخصم الشديد الخصومة، وقمع لثورة الجامح الأبي فإنه يؤثر في القلوب ما لا يؤثر وصف الشيء في نفسه ، ولذلك أكثر الله في كتابه وفي سائر كتبه الأمثال ، ومن سور الإنجيل سورة تسمى الأمثال ، وفشت الأمثال في كلام - النبي صلى الله عليه وسلم ، وفي كلام الأنبياء والحكماء٩ .

وقال الزركشي في البرهان : وضرب الأمثال في القرآن يستفاد منه أمور كثيرة : التذكير والوعظ والحث والزجر والاعتبار والتقرير ، وتقريب المراد للعقل ، وتصويره في صورة المحسوس .

وقال الألوسي : لضرب الأمثال شأن لا يخفى ونور لا يطفى ، يرفع الأستار عن وجوه الحقائق ، ويميط اللثام عن محيا الدقائق ، ويبرز المتخيل في معرض المتقين ،ويجعل الغائب كأنه مشاهد ،وربما تكون المعاني التي يراد تفهيمها معقولة صرفة ، فالوهم ينازع العقل في إدراكها حتى يحجبها عن اللحوق بما في العقل ، فضرب الأمثال يبرز في معرض المحسوس فيساعد الوهم

العقل في إدراكها ، وهناك تنجلي غياهب الأوهام ، ويرفع شغب الخصام فالأمثال تضرب للكشف والبيان ١٠ .

إن الأمثال تبرز المعقول في صورة مجسمة ، وتلبس المعنوي ثوب المحسوس ، وتفصل المجمل وتوضح المبهم . لتهذب الطبائع ، وتقلم الغرائز الشريرة ، فتخفف من غلواء النفوس ، وتحد من ضراوتها ، وتضع من كبريائها و غرورها ١١ .

والمثل في أصل كلام العرب بمعنى المثل والمثيل كشبه وشبيه وهو النظير ، ويجمع على أمثال ، قال اليزيدي : الأمثال الأشباه ، وأصل المثل : الوصف . هذا مثل كذا أي : وصفه مساو لوصف الآخر بوجه من الوجوه ، والمثل القول السائد الذي فيه غرابة من بعض الوجوه ، وقيل المثل ذكر وصف ظاهر محسوس وغير محسوس يستدل به على وصف مشابه له من بعض الوجوه فيه نوع من الخفاء ليصير في الذهن مساوياً للأول في الظهور من وجه دون وجه ، والمقصود من ذكر المثل أنه يؤثر في القلوب ... لأن الغرض من ضرب المثل تشبيه الخفي بالجلي ، والغائب بالمشاهد ، فيتأكد الوقوف على ماهيته ويعتبر الحس مطابقا للعقل١٢ .

و الأمثال في القرآن تناولت مجالات عدة ، فمثلت بالإيمان ومثلت بالكفر وفضحت النفاق وحضت على الإنفاق ،ونادت بالخير ، ونددت بالشر ، وصورت الطيب والخبيث والصالح والطالح وغير ذلك مما أشارت إليه .

وتتدرج الأمثال القرآنية من الناحية البلاغية في بنية التشبيه – لا سيما التمثيلي المركب ، وتدل الدراسة المقارنة لنصوص الكتب المقدسة على أن ضرب الأمثال سياق يحتذى فيها ، وفي الكلام المنسوب للأنبياء . كما هو الحال في بعض أسفار التوراة وفي بعض نصوص الأناجيل ، وفي نصوص البوذية والطاوية .

وقد فطن شوبنهاور لهذه الخاصية التي تميز أديان الشرق وحكمته ، كما فطن لها سبينوزا من قبله . وليس أدل على ذلك مما نجده في مستهل الإنجيل الرابع المنسوب إلى يوحنا . وما نظفر به في اليهودية منسوبا إلى فيلون ، فضلا عن مزامير داوود وسفر" الأمثال" و " الحكمة " ليوشع بن شيراخ و " الجامعة " المنسوب إلى سليمان من بين أسفار العهد القديم عند اليهود ، وكتب الـ " أندرزها " الإيرانية التي انتشرت في إيران قبيل الإسلام وبعده [١٣] .

ودليل ما نحن بصدده من أن ا لأمثال سمة مميزة لأديان الشرق ولآدابه ما نجده مسوقا منها في شكل خرافات مروية على ألسنة الحيوان والطير كما هو الحال في كليلة ودمنة ،وما سيق فيها وما ضرب من أمثال انطوت على النصيحة والموعظة الأخلاقية والعبر السياسية .

أولا : في الآيات المكية

لقد تناولت الأمثال القرآنية مسائل عدة ، وأول هذه المسائل التي تناولتها الأمثال القرآنية مسألة البعث [١٤] التي أنكرها أكثر العرب الجاهليين ، وكانت نتيجة جحودهم الآخرة وإنكارهم الجنة والنار والحساب . ليس ذلك فحسب بل كانوا يجادلون الرسول – صلى الله عليه وسلم – كثيرا في البعث ، وكانوا يقولون أبعد أن تفارق أرواحنا أجسادنا ونصير ترابا نرجع إلى الحياة ونبعث من القبور ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ [١٥]

ومن أجل هذا ألح القرآن على إقناعهم بالبعث بمختلف الأدلة والبراهين .

ودائما يكرر القرآن على الكفار أن الأرض يموت زرعها وتموت نباتاتها ثم تدب فيها الحياة ثانية ، وأن الله لن يعجزه أن يحيي الإنسان ثانية كما يحيي الأرض بعد موتها وهمودها ، وبعد أن تذوى فيها الحياة وينشب الفناء أظفاره ، فإذا هو معروض على ربه ليلقى جزاءه وما يستحق من عقاب أو ثواب [١٦] .

وفي القرآن الكريم آيات متتالية في آخر سورة يس تحدثت عن رأي منكري البعث ، ثم ردت عليهم ردودا متنوعة لأن كفار مكة كانوا يجادلون الرسول – صلى الله عليه وسلم – في البعث أشد الجدال ، لدرجة أن بعضهم كان يأتيه بالعظام البالية فيفتها بيده وينشرها في الهواء ، ثم يسأله ساخرا من يحيي العظام وهي رميم ؟

يقول تعالى : ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾﴾ [١٧]

أي الذي بدأ خلق الشجر من ماء حتى صار خضرا نضرا فأثمر إلى أن صار حطبا يابسا توقد به النار . كذلك هو فعال لما يشاء قادر على ما يريد لا يمنعه شيء فالذي أخرج هذه النار من الشجر قادر علي أن يبعثه [١٨] .

وقوله تعالى : "الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا " فيه تنبيه على وحدانيته ودليل على كمال قدرته في إحياء الموتى بما يشاهدونه من إخراج المحرق اليابس من العود الندي الرطب . وذلك أن الكافر قال : النطفة حارة رطبة بطبع الحياة فخرج منها الحياة ، والعظم بارد يابس بطبع الموت فكيف تخرج منه الحياة ؟ فأنزل الله تعالى : " الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا " أي أن الشجر الأخضر من الماء ، والماء بارد رطب ضد النار وهما لا يجتمعان ، فأخرج الله منه النار ، فهو القادر على إخراج الضد من الضد وهو على كل شيء قدير [١٩] . وفي أمثالهم في كل شجر نار واستمجد المرخ و العفار [٢٠] .

إنها لعجيبة من العجائب التي يمرون عليها غافلين ،عجيبة تكمن في أن هذا الشجر الأخضر الريان بالماء يحتك بعضه ببعض فيولد نارا ، ثم يصير هو وقود النار بعد اللدونة والاخضرار [٢١] .

لقد كثر في القرآن إيضاح الأمور المعنوية بالصور المرئية المحسوسة تلقى عليها أشعة الضوء ، فتصبح شديدة الأثر ، وها هو ذا يلجأ إلى التمثيل فيصور به فناء هذا العالم الذي نراه مزدهرا أمامنا عامرا بألوان الجمال ، فيخيل إلينا استمراره وخلوده ، فيجد القرآن في الزرع يرتوي من الماء فيصبح بهيجا نضرا يعجب رائيه ، ولكن لا يلبث أن يذبل ويصفر ويصبح هشيما تذروه الرياح ، يجد القرآن في ذلك شبها لهذه الحياة الدنيا ، ولقد أوجز القرآن مرة في هذا التشبيه ، وأطنب ليستقر معناه في النفس ويحدث أثره في القلب [٢٢] . وهي مسألة مرتبطة بالبعث فمن يؤمن بفناء الحياة الدنيا يؤمن بأن هناك بعثا ثم حسابا .

ولنتأمل الآيات التي صور الله تعالى من خلالها قصر هذه الحياة التي تلهي الناس عن الآخرة

يقول تعالى : إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ [٢٣]

ضرب تبارك وتعالى مثلا لزهرة الحياة الدنيا وزينتها وسرعة انقضائها وزوالها بالنبات الذي أخرجه الله من الأرض بما أنزل من السماء مما يأكل الناس من زروع و ثمار على اختلاف أنواعها وأصنافها ، وما تأكل الأنعام من أب وقضب وغير ذلك حتى إذا أخذت الأرض زينتها أي حسنت بما خرج في رباها من زهور نضرة مختلفة الألوان والأشكال ، ظن الذين زرعوها أنهم

قادرون على جذاذ ها وحصادها فبينما هم كذلك ، إذ جاءتها صاعقة أو ريح شديدة فأيبست أوراقها وأتلفت ثمارها ، ولهذا قال تعالى " أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيداً" أي يابسا بعد الخضرة والنضارة " كأن لم تغن بالأمس " كأنها ما كانت شيئا قبل ذلك . ثم قال تعالى " كذلك نفصل الآيات " أي نبين الحجج والأدلة لقوم يتفكرون . فيعتبرون بهذا المثل في زوال الدنيا من أهلها سريعا مع اغترارهم بها وتمكنهم وثقتهم بمواعيدها ، ونقلتها عنهم فإن من طبيعتها الهرب ممن طلبها والطلب لمن هرب منها [٢٤] .

والمعنى البلاغي يجمله صاحب الكشاف بقوله : شبهت حال الدنيا في سرعة تقضيها وانقراض نعيمها بعد الإقبال بحال نبات الأرض في جفافه وذهابه حطاما بعدما التفّ وتكاثف وزين الأرض بخضرته . وفي قوله تعالى "أخذت الأرض زخرفها وازينت " كلام فصيح ، جعلت الأرض آخذة زخرفها على التمثيل بالعروس إذا أخذت الثياب الفاخرة من كل لون فاكتستها وتزينت بغيرها من ألوان الزينة [٢٥] .

وهذا بيان قد أخرج ما لم تجر به عادة إلى ما جرت به . وقد اجتمع المشبه والمشبه به في الزينة والبهجة ثم الهلاك بعده . وفي ذلك العبرة لمن أعتبر ، والموعظة لمن تفكر في أنّ كل فانٍ حقير وإن طالت مدته وصغير وإن كبر قدره [٢٦] .

وصورة أخرى للحياة الدنيا تمثل قصتها ببريقها ولمعانها وجمالها وفتنتها ، حيث ينطفئ البريق واللمعان ويخفت نور الجمال وتتلاشى لذة الفتنة .

يقول الله تعالى : وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ [٢٧] .

قال فخر الدين الرازي : اعلم أن المقصود : اضرب لهم مثلا أخر يدل على حقارة الدنيا وقلة بقائها ، والكلام متصل بما تقدم من قصة المشركين المتكبرين على فقراء المؤمنين ، فقال (واضرب لهم) أي لهؤلاء الذين افتخروا بأموالهم وأنصارهم على فقراء المسلمين (مثل الحياة الدنيا) ثم ذكر المثل فقال (كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض) وحينئذ يربو ذلك النبات و يهتز ويحسن منظره ... وبعد ذلك جف ذلك النبات وصار هشيما وهو : النبت المتكسر المتفتت ، وإذا صار النبات كذلك طيرته الرياح وذهبت بتلك الأجزاء إلى سائر الجوانب (وكان الله على كل شيء مقتدرا) بتكوينه أولا وتنميته وسطا وإبطاله آخرا ، وأحوال

الدنيا أيضا كذلك تظهر أولا في غاية الحسن والنضارة ثم تتزايد قليلا قليلا ثم تأخذ في الانحطاط إلى أن تنتهي إلى الهلاك والفناء ، ومثل هذا الشيء ليس للعاقل أن يبتهج به [٢٨] .

إنها صورة شبه القرآن من خلالها حال الدنيا في نضرتها وبهجتها وما يتعقبها من الهلاك والفناء بحال النبات يكون أخضر وارفا ثم يهيج فتطيره الرياح كأن لم يكن [٢٩] .

ومن دلالات التنويع في الأمثال القرآنية ، يسوق القرآن مثلا للقلب الإنساني ، إذ يشبه في القرآن بالأرض الطيبة أو التربة الطيبة . والقلب الخبيث يشبه بالأرض الخبيثة أو التربة الخبيثة " فكلاهما القلب والتربة منبت زرع ، ومأتي ثمر . القلب ينبت نوايا ومشاعر ، وآثارا في واقع الحياة . والأرض تنبت زرعا و ثمرا مختلفا أكله وألوانه ومذاقه وأنواعه . والهدى ينزل على القلب كما ينزل الماء على التربة . فإن كان طيبا كالبلد الطيب ، تفتح واستقبل ، وزكا وفاض بالخير ، وإن كان فاسدا شريرا كالذي خبث من البلاد ، استغلق وقسا وأخرج الشوك والأذى كما تخرج الأرض النكدة [٣٠] .

يقول تعالى : ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ [٣١] .

فهذا مثل لمن ينجع فيه الوعظ والتنبيه من المكلفين ، ولمن لا يؤثر فيه شيء من ذلك . وعن قتادة : المؤمن سمع كتاب الله فوعاه بعقله وانتفع به ، كالأرض الطيبة أصابها الغيث فأنبتت والكافر بخلاف ذلك .

وهذا التمثيل واقع على أثر ذكر المطر ، وإنزاله بالبلد الميت . وإخراج الثمرات به على طريق الاستطراد ، ومثل ذلك التصرف نكرر الآيات لقوم يشكرون نعمة الله وهم المؤمنون ليفكروا فيها ويعتبروا بها [٣٢] .

وشبه نزول القرآن بنزول المطر ، وشبه المؤمن بالأرض الخيرة التي نزل عليها المطر فيحصل فيها أنواع الأزهار ، والثمار ، وأما الأرض السبخة فهي وإن نزل عليها المطر لم يحصل فيها من النبات إلا النزر القليل . فكذلك الروح الخبيثة فهي وإن اتصل بها نور القرآن لم يظهر فيها من المعارف والأخلاق الحميدة إلا القليل [٣٣] .

إنها لمقارنة بين فريقين موجودين في مكة وقت نزول القرآن ، فريق مؤمن يتبع محمدا – صلى الله عليه وسلم – وفريق كافر يتبع هواه .

وفي سياق الطيب والخبيث يضرب الله تعالى مثلا للكلمة الطيبة ، ومثلا للكلمة الخبيثة " الكلمة الطيبة كلمة الحق كالشجرة الطيبة ثابتة مثمرة لا ينقطع ثمرها لأن بذورها تنبت في النفوس المتكاثرة آنا بعد آن . والكلمة الخبيثة كلمة الباطل كالشجرة الخبيثة قد تهيج وتتعالى وتتشابك ، ولكنها تظل هشة و تظل جذورها في التربة قريبة حتى لكأنها على وجه الأرض ، وما هي إلا فترة ثم تجتث من فوق الأرض فلا قرار لها ولا بقاء ٣٤ .

يقول تعالى ، ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ ٣٥

ووجه تشبيه الكلمة الطيبة — بمعنى شهادة أن لا اله إلا الله — بهذه الشجرة المنعوتة بما ذكر ، أن أصل تلك الكلمة ومنشأها وهو الإيمان ثابت في قلوب المؤمنين ، وما يتفرع منها وينبني عليها من الأعمال الصالحة والأفعال الزكية يصعد إلى السماء وما يترتب علي ذلك من ثواب الله تعالى ورضاه هو الثمرة التي تؤتيها كل حين ٣٦ . وقد ذكر بعضهم في هذا المثل كلاما لا يخلو عن حسن ، وهو إنما مثل سبحانه الإيمان بالشجرة لأن الشجرة لا تستحق أن تسمى شجرة إلا بثلاثة أشياء ، عرق راسخ ، وأصل قائم وأغصان عالية . فكذلك الإيمان لا يتم إلا بثلاثة أشياء ، معرفة في القلب ، وقول باللسان وعمل بالأركان ٣٧ .

ويقول تعالى ، ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾ ٣٨

وهذا مثل ثان ذكر تبارك وتعالى فيه شجرة أيضا إلا أنه تعالى وصفها بثلاث صفات ، الصفة الأولى ، كونها خبيثة ، وذلك يحتمل أن يكون بحسب الرائحة ، وأن يكون بحسب الطعم ، وأن يكون بحسب الصورة ، وأن يكون بحسب اشتمالها . على المضار الكثيرة . ولا حاجة إلى القول بأنها شجرة كذا وكذا ، فإن الشجرة الجامعة لتلك الصفات وإن لم تكن موجودة إلا أنها إذا كانت معلومة الصفة كان التشبيه بها نافعا في المطلوب . والصفة الثانية ، اجتثاثها من فوق

الأرض ، وهذه في مقابلة أصلها ثابت في الشجرة الأولى . والصفة الثالثة :نفي أن يكون لها قرار وهذه كالمتممة للصفة الثانية ، والمراد بالكلمة المشبهة بذلك الجهل بالله تعالى ، فخبثه أظهر من أن يخفى وليس له حجة ولا ثبات ، ولا قوة بل هو داحض غير ثابت ٣٩ .

ولا شك أن هناك مثلا عظيما في سورة الكهف استغل فيه النبات لإبراز قدرة الله تعالى وهذا المثل ورد في شكل قصة . وفي هذا المثل نلحظ مقارنة بين رجلين أحدهما له جنتان فيهما من كل صنوف النبات ، بالإضافة إلى الأنهار التي تجري خلال هاتين الجنتين . ورغم ذلك لم يحمد هذا الرجل ربه على هذه النعم الكثيرة وافترى وتجبر وعلا في الأرض . أما الآخر فكان رجلا فقيرا لا يملك مثل تلك الجنات ورغم ذلك كان شاكرا له حامداً له على نعمه و آلائه . فكان عقاب الله لأولهما مريرا حيث أذهب كل ما يملك ، ولم يبق له منه شيئاً . جزاء له على كفره وعناده .

يقول تعالى : وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَـٰبٍ وَحَفَفْنَـٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَـٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَـٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَـٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّـٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ

خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّيٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾ ٤٠

فجنتا الرجل هنا فيهما نباتات كثيرة ، فيهما أعناب ونخل ، ثم زرع معطوف عليهما ، وهذا ما يسمى بعطف العام على الخاص ، لأن الأعناب والنخل من الزرع ، وهذا لذكر الشيء مرتين ، مرة بخصوصه ، ومرة في عموم غيره . وكذلك لشرف ثمار الأعناب والنخيل عند العرب ، وهذه الزروع أثمرت بفضل ما أمدها الله من أنهار ، وعندما تجبر صاحب الجنتين ، أصبح ولم يجد شيئا .

إنها قصة " تضرب مثلا للقيم الزائلة والقيم الباقية وترسم نموذجين واضحين للنفس المعتزة بزينة الحياة ، والنفس المعتزة بالله ، وكلاهما نموذج إنساني لطائفة من الناس . صاحب الجنتين نموذج للرجل الثري الذي نسي القوة الكبرى التي تسيطر على أقدار الناس ، والحياة ويحسب هذه النعمة خالدة لا تفنى . وصاحبه نموذج للرجل المؤمن المعتز بإيمانه ، الذاكر لربه ، يرى النعمة دليلا على المنعم ، موجبة لحمده وذكره لا لجحوده وكفره ٤١ .

❖❖❖

ثانيا : في الآيات المدنية

لا حظنا أن الآيات المكية وردت فيها الأمثال التي كان النبات أحد عناصرها في أكثر من موضع . وذلك لتقريب معني الغيبيات التي لا نعرفها ولا نشاهدها – من أذهاننا .

وفي الآيات المدنية ضرب المثل – والنبات أحد أطرافه – في أمور كثيرة ، في قمة الإيمان ... وحدانية الله ، في فناء الحياة الدنيا وقصرها ، في الإنفاق ، في نور الله تعالى الذي لا نشاهده وهو غيب عنا ...

فمسألة فناء الحياة الدنيا ، ضرب لها القرآن الكريم أكثر من مثل في الآيات المكية ، وقد رسم في تلك الأمثلة بأسلوبه الفني أكثر من لوحة تمثل قوة الدنيا الضعيفة ، وخلودها الفاني ، لعل ذوي الفطر السليمة يثوبون إلى بارئهم ويفيئون إلى ظلال الحق فيعملون للأولى والآخرة .

وفي الآيات المدنية " تسوق لنا سورة الحديد مثلا للحياة ، أبان الدوافع التي تغري أهل الدنيا بالاطمئنان إلى حياتهم ، كما بين المثل سرعة زوال الدنيا وذهابها بعد أن شبهها بالنبات الذي ارتفع والتف وطال وتطاول حتى أعجب الزارعين والرائين ، ثم سرعان ما اصفر بعد نضرة وذوى بعد قوة ، ولم يلبث أن تهشم وتحطم ، وتهاوى وتلاشى [42] .

يقول تعالى : ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾ [43]

أراد أن الدنيا ليست إلا محقرات من الأمور وهي اللعب واللهو والزينة والتفاخر والتكاثر ، وأما الآخرة فما هي إلا أمور عظام من العذاب الشديد ، والمغفرة ، ورضوان من الله . وشبه حال الدنيا وسرعة تقضيها مع قلة جدواها بنبات أنبته الغيث فاستوى واكتهل وأعجب به الكفار الجاحدون لنعمة الله فيما رزقهم من الغيث والنبات ، فبعث الله عليه العاهة فهاج واصفر وصار حطاما ، عقوبة لهم على جحودهم [44] .

وهو مثل دال على زوال الدنيا وانقضائها وفراغها لا محالة ، وأن الآخرة كائنة لا محالة [45] .

فهذا تشبيه قد أخرج ما لم تجر به عادة إلى ما قد جرت به ، وقد اجتمع المشبه والمشبه به في شدة الإعجاب ، ثم في التغير بالانقلاب ، وفي ذلك الاحتقار للدنيا والتحذير من الاغترار بها والسكون إليها ٤٦ .

ولقد عرض القرآن صورتين لقصر الحياة الدنيا . من خلال آيتين مكيتين٤٧ .ولعل هذا يخيل للبعض أن هناك تكرارا كاملا ، ولكن الواقع أن هناك اختلافا دقيقا ، " إنه في هذه الآية أطال عرض شريط الحياة الدنيا ، كما يراه الكفار ، فهي لعب ولهو وزينة وتفاخر بينهم ، وتكاثر في الأولاد والأموال ، ليقول إن هذا الذي تعجبون به كله ، وهذا الذي تستطيلون أمده ، إنما هو في حقيقته قصير زائل كذلك الغيث الذي يعجب الكفار نباته ، ثم يهيج فتراه مصفرا ، ثم يكون حطاما ٤٨ .

ولا يقتصر التمثيل بالنبات على ما ذكرت ، ولكن هناك أمثالا قرآنية ، رشحت النبات طرفا آخر للصورة ، يظهر هذا في الآيات التي تحث على الإنفاق في سبيل الله ، وتشبيه ، حال المنفقين في زيادة أموالهم وتضاعف حسناتهم بحال النبات في نموه وإخراج ثمره .

وهي آيات لعب فيها التشبيه دوره في التأثير في النفس كي تسمح ببذل المال في سبيل تخفيف أعباء المجتمع فقرر مضاعفة الثواب على ما يبذل في هذه الناحية ، يقول تعالى :﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَـٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ ٤٩

أي مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل زارع زرع في الأرض حبة فأنبتت الحبة سبع سنابل يعني أخرجت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة فشبه المتصدق بالزارع وشبه الصدقة بالبذر ، فيعطيه الله بكل صدقة له سبعمائة حسنة ، ثم قال تعالى (والله يضاعف لمن يشاء) يعني على سبعمائة ، فيكون مثل المتصدق مثل الزارع ، إن كان حاذقا في عمله ، ويكون البذر جيدا وتكون الأرض عامرة ويكون الزرع أكثر ، فكذلك المتصدق ، إذا كان صالحا ، والمال طيبا ويضعه في موضعه فيصير الثواب أكثر٥٠ .

وهذا المثل أبلغ في النفوس من ذكر عدد السبعمائة ، فإن فيه إشارة ، إلى أن الأعمال الصالحة ينميها الله عز وجل لأصحابها كما ينمي الزرع لمن بذره في الأرض الطيبة ٥١ .

وهذا التمثيل تصوير للأضعاف كأنها حاضرة بين يدي الناظر فهو من تشبيه المعقول بالمحسوس . وفي ذكره الحبة في التمثيل هنا إشارة إلى البعث وعظيم القدرة إذ من كان قادرا على أن يخرج من حبة واحدة في الأرض سبعمائة حبة فهو قادر على أن يخرج الموتى من قبورهم بجامع اشتراكا فيه من التغذية والنمو ٥٢ .

واتخاذ النبات طرفا ثانيا من أطراف الصورة في الأمثال القرآنية دليل على أن الزرع من أعلى الحرف التي يتخذها الناس والمكاسب التي يشتغل بها العمال .

يقول تعالى : وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ ٥٣

والمعنى كما يقول الزمخشري : ومثل نفقة هؤلاء في زكائها عند الله (كمثل جنة) وهي البستان (بربوة) أي بمكان مرتفع . وخصها بالذكر لأن الشجر فيها أزكى وأحسن ثمرا ، أصابها وابل أي مطر عظيم القطر (فآتت أكلها ضعفين) أعطت ثمرتها مثلي ما كانت تثمر بسبب الوابل . فإن لم يصبها وابل (فطل) فمطر صغير القطر ، يكفيها لكرم منبتها . أو مثل حالهم عند الله بالجنة على الربوة ونفقتهم الكثيرة والقليلة بالوابل والطل ، وكما أن كل واحد من المطرين يضعف أكل الجنة ، فكذلك نفقتهم كثيرة كانت أو قليلة بعد أن يطلب بها وجه الله زاكية عند الله زائدة في زلفاهم وحسن حالهم عنده ٥٤ .

واعترض فخر الدين الرازي على كلام المفسرين بشأن وقوع البستان على الربوة بقوله : واعلم أن المفسرين قالوا : البستان إذا كان في ربوة من الأرض كان أحسن ثمرا وأكثر ريعا .

(ولي فيه أشكال) ٥٥ وهو أن البستان إذا كان في مكان مرتفع من الأرض كان فوق الماء ولا ترتفع إليه أنهار . وتضربه الرياح كثيرا فلا يحسن ريعه ، وإذا كان في وهدة من الأرض انصبت مياه الأنهار ، ولا يصل إليه الرياح فلا يحسن ريعه أيضا . فإذن البستان إنما يحسن ريعه إذا كان على الأرض المستوية التي لا تكون ربوة ولا وهدة فإذن ليس المراد من هذه الربوة ما ذكروه . بل المراد منه كون الأرض طينا حرا . بحيث إذا نزل المطر عليه انتفخ وربا ، ونما ، فإن الأرض متى كانت على هذه الصفة يكثر ريعها ، وتكمل الأشجار فيها . والله تعالى ذكر هذا المثل في مقابلة المثل الأول (الصفوان) الذي لا يؤثر فيه المطر ، ولا يربو ولا ينمو بسبب نزول المطر

عليه ، فكان المراد بالربوة في هذا المثل كون الأرض بحيث تربو وتنمو فهذا ما خطر ببالي والله أعلم بمراده [٥٦].

ولا يعنيني اختلاف المفسرين بشأن البستان ، وإنما يعنيني أن وجه الشبه يكمن في " أن المنفق ابتغاء مرضاة الله وهو في سخاء نفسه وقلبه ، كالجنة الجيدة التربة الملتفة الشجر العظيمة الخصب في كثرة بره وحسنه . فهو يجود بقدر سعته ،فإن أصابه خير كثير أغدق وأوسع في الإنفاق ، وإن أصابه خير قليل أنفق منه بقدر ، فالوابل والطل عبارة عن سعة الرزق وما دون السعة [٥٧].

وهذا المثل ضرب لمن أنفق ماله لا يبتغي إلا وجه الله ، وأما من أعقب إنفاقه بالمن والأذى ، فإنه في يوم القيامة يجدها محبطة . فيتحسر عند ذلك حسرة من كانت له جنة من أبهى الجنات وأجمعها للثمار ، فبلغ الكبر ، وله أولاد ضعاف ، والجنة معاشهم فهلكت بالصاعقة [٥٨].

يقول تعالى : ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾ ﴾ [٥٩]

إنها جنة بها من الخير الكثير ، لكن صاحبها يصيبه الكبر ، ولم تعد لديه فتوة الشباب ، فأصبح محتاجا إلى ذلك الخير ، وهكذا تكون نفسه معلقة بعطاء هذه الجنة ، ليس لنفسه فقط ، ولكن لذريته من الضعفاء .

فيأتي إعصار فيه نار فاحترقت الجنة ، فأي حسرة يكون فيها الرجل ؟! إنها حسرة شديدة . كذلك تكون حسرة من يفعل الخير رئاء الناس ، أو من يتبع إنفاقه بالمن والأذى .

وخص النخيل والأعناب بالذكر برغم ذكر (كل الثمرات) لأنهما كما قال الزمخشري في كشافه : أكرم الشجر وأكثرها منافع ، ولأن الآية نزلت على أهل المدينة ، وهم أهل زراعة ، وكانت زراعتهم من النخيل والأعناب ، لذا فهم يعرفون قدر هذين النوعين من الفواكه ، وكانت وجوه إنفاقهم من ثمارهما .

وإذا كان هذا المثل لمن راءى بصدقته وهو مؤمن ، فبماذا شبه القرآن من ينفق ماله وهو كافر ؟ آية قرآنية في سورة آل عمران تحمل إجابة عن هذا السؤال .

يقول تعالى ، مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾ ٦٠

والمراد من هذا المثل كما قال أبو السعود في تفسيره : هو تشبيه ما أنفقوا في ضياعه وذهابه بالكلية من غير أن يعود إليهم نفع ما بحرث كفار ضربته صر واستأصلته ولم يبق لهم فيه منفعة ما بوجه من الوجوه ٦١.

لقد رسم القرآن صورة الحرث تأخذه الريح فيها برد يضرب الزرع والثمار فيهلكها فلا ينال صاحب الحرث منه ما كان يرجو بعد الجهد فيه ، كالذي ينفق ماله وهو كافر ، ويرجو الخير فيما أنفق فيذهب الكفر بما كان يرجوه ٦٢.

ولا شك أن من أروع الأمثال القرآنية مثلا يصور الله من خلاله استقرار نوره وإيمانه في قلب المؤمن . حيث شبه هذا الإيمان أو هذا الفيض الإلهي بفتيلة مضيئة داخل مصباح ، والمصباح داخل زجاجة ، فهذه صورة ثم يشبه هذه الصورة بصورة أخرى تتمثل في الكوكب اللؤلؤي الذي يستمد نوره من شجرة لا يحدد مكانها ولا زمانها . وهي صورة لا يستطيع الإنسان رؤيتها أو لمسها ولكنه يستطيع بذوقه وحسه وإيمانه أن يتخيلها ، بكل أجزائها وعناصرها التي لا يغني أحدها عن الأخر .

يقول تعالى، ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ٦٣.

فلشجرة الزيتون دور أساس في هذا المثل ، تمثل في أنه بعد تكوين هذه الصورة كلها وتشبيهها بالكوكب ذكر أن هذا الكوكب يستمد نوره من زيت الشجرة المباركة بقدرة الله

وكأن هذه الشجرة عين جارية تمد هذا الكوكب بما يحتاجه من وقود لازم لبقائه . كل ذلك دون أن تمسها نار . وخيالنا يبرزها لنا شجرة موجودة بين كوكبة من الأشجار تلفحها أشعة الشمس المحرقة ، ولكن هذه الزيتونة تتحاماها هذه الكوكبة من الأشجار فلا يصل إليها ضوء الشمس ، ورغم ذلك يستفاد بزيتها *.

وللإمام الغزالي تفسير لهذه الآية ، إذ قسم عالم الأرواح البشرية خمسة أقسام هي: الروح الحساس ، والروح الخيالي ، والروح العقلي ، والروح الفكري ، والروح القدسي . ومثل لكل روح منها بعنصر من عناصر هذا المثل . فمثل للروح الحساس بالمشكاة وللروح الخيالي بالزجاجة . وللروح العقلي بالمصباح . وأما الروح الفكري فمثل له بالشجرة ، وذكر له تفسيرا فلسفيا عميقا يجدر أن نسوقه لنتعرف على رؤية الغزالي لهذه الشجرة .

يقول الغزالي : وأما الروح الرابع وهو الروح الفكري فمن خاصيته أنه يبتدئ من أصل واحد ثم تشعب منه شعبتان ، ثم من كل شعبة شعبتان وهكذا إلى أن تكثر الشعب بالتقسيمات العقلية ، ثم يفضي بالآخرة إلى نتائج هي ثمراتها . ثم تلك الثمرات تعود فتصير بذورا لأمثالها . إذ يمكن أيضا تلقيح بعضها بالبعض حتى يتمادى إلى ثمرات وراءها . فبالحري أن يكون مثاله من هذا العالم الشجرة . وإذا كانت ثمراته مادة لتضاعف أنوار المعارف وثباتها وبقائها فبالحري ألا تمثل بشجرة السفرجل والتفاح والرمان وغيرها ، بل من جملة سائر الأشجار بالزيتونة خاصة ؛ لأن لب ثمرها هو الزيت الذي هو مادة المصابيح ، ويختص من سائر الأذهان بخاصية زيادة الإشراق مع قلة الدخان . وإذا كانت الماشية التي يكثر نسلها تسمى مباركة فالتي لا يتناهى ثمراتها إلى حد محدود أولى أن تسمى شجرة مباركة . وإذا كانت شعب الأفكار العقلية المحضة خارجة عن قبول الإضافة إلى الجهات والقرب والبعد ، فبالحري أن تكون لا شرقية ولا غربية .

وأما الخامس ، وهو الروح القدسي النبوي المنسوب إلى الأولياء إذا كان في غاية الصفاء والشرف وكانت الروح المفكرة منقسمة إلى ما يحتاج إلى تعليم وتنبيه ومدد من خارج حتى يستمر في أنواع المعارف ، وبعضها يكون في شدة الصفاء كأنه يتنبه بنفسه من غير مدد خارجي فبالحري أن يعبر عن الصافي البالغ الاستعداد بأنه يكاد زيته يضيء ولو لم تمسسه نار ٦٤.

ونور زيت الزيتون كان أصفى نور يعرفه المخاطبون ، ولكن ليس لهذا وحده كان اختيار هذا المثل . إنما هو كذلك الظلال المقدسة التي تلقيها الشجرة المباركة . ظلال الوادي المقدس في الطور ، وهو أقرب منابت الزيتون لجزيرة العرب . وفي القرآن إشارة لها (وشجرة تخرج من

طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للآكلين) * وهي شجرة معمرة كل ما فيها مما ينفع الناس ، زيتها وخشبها وورقها وثمرها ،وهي شجرة ليست متميزة إلى مكان أوجهة .إنما هي مثل مجرد للتقريب (لا شرقية ولا غربية) ، وزيتها ليس زيتا من هذا المشهود المحدود . إنما هو زيت آخر عجيب (يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار) فهو من الشفافية بحيث يضيء بغير احتراق .(نور على نور) وبذلك نعود إلى النور العميق الطليق في نهاية المطاف ٦٥ .

وهذا المثال إنما يتضح لقلوب المؤمنين أو لقلوب الأنبياء والأولياء لا لقلوب الكفار ، فإن النور يراد للهداية . فالمصروف عن طريق الهدى باطل وظلمة ، بل أشد من الظلمة ، لأن الظلمة لا تهدي إلى الباطل ، كما لا تهدي إلى الحق . وعقول الكفار انتكست وكذلك سائر إدراكهم وتعاونت على الإضلال في حقهم ٦٦.

ويجد القرآن في الزرع ، وقد نبت ضئيلا ضعيفا ، ثم لا يلبث ساقه أن يقوى بما ينبت حوله من البراعم ، فيشتد بها ساعده ويغلظ حتى يصبح بهجة الزارع وموضع إعجابه ، يجد في ذلك صورة شديدة المجاورة لصورة أصحاب محمد ، فقد بدؤوا ضعافا قلة ، ثم أخذوا في الكثرة والنماء ، حتى اشتد ساعدهم ، وقوى عضدهم ، وصاروا قوة تملأ قلب محمد بهجة ، وقلب الكفار حقدا وغيظا ٦٧ .

يقول تعالى : مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾ ٦٨

قال الزمخشري : هذا مثل ضربه الله لبدء أمر الإسلام وترقيه في الزيادة إلى أن قوى واستحكم ، لأن النبي – صلى الله عليه وسلم – قام وحده ثم قواه الله بمن آمن معه ، كما يقوي الطاقة الأولى من الزرع ما يحتف بها مما يتولد منها حتى يعجب الزراع . فإن قلت : قوله (ليغيظ

بهم الكفار) تعليل لماذا ؟ قلت : لما دل عليه تشبيههم بالزرع من نمائهم وترقيهم في الزيادة والقوة ٦٩ .

والصورة كما نلاحظ في شقيها المشبه و المشبه به ، ملموسة محسوسة . وإن كان وجه الشبه بين الطرفين معنويا ،وفي ذلك تكمن قيمتها ، ويكمن الإعجاز القرآني القادر على استخراج المعنوي من بين ثنايا المادي .

حقا إنه لوصف دقيق للرسول – صلى الله عليه وسلم ، والمؤمنين من حوله وهم في حالة تعاضد وتماسك مثل هذه الكوكبة من النباتات التي يشد بعضها من أزر بعض .

❖❖

هوامش الفصل السادس

١ إعجاز القرآن للباقلاني ، ص ٢٦ ، تحقيق السيد صقر ، دار المعارف .
٢ الآيات ٨٨ – ٨٩ .
٣ الآية ٣٨ .
٤ الآية ١٣ وانظر الإعجاز البياني ٦٦ .
٥ الأمثال في القرآن ، محمود بن الشريف ، ص ٧ اقرأ دار المعارف ، ط ٤ .
٦ البرهان في علوم القرآن جـ ١، ص ٤٨٦ .
٧ من بلاغة القرآن ، د. أحمد بدوي ، ص ١٩٦ ، نهضة مصر ط ٢ .
٨ التصوير الفني في القرآن ، ص ١٩٢ .
٩ معترك الأقران في إعجاز القرآن للسيوطي جـ١ ، ص ٤٦٦ ، دار الفكر العربي .
١٠ روح المعاني جـ ١ ، ص ١٦٣ .
١١ الأمثال في القرآن ، محمود بن الشريف ، ص ٨ .
١٢ تفسير البحر المحيط لمحمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي جـ١ ، ص ٧٤ ، دار الفكر ط٢ . ١٩٨٣ .
١٣ أبو علي أحمد بن محمد مسكويه ، الحكمة الخالدة ، جاويذان خرد ، تحقيق وتقديم . د. عبدالحمن بدوي ، ط دار السلام ، أنظر المقدمة ص ٧ .
١٤ تحدثت عن مسألة البعث من خلال فصلي (الماء والنبات) و (النبات بين الحياة والموت)
١٥ الصافات ١٦ .
١٦ سورة الرحمن وسور قصار ، ص ٢٢٦ ، وما بعدها .
١٧ يس ٧٨ – ٨١ .
١٨ تفسير القرآن العظيم جـ ٣ ، ص ٦٠١ .
١٩ أحكام القرآن جـ ١٥ ، ص ٥٨ ، وما بعدها .
٢٠ الكشاف ، جـ ٣ ، ص ٣٣٢ .
٢١ في ظلال القرآن ، جـ ٢٣ ، ص ٢٩٧٧ .
٢٢ من بلاغة القرآن ، ص ٢٠٩ .
٢٣ يونس ٢٤ .
٢٤ تفسير القرآن العظيم جـ ٢ ، ص ٤٤٢ .
٢٥ جـ٢ ص ٢٣٣ . وانظر مفاتيح الغيب ، جـ ١٧ ، ص ٧٦ .
٢٦ النكت في إعجاز القرآن ، ص ٨٤ .
٢٧ الكهف ٤٥ .
٢٨ مفاتيح الغيب جـ ٢١ ، ص ١٣٠ .
٢٩ الكشاف جـ ٢ ، ص ٤٨٦ .
٣٠ في ظلال القرآن جـ ٨ ، ص ١٣٠٠ .
٣١ الأعراف ٥٨ .
٣٢ الكشاف جـ ٢ ، ص ٨٤ .
٣٣ مفاتيح الغيب جـ ١٤ ، ص ١٥٠ .
٣٤ في ظلال القرآن جـ ١٣ ، ص ٢٠٩٩ .
٣٥ ابراهيم ٢٤ – ٢٥ .
٣٦ روح المعاني جـ ١٣ ، ص ٢١٤ .
٣٧ نفس المصدر جـ ١٣ ، ص ٢١٧ .
٣٨ ابراهيم ٢٦ – ٢٧ .
٣٩ روح المعاني جـ١٣ ، ص ٢١٧ .
٤٠ الآيات ٣٢ – ٤٤ .
٤١ في ظلال القرآن جـ ١٥ ، ص ٢٢٧٠ .
٤٢ الأمثال في القرآن ، ص ٥١ .
٤٣ الحديد ٢٠ .
٤٤ الكشاف جـ٤ ، ص ٦٥ .
٤٥ ابن كثير جـ ٤ ، ص ٣١٣ .
٤٦ النكت في إعجاز القرآن ، ص ٨٤ .

٤٧ راجع النبات وضرب الأمثال في الآيات المكية .
٤٨ التصوير الفني في القرآن ، ص ١٠٩ .
٤٩ البقرة ٢٦١
٥٠ الجامع لأحكام القرآن ، جـ ٣ ، ص ٣٠٣ .
٥١ تفسير ابن كثير جـ١ ، ص ٣١٦ .
٥٢ روح المعاني ، جـ ٣ ، ص ٣٢ و وما بعدها .
٥٣ البقرة ٢٦٥ .
٥٤ الكشاف جـ ١ ، ص ٣٩٥ . روح المعاني جـ٣ ، ص ٣٦ .
٥٥ الكلام لفخر الدين الرازي .
٥٦ مفاتيح الغيب جـ٧ ، ص ٦١ .
٥٧ تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار جـ٣ ، ص ٦٨ .
٥٨ جامع البيان في تفسير القرآن ، الطبري ، جـ ٥ ، ص ٥٤٣ .
٥٩ البقرة ٢٦٦ .
٦٠ الآية ١١٧ .
٦١ جـ ١ ، ص ٤٠٤ . ومفاتيح الغيب جـ ٨ ، ص ٢١١ .
٦٢ التصوير الفني ، ص ٣٨ .
٦٣ النور ٣٥ .
* فسر بن تيمية سورة النور وأفردها بكتاب مستقل لكنه لم يذكر شيئا في شأن شجرة الزيتون . انظره ، ص ١٧٤ ـ ١٩٦ . نشر دار الوعي ـ حلب ط١ ، ١٩٧٧ .
٦٤ أبو حامد الغزالي ، مشكاة الأنوار ، ص ٧٩ ، وما بعدها بتصرف تحقيق . د. أبو العلا عفيفي ، الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٧٣ .
* راجع الفصل الثالث ، من هذا البحث
٦٥ في ظلال القرآن الكريم ، جـ ١٨ ، ص ٢٥٢٠ .
٦٦ مشاة الأنوار ، ص ٨٢ .
٦٧ من بلاغة القرآن ، ص ١٩٧ .
٦٨ الفتح ، الآية ٢٩ .
٦٩ الكشاف ج٣ ، ص ٥٥١ ، وانظر : القرطبي ، جـ ١٦ ، ص ٢٩٥ . و الألوسي جـ ٢٦ ، ص ١٢٧ .

الفصل السابع

النبات في القصص القرآني

١- في قصة آدم عليه السلام .
٢- في قصة موسى .
٣- في قصة مريم .
٤- في قصة يوسف .
٥- في قصة يونس .
٦- في قصة إبراهيم .
٧- في سيرة محمد - صلى الله عليه وسلم .
٨- قصة أصحاب الجنة .
٩- سبأ وجناتهم .

الفصل السابع

النبات في القصص القرآني

مدخـــل:

القصة في القرآن ليست عملاً فنياً مستقلا في موضوعه وطريقة عرضه ، وإدارة حوادثه ،كما هو الشأن في القصة الفنية الحرة ،التي ترمي إلى أداء غرض فني مجرد . إنما هي وسيلة من وسائل القرآن الكثيرة إلى تحقيق هدفه الأصيل.. والقرآن كتاب دعوة دينية قبل كل شيء والقصة إحدى وسائله لإبلاغ هذه الدعوة وتثبيتها . .شأنها في ذلك شأن الأدلة التي يسوقها على البعث وعلى قدرة الله ،وشأن الشرائع التي يفصلها والأمثال التي يضربها .

وقد خضعت القصة القرآنية في موضوعها وفي طريقة عرضها وإدارة حوادثها لمقتضى الأغراض الدينية . والتعبير القرآني يؤلف بين الغرض الديني والغرض الفني ، فيما يعرضه من الصور والمشاهد ، ويجعل الأداء الفني أداة مقصودة للتأثير الوجداني ١

وقد بين الله أثر القصص في نفوس الصالحين من أولى الألباب فقال :

(لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولِي الأَلْبَابِ)٢ .

وليس القصص في واقعه إلا قطعاً حياً من دنيا الناس ، تفصل منها على قدر حالها ،إذ الأحياء تضطرب والأحداث تعتمل والأضداد تصطرع ،والمشاعر تتجلى والعواقب تتوالى ،على ما قدر لها أن تكون ، وما أشبه القصص حين تمد أطرافه ، وتفصل أحداثه بعمل البيئة في أهلها ،فهو يصرفهم عن كل ما يحيط بهم ، وينقلهم من بيئتهم إلى بيئة أخرى يعدها لهم ليعيشوا بين أهلها ، ويشاهدوا كيف تسير الحياة بينهم وتجرى أحداثها عليهم ، لا يقيدها زمان ، ولا يجمعها مكان محدود ، يلتقي فيها الماضي البعيد والحاضر العتيد ، ويتراءى المستقبل المرتقب . ويجتمع المشرق والمغرب والسماء والأرض وكل بمكان لا يريم ٣ .

وقد جعل الله لأهل مكة قصصا ولأهل المدينة قصصا لأن هؤلاء غير أولئك عقيدة وجبلة أهل مكة عبدة أوثان طال عهدهم بها وصحبتهم لها ، أجيالا متتابعة ، فقست قلوبهم ، وران عليهم الضلال والجحود ، فما تصلح حالهم على المحاجة وحدها ، ولكن على الزجر والوعيد ، والاسترهاب ، كد أب كل قوم متعجرف جهول ، لذلك يغلب في قصصهم ذكر الأمم البائدة التي

خالفت عن أمر الله وكذبت رسله ، فكان عاقبة أمرها وبالا وخسرا ، وإذ يلتقي في قصصهم جمع من تلك الأمم وما نزل بها من بأس الله٤

أما أهل المدينة فكانوا أهل كتاب ، جاءتهم الرسل من قبل ودعوهم إلى الله فآمن من آمن ، وأعرض من أعرض ، فهم أجدر أن يعلموا أن للناس إلها . وانه سبحانه قد أرسل إليهم رسلا من أنفسهم يستنقذونهم من الضلال ٥

ويساق القصص في القرآن بعامة للعبرة والموعظة ، أو للقدرة وتثبيت العزيمة أو للتعليم والهداية .

ولما كان السياق متعلقا بالحديث عن النبات في القرآن ، فمن الملائم إن أتحدث عن دور النبات في القصة القرآنية. حيث إن هناك قصصا قام النبات فيها بدور أساس بحيث يبدو وكأنه عنصر أساس من عناصر القصة لا تقوم ولا تتشكل بدونه .

وفي هذا السياق تطالعنا شجرة آدم التي أبهم القرآن تحديد نوعها ، ففتح هذا الإبهام للمفسرين باباً تسربت منة أقوال أكثرها منقول عن أهل الكتاب كما تطالعنا عصا موسى التي اتخذها من الشجرة ، ونخلة مريم ، وسنابل فرعون مصر التي أول يوسف رؤيا ها ، وجنات سبأ التي بدلها الله لكفرهم بالخمط والأثل والسدر القليل ، ودباء يونس التي أظلته بعد أن نبذ في العراء وهو سقيم .

١- آدم والشجرة :

قصة آدم عليه السلام أول قصة قرآنية قام فيها النبات بدور كبير ، حيث تسببت شجرة في خروجه من الجنة وهبوطه إلى الأرض .

والقرآن الكريم تحدث في سور متعددة عن أن الله تعالى قد أمر آدم وزوجه بأن يسكنا الجنة وأباح لهما أن يأكلا من جميع ثمارها ، سوى شجرة واحدة نهاهما عن الأكل منها ، ولكن إبليس أغراهما بالأكل منها واستطاع بوسوسته وخداعه أن ينسيهما ما نهاهما عنه ربهما وقال لهما : إن ربكما لم ينهكما عن الأكل من هذه الشجرة إلا لأن الأكل منها يجعلكما من الملائكة أو تكونا خالدين . ولا يقرب الموت والفناء ساحتكما حتى نسي آدم أنه عدوه الذي أبى السجود له ، وأن الله حذره منه أشد التحذير . فأكل آدم وحواء من الشجرة (فبدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة) ليسترا عورتيهما ويجعلا ورق الشجر على هيئة الثوب الساتر . وعاتب الله آدم على مخالفته أمره ، والأكل من الشجرة فندم

آدم وأخذ يعتذر فطرده هو وحواء من الجنة وطرد إبليس ثم تاب عليهما وهداهما وبقيا في الأرض ٦ .

يقول الله تعالى : (وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (١٩) فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (٢٠) وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ (٢١) فَدَلاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ (٢٢) قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (٢٤)) ٧ .

وقد اختلف في الجنة التي أسكنها آدم أهي في السماء أم في الأرض ؟ فالأكثرون على الأول .. وأما قوله (ولا تقربا هذه الشجرة) فهو اختبار من الله وامتحان لآدم ، وقد اختلف في هذه الشجرة فقيل هي الكرم وقيل هي الحنطة وقيل هي السنبلة والبر ، والتينة والنخلة. فهذه أقوال ستة في تفسير هذه الشجرة . قال أبو جعفر بن جرير : والصواب في ذلك أن يقال : إن الله عز وجل ثناؤه نهى آدم وزوجته عن أكل شجرة بعينها من أشجار الجنة دون سائر أشجارها فأكلا منها ولا علم عندنا بأي شجرة كانت على التعيين لأن الله لم يضع لعباده دليلا على ذلك في القرآن ولا من السنة الصحية ... وجائز أن تكون واحدة منها وذلك علم إذا علم لم ينفع العالم به علمه وإن جهله جاهل لم يضره جهله به ، وكذلك رجح الإبهام الرازي في تفسيره وغيره وهو الصواب ٨ .

واختلف في معصية آدم بأكله من الشجرة على أي وجه وقعت منه على أربعة أقاويل٩ :

أحدها : أنه أكل منها وهو ناس للنهي لقوله تعالى : (وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ) ١٠

والثاني : أنه أكل منها وهو سكران فصار مؤاخذا بما فعله في السكر وإن كان غير قاصد له كما يؤاخذ به لو كان صاحيا .

والثالث : أنه أكل منها عامدا عالما بالنهي .

والرابع : أنه أكل منها على جهة التأويل فصار عاصيا بإغفال الدليل لأن الأنبياء لا يجوز أن تقع منهم الكبائر ١١ .

وشبيه بهذه الآيات في بيان سكنى آدم الجنة ، وإغواء الشيطان له مما ترتب عليه خروجه من الجنة قوله تعالى في سورة البقرة ، (وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٥)فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (٣٦)فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٣٧)قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨))١٢ .

فآدم عاش في الجنة تمده بمقومات حياته بلا كد أو عمل ، وكان في الجنة أشجار كثيرة تعطي كل الثمرات ، وهي حلال لآدم وحواء يأكلان منها ما يشاءان ... ماعدا شجرة واحدة هي التي تسببت في وقوع آدم في الخطيئة ، إذ حاول إبليس إقناعهما بأن الأكل من هذه الشجرة ، يحرمهما من أن يكونا ملكين أو يكون خالدين .

ومن دقة التعبير اللغوي للقرآن أنه قال " ولا تقربا هذه الشجرة " ولم يقل " ولا تأكلا من هذه الشجرة " وهذا رحمة بآدم وزوجه ، لأنه لو قال " ولا تأكلا ؛ لأباح لهما الاقتراب منها ، فتجذبهما بجمالها ، وثمارها ، وتمد أيديهما إلى الشجرة ليأكلا منها .

يقول تعالى :(فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى (١٢٠)فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى (١٢١))١٣ .

لقد أكل آدم وحواء من الشجرة ، فلم يخلدا ولم يأت لهما الملك الذي لا ينتهي . بل ظهرت عوراتهما ، وعرفا أن إبليس كاذب ..وأن الله تعالى بما نهاهما عنه إنما أراد لهما الخير .

إن قصة الشجرة المحرمة ووسوسة الشيطان باللذة ، ونسيان العهد بالمعصية والصحوة من بعد السكرة ،وطلب المغفرة ،تجربة البشرية المتجددة المكرورة ، وهذه التجربة كانت تلبية وإعداداً لهذا الخليفة ، كانت إيقاظاً للقوى المذخورة في كيانه ، كانت تدريباً له على تلقي الغواية ، وتذوق العاقبة ، وتجرع الندامة ١٤ .

٢- موسى :

من أبرز سمات القصة القرآنية أن فيها العبرة والعظة . والعبرة والعظة نستخلصهما من قصة موسى مع فرعون عندما أخذته العزة بنفسه وغره بالله الغرور ،وتجبر وعلا في البلاد وأكثر فيها الفساد ، فأنزل الله به عقاباً مريراً ، وأودى بحياته ومن تبعه من قومه .

وقصة موسى تتشعب إلى عدد من القصص، وفي كل قصة منها نلمس دور النبات، وتصوير القرآن لهذا الدور بما يلائم القصة التي ورد بين ثناياها. فمثلاً عصا موسى الشجرية لها دور بارز في حياته، إذ كان يتوكأ عليها ويسقط بها ورق الشجر كي تأكله غنمه، بالإضافة إلى المآرب الأخرى التي يستخدم فيها موسى عصاه.

يقول تعالى: (وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى (١٧)قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى (١٨))١٥.

أي: أتحامل عليها في المشي والوقوف. وأضرب بها أغصان الشجر ليسقط ورقها فيسهل على غنمي تناوله فتأكله.

وتعرض قوم لتعديد منافع العصا منهم ابن عباس قال: إذا انتهيت إلى بئر فقصر الرشا وصلته بالعصي، وإذا أصابني حر الشمس غرزتها في الأرض وألقيت عليها ما يظلني، وإذا خفت شيئاً من هوام الأرض قتلته بها، وإذا مشيت ألقينها على عاتقي وعلقت عليها القوس والكنانة والمخلاة ١٦.

لقد ذكر موسى على التفصيل والإجمال المنافع المتعلقة بالعصا كأنه أحس بما يعقب هذا السؤال من أمر عظيم يحدثه الله فقال: ما هي إلا عصا لا تنفع إلا منافع بنات جنسها، وكما تنفع العيدان، ليكون جوابه مطابقاً للغرض الذي فهمه من فحوى كلام ربه ١٧.

والله تعالى إنما سأل موسى ليريه عظم ما يخترعه في الخشبة اليابسة من قلبها حية، وليقرر في نفسه المباينة البعيدة بين المقلوب عنه والمقلوب إليه، وينبهه على قدرته الباهرة١٨.

(قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى (١٩)فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى (٢٠)قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى (٢١))١٩.

فهذا برهان من الله تعالى لموسى عليه السلام ومعجزة عظيمة وخرق للعادة باهر، دل على أنه لا يقدر على مثل هذا إلا الله عز وجل وأنه لا يأتي به إلا نبي مرسل..

وكان هذا تمهيدا لتكليف موسى بمهمة كبرى مع فرعون، إذ تحدى فرعون وسحرته بعصاه تلك وتغلب عليهم ودعاهم إلى عبادة الله الذي خلق الأشياء، وجعل الأرض مهادا، والسماء سقفا محفوظا، وسخر السحاب والأمطار لرزق العباد، والدواب والأنعام.

يقول تعالى : (الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى (٥٣)كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لأُولِي النُّهَى (٥٤)) ٢٠ .

ورغم هذه الأدلة على قدرة الله ، لم يؤمن القوم ولم يؤمن فرعون فعاقبهم الله تعالى، ولم يمهلهم حتى حولهم من حال إلى حال إلى أن حل بهم عذاب الاستئصال.

يقول تعالى :(وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٣٠)) ٢١ .

قال الماوردي : :قوله تعالى :ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين فيه قولان :

أحدهما : يعنى الجوع .

والثاني : أن معنى السنين الجدوب .

والعرب تقول . أخذتهم السنة إذا قحطوا وأجدبوا ٢٢ .

وجملة معنى الآية أنه تعالى أخذ آل فرعون بالجدب وضيق المعيشة لعلهم يتذكرون ضعفهم أمام قوة الله ، ولعلهم إذا تذكروا واتعظوا رجعوا عن ظلمهم لبنى إسرائيل وأجابوا دعوة موسى عليه السلام ٢٣ .

وهذا الذي حدث لفرعون وقومه في أرض مصر المخصبة المعطاء" ظاهرة تلفت النظر وتهز القلب وتدعو إلى التفكر لولا أنهم لا يريدون أن يتفكروا ولا يريدون أن يروا يد الله في جدب الأرض ونقص الثمرات ٢٤ .

وللنبات في قصة موسى دور آخر يظهر عندما خرج موسى ببني إسرائيل من مصر وعبر بهم البحر إلى سيناء فقد شاء الله تعالى ألا يسلمهم هناك إلى وهج الشمس، وتضور الجوع وحرقة العطش ، فظلل عليهم الغمام ، ورزقهم المن والسلوى ، يصيب كل امرئ منهما ما يشاء ، وأمر موسى أن يضرب بعصاه الحجر فتفجر منه الماء ، فيسر الله لهم أسباب الحياة في هذه البرية القاحلة ، لكنهم قوم في طباعهم إلحاح ويبدو أن غاشية من البطر قد غشيتهم فنسوا معها أنهم في سيناء وليسوا في مصر .

يقول تعالى : (وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي

هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (٦١))٢٥ .

"يريد ما رزقوا في التيه من المن والسلوى ، وبوحدته أنه لا يختلف ولا يتبدل . وكانوا فلاحة فنزعوا إلى عكرهم ،واشتهوا ما ألفوه. والبقل : ما أنبتته الأرض من الخضر والمراد به أطايبه التي تؤكل ،والفوم : الحنطة ، ويقال للخبز ، وقيل للثوم .. والقثاء : هو القتة المعروفة والعدس والبصل معروفان .

قال موسى عليه السلام أتستبدلون الذي هو أدنى ، أقرب منزلة وأدون قدرا ، وأصل الدنو القرب في المكان فاستعير للخسة كما استعير البعد للشرف والرفعة . بالذي هو خير يريد المن والسلوى فإنه خير في اللذة والنفع وعدم الحاجة إلى السعي ٢٦ .

وسؤال النوع الآخر من الطعام يحتمل أن يكون لأغراض . الأول : أنهم لما تناولوا ذلك النوع الواحد أربعين سنة ملوه ،فاشتهوا غيره .

والثاني :لعلهم في أصل الخلقة ما تعودوا ذلك النوع ، وإنما تعودوا سائر الأنواع .

والثالث : لعلهم ملوا من البقاء في التيه ، فسألوا هذه الأطعمة التي لا توجد إلا في البلاد وغرضهم الوصول إلى البلاد لا إلى الأطعمة ٢٧ .

وربما كان لعيش بني إسرائيل الرضي في مصر مدخل في ذلك ، إذ كانوا أولي حرث وزرع وثمار : يعيشون على ألوان من الطعام ، كانت تجود لهم به الأرض الطيبة هناك . ولكن أين هم الآن من مصر وأين مصر منهم ٢٨ !؟ .

إن بني إسرائيل رفضوا رزق السماء من المن (النقط الحمراء تتجمع على أوراق الشجر) والسلوى (طير السمان) مع أنه كان رزقاً كثيراً ويأتيهم بلا عمل ، وطلبوا من موسى طعام الأرض الذي يزرعونه ويرونه أمامهم كل يوم ، وكأنهم خافوا أن يستيقظوا يوما ، فلا يجدون المن والسلوى .

٣ -مريم والنخلة :

لم يذكر من أنواع النبات في قصة مريم إلا النخلة ، ولكنها ذكرت قائمة بدور أساس ، حيث صورت وكأنها إنسان يمد يد العون إلى من هو في موقف ضيق . ومريم كانت في مثل هذا الموقف ، ولكن قدرة الله وعنايته شملتها بالرعاية والدفء مما جعل النخلة تثمر في غير موعد

الثمر (وقد أراد الله تعالى بهذا أن يسكن روعها ، ولتعلم أن من أوجد لها الرطب من النخلة اليابسة في الشتاء وأوجد لها الماء الجاري في تلك الهضبة التي كانت عليها من الجبل ، قادر على أن يرد عنها عيب العائبين ٢٩ .

يقول الله تعالى : (فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا (٢٢)فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَنسِيًّا (٢٣)فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا (٢٤)وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا (٢٥)فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا (٢٦)) ٣٠ .

لقد طلبت مريم الجذع لتستتر به وتعتمد عليه عند الولادة ، وكان جذع نخلة يابسة في الصحراء ليس لها رأس ولا ثمرة ولا خضرة وكان الوقت شتاء . والتعريف لا يخلو إما أن يكون من تعريف الأسماء الغالبة كتعريف النجم ، كأن تلك الصحراء كان فيها جذع نخلة متعالم عند الناس ، فإذا قيل جذع النخلة فهم منه ذلك دون غيره من جذوع النخل ، وإما أن يكون تعريف الجنس أي : جذع هذه الشجرة خاصة أن الله تعالى إنما أرشدها إلى النخلة ليطعمها منها الرطب الذي هو خرسة النفساء الموافقة لها ، ولأن النخلة أقل شيء صبرا على البرد وثمارها إنما هي من جمارها ، فلموافقتها لها مع جمع الآيات اختارها لها وألجأها إليها .

فإن قلت : ما كان حزنها لفقد الطعام والشراب حتى تسلى بالسري والرطب . قلت لم تقع التسلية بهما من حيث إنهما طعام وشراب ولكن من حيث إنهما معجزتان تريان الناس أنها من أهل العصمة حتى يتبين لهم أن ولادها من غير حمل ليس ببدع من شأنها . قالوا التمر للنفساء عادة في ذلك الوقت وقالوا كان من العجوة ، وقيل : ما للنفساء خير من الرطب ، وقيل إذا عسر ولادها لم يكن لها خير من الرطب .

أي جمعنا لك في السري والرطب فائدتين .إحداهما : الأكل والشرب . والثانية : سلوة الصدر لكونهما معجزتين ٣١ .

والحكمة في أمرها بهز جزع النخلة لتساقط عليها الرطب وأن رزقها كان رطباً ، أن مريم لم يكن لها في ذلك الحين من يهتم بأمرها ولا تقدر وهى نفساء أن تجهز لنفسها الطعام ،وما يلزم لمثلها من هي في حال النفاس ، وأيضاً فإن الرطب طعام وحلوى ولا يحتاج إلى علاج ومعاناة صنع فكان ذلك رفقاً بها ٣٢ .

فمريم كانت مباركة يفيض من حولها الخير ويفيض الرزق من كل ما يسمى رزقاً ، حتى ليعجب كافلها وهو نبي من فيض الرزق .

(فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧))٣٣ .

لقد ربى الله مريم ونماها في خيره ورزقه وعنايته وتوفيقه تربية حسنة شاملة للروح والجسد كما تربى الشجرة في الأرض الصالحة حتى تنمو وتثمر الثمرة الصالحة ، لا يفسد طبيعتها شيء ، ولعله عبر عن التربية بالإنبات لبيان أن التربية فطرية لا شائبة فيها ٣٤ .

٤- يوسف وتأويل الرؤيا :

قصة يوسف كما ذكر القرآن الكريم ، أحسن القصص ، لما ورد في أولها حين قال الحق تعالى : (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ)٣٥ . وهي ذات أسلوب فريد في ألفاظها وتعبيراتها وأدائها ، وفي سردها وحوارها الممتع ، تسري مع النفس سريان الدم في العروق وتجرى برقتها وسلاستها في القلب جريان الروح في الجسد .

وللنبات في قصة يوسف دور متميز ظهر عندما فسر يوسف رؤيا الملك تفسيراً حكيماً ، كان من نتائجه الخير للملك وقومه .

يقول فخر الدين الرازي : اعلم أنه تعالى إذا أراد شيئاً هيأ له أسباباً ، ولما دنا فرج يوسف عليه السلام رأى ملك مصر في النوم سبع بقرات سمان خرجن من نهر يابس وسبع بقرات عجاف فابتلعت العجاف السمان ، ورأى سبع سنبلات خضر قد انعقد حبها ، وسبعا أخر يابسات فالتوت اليابسات على الخضر حتى غلبن عليها . فجمع الكهنة وذكرها لهم فقال القوم هذه الرؤيا مختلطة فلا نقدر على تأويلها ٣٦ .

يقول تعالى : (وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ (٤٣)) ٣٧ .

أصبح فرعون منزعجاً لهذين المنامين فدعا بالسحرة وكل من له علم يسألهم فلم يجد عند أحد منهم جوابا ، بل قالوا أضغاث أحلام ، وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين . في ذلك الوقت انتبه رئيس السقاة إلى الأمر ، ومر على خاطره منامه الذي رآه في السجن ويوسف الذي عبره له تعبيرا كأنه يشاهد أمرا واقعا . فعرض الأمر على الملك واقتص عليه حلمه وحلم رئيس

الخبازين ، وأن غلاما عبرانيا في السجن قد عبر لهما رؤيا هما ، وطلب أن يرسله إلى السجن ليأتي بالتعبير الذي لا مراء فيه من يوسف فأرسله الملك إليه٣٨ .

ولكن ماذا كان تأويل يوسف للرؤيا ؟

يقول تعالى :(يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ (٤٦)قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلا قَلِيلا مِمَّا تَأْكُلُونَ (٤٧)ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلا قَلِيلا مِمَّا تُحْصِنُونَ (٤٨)ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ (٤٩)٣٩

أي ، يأتيكم الخصب والمطر سبع سنين متواليات ، ففسر البقر بالسنين لأنها تثير الأرض التي تستغل منها الثمرات ، والزروع وهن السنبلات الخضر ، ثم أرشدهم إلى ما يعتدونه في تلك السنين فقال (فما حصدتم فذروه في سنبله إلا قليلا مما تأكلون) أي ، مهما استغللتم في هذه السبع السنين الخصب فادخروه في سنبله ليكون أبقى وأبعد عن إسراع الفساد إليه إلا المقدار الذي تأكلونه وليكن قليلا قليلا لا تسرفوا فيه لتنتفعوا في السنين الشداد وهن السبع السنين المحل التي تعقب هذه السبع المتواليات وهن البقرات العجاف اللاتي تأكل السمان ، لأن سني الجدب يؤكل فيها ما جمعوه في سني الخصب وهن السنبلات اليابسات وأخبر أنهن لا ينبتن شيئا ، وما بذروه فلا يرجعون منه إلى شيء ولهذا قال (يأكلن ما قدمتم لهن إلا قليلا مما تحصنون) ثم بشرهم بعد الجدب العام المتوالي بأنه يعقبهم بعد ذلك عام فيه يغاث الناس أي يأتيهم الغيث وهو المطر وتغل البلاد ويعصر الناس ما كانوا يعصرون على عاداتهم من زيت وسكر ونحوه٤٠ .

فأول البقرات السمان و السنبلات الخضر بسنين مخا صيب والعجاف واليابسات بسنين مجدبة . ثم بشرهم بأن العام الثامن يجيء مباركا كثير الخير غزير النعم ٤١ .

وهذا التأويل كان سببا في اطمئنان أولئك القوم ، وتأهبهم لما سيحل بهم أثناء السنين الشداد . كذلك كان سببا في رفع يوسف مكانا عليا . حيث جعل قائما على خزائن الأرض . قال :(قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ (٥٥))٤٢ .

٥- يونس وشجرة اليقطين :

أمر الله يونس عليه السلام – بالذهاب إلى قوم ليسوا من عشيرته ولا من بلده فخشي أن ينالوه بالأذى لأنه ليس بذي عصبية بينهم تقوم بنصره ، وظن يونس أن الله تعالى لن يضيق عليه ولن يلزمه بالذهاب إليهم . فذهب ليبتعد عن ناحيتهم فأوى إلى الفلك المشحون ، من الركاب فخرج سهمه إلى أن كان من المدحضين . وقيض الله حوتاً لالتهامه فمكث في بطنه ما شاء الله أن مكث . فنبذه بالعراء وهو سقيم . وأن الله أنبت عليه شجرة من يقطين فلما فرح بها وارتفق بفيئها سلط الله عليها حيوانا قارضا فأكل أصلها ولفحتها ريح السموم فذوت وشق ذلك على نفسه فأفهمه الله أنه قد ناله الأسف على يقطينة ليس لها شأن وقد اهتم بها . أفلا يهتم بقرية فيها أكثر من مائة ألف يريد إنقاذهم من ضلالهم ثم أرسله إليهم فآمنوا٤٣ .

يقول تعالى : (وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٩)إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١٤٠)فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (١٤١)فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (١٤٢)فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣)لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤)فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ (١٤٥)وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ (١٤٦)وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (١٤٧)فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ (١٤٨))٤٤ .

واليقطين تفعيل من قطن بالمكان إذا أقام به ، إقامة زائل لا إقامة راسخ . والمراد به على ما جاء عن ابن عباس وابن مسعود وأبى هريرة وغيرهم : الدباء وهو القرع المعروف ، وكان النبي – صلى الله عليه وسلم – يحبه وأنبتها الله تعالى مظلة عليه لأنها تجمع خصالا : برد الظل ،والملمس وعظم الورق ، وأن الذباب لا يقع عليها . وكان عليه السلام – لرقة جلده بمكثه في بطن الحوت يؤذيه الذباب ، ويؤلمه حر الشمس ، ويستطيب بارد الظل ، فلطف الله تعالى به بذلك . وذكر أن ورق القرع أنفع شيء لمن ينسلخ جلده ، واشتهر أن الشجر ما كان على ساق من عود فيشاكل تفسير الشجر هنا بالدباء . وأجاب أبو حيان : بأن : يحتمل أن الله تعالى أنبتها على ساق لتظله خرقا للعادة .وقال الكرماني : العامة تخصص الشجر بما له ساق ، وعند العرب كل شيء له أرومة تبقى فهو شجر ، وغيره نجم ، ويشهد له قول أفصح الفصحاء ، صلى الله عليه وسلم .– : شجرة الفوم.٤٥

٦- إبراهيم والدعاء لمكة :

صور القرآن الكريم مكة المكرمة عندما نزلها إبراهيم- عليه السلام - وابنه وزوجته مكاناً قفراً خاليا من الماء والنبات . وقصة إسماعيل عندما تفجر الماء من تحت قدميه مشهورة .

ولما كان إبراهيم أول من قطن هذا المكان وأسرته ، كان أول دعاء له أن دعا لأهله بالرزق من الثمر ، لأن الناس لن يحلوا بمكان إلا إذا توفر فيه عنصرا الحياة . الماء والنبات .

يقول تعالى رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ٤٦ .

هو وادي مكة ومعنى (غير ذي زرع) أي، لا يكون فيه شيء من زرع قط ٤٧ .

وكما أنه واد غير ذي زرع فاجعل لهم ثمارا يأكلونها وقد استجاب الله ذلك كما قال : (أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا)٤٨ . وهذا من لطفه تعالى ورحمته وبركته أنه ليس في البلد الحرام -مكة- شجرة مثمرة وهي تجبى إليها ثمرات ما حولها استجابة لدعاء الخليل عليه السلام ٤٩ .

ويقول جل شانه ،(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٢٦)) ٥٠ .

وظاهر الآية يدل على أن المراد دعاء إبراهيم للمؤمنين من سكان مكة بالأمن والتوسعة ، بما يجلب إلى مكة لأنها بلد لا زرع ولا غرس فيه ، فلولا الأمن لم يجلب إليها من النواحي ، وتعذر العيش فيها ، ثم إن الله تعالى أجاب دعاءه وجعله آمنا من الآفات .

فإذا كان البلد آمنا وحصل فيه الخصب تفرغ أهله لطاعة الله تعالى ، وإذا كان البلد ضد ذلك كانوا على ضد ذلك . والله تعالى جعله مثابة للناس ،والناس يمكنهم الذهاب إليه ، إذا كانت الطرق آمنة والأقوات هناك رخيصة ، ولا يبعد أن يكون الأمن والخصب مما يدعو الإنسان إلى الذهاب إلى تلك البلدة ،فحينئذ يشاهد المشاعر العظيمة ، فيكون الأمن والخصب سبب اتصاله في تلك الطاعة ٥١ .

وقد خص إبراهيم بدعائه المؤمنين ، ولكن الله واسع الرحمة وقد جعل رزق الدنيا عاماً للمؤمنين والكافرين ، ولكن تمتيع الكافر محدود بهذا العمر القصير ، وذلك جواب الله

تعالى إلى إبراهيم (قال ومن كفر فأمتعه قليلاً ثم اضطره إلى عذاب النار وبئس المصير) ، أي ، وأرزق من كفر أيضاً فأمتعه بهذا الرزق قليلاً وهو مدة وجوده في الدنيا ثم أسوقه إلى عذاب النار ٥٢

لقد استجاب الله تعالى لدعاء إبراهيم وحول مكة إلى بلد معمور ، يفد إليها الناس من كل فج ، وما زالت قائمة على دعاء الخليل ، (فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (٣)الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ (٤)) ٥٣ .

٧- النبات في سيرة محمد :

عندما نزل الوحي على الرسول – صلى الله عليه وسلم ، في مكة وبدأ يدعو الرسول إلى الإيمان بالله ، كان المكيون .. كما سجل القرآن .. " شديدي العداوة لدين محمد ، وشديدي الجدل الذي يبعد كثيراً عن المنطق . وفى هذه الصورة التي يحكيها القرآن عنهم وعن الفكرة التي يتصورونها عن النبوة بل الإغراق في الجدل ومحاولة التعجيز– .في هذه الصورة ما ينبئ بما كان النبي يلقاه منهم حينما كانوا يريدون أن يخرجوه عن طبيعته ، فلا يريدون أن يقبلوا منه دعوة رسول ولكن يريدون أن يروه في صورة أخرى لا تستند إلى الطبيعة البشرية ٥٤ .

ولما تبين لهم إعجاز القرآن ، وانضمت إليه المعجزات الأخر والبينات وألزمتهم الحجة وغلبوا ، أخذوا يتعللون باقتراح الآيات فعل المبهوت المتعثر في أذيال الحيرة .٥٥.

ولأنهم أكثر إحساسا بنعمتي الماء والنبات – لصحراوية البيئة التي يعيشون فيها– فقد تحدوا الرسول – صلى الله عليه وسلم– بشيء من هذا القبيل ، حيث تحدوه أن يأتي لهم بجنة من عنب ونخيل ويفجر الأنهار خلالها تفجيراً . وصور القرآن هذا التحدي بقوله تعالى : (وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعًا (٩٠)أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا (٩١)) .٥٦

سألوا ذلك في بلد ليس فيه ذلك . والمراد " عين لا ينضب ماؤها وبستان تستر أشجاره ما تحتها من العرصة . وخصوا النخيل والعنب بالذكر لأنهما كانا الغالب في هاتيك النواحي مع جلالة قدرهما ٥٧ .

والله لم يرد لرسوله – صلى الله عليه وسلم – أن تكون له جنة لأنه أراد أن يكون قدوة لأمته ينهض بتكاليف رسالته الضخمة وهو في الوقت ذاته يسعى لرزقه كما يسعى رجل من أمته .

وشبيه بالآية السابقة قوله تعالى في سورة الفرقان : (وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا (٧)أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا (٨)) .٥٨

إنهم يريدون من الرسول أشياء تخرجه عن نطاق بشريته يريدون منه أن يفجر الأرض وأن تكون له جنات من النخيل والعنب تجرى من حولها الأنهار ، وذلك أقصى ما يصل إليه خيالهم من التعجيز لأنهم يفتقدون الماء . وكل المعجزات التي يتصورونها إنما تنحصر في تفجير الينابيع وفى جنات النخيل والأعناب التي تجري من حولها الأنهار ، وهى صورة أبلغ ما تكون في قصر النظر وفى ربط الدعوة الفكرية بالمصالح المادية التي تطمح إليها نفوسهم ٥٩

لقد استغل مشركو مكة النبات ليتحدوا به محمدا ، وهو أمر لا يستطيع الرسول – صلى الله عليه وسلم – تحقيقه لأن عملية تكوين جنة أمر بيد الله تعالى . صحيح أنه قادر على أن يفعل ذلك . لأن إثبات قدرة الله واضحة وماثلة أمامهم في كل شيء حتى في أنفسهم . فلينظروا في أنفسهم ويقارنوها بالنبات الذي كان طرفاً في الأمثال التي صرفت لهم في القرآن

إنهم علقوا إيمانهم بالرسول – صلى الله عليه وسلم – . بان يفجر لهم الأرض ينبوعا أو بأن تكون له جنة من نخيل وعنب يفجر الأنهار خلالها تفجيرا .

وصورة أخرى للنبات في سيرة الرسول محمد وفى رحلته في سبيل الدعوة إلى الإيمان بالله ، وهى ملحوظة عندما بايعه ألف وأربعمائة على الإيمان بالله ، تحت الشجرة في أرض الحديبية .

يقول تعالى : (لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا (١٨)) ٦٠ .

فالله تعالى في هذه الآية " يخبر عن رضاه عن المؤمنين الذين بايعوا رسوله – صلى الله عليه وسلم– . تحت الشجرة ، وأنهم كانوا ألفا وأربعمائة ، وأن الشجرة كانت سمرة بأرض الحديبية ٦١ .

وظلت هذه الشجرة قائمة حتى خلافة عمر بن الخطاب ، وكان الناس يتخذونها مصلى لهم ، فبلغه ذلك ، فأمر بقطعها خشية الفتنة بها لقرب الجاهلية وعبادة غير الله تعالى منهم ٦٢

فإذا تخيلنا حال ألف وأربعمائة وهم يبايعون الرسول تحت شجرة في صحراء الجزيرة العربية تخيلناهم وهم يعانون لفحة الرمضاء . وأن الله تعالى وقاهم حر الشمس بوجود هذه الشجرة في هذا المكان . فكأن الله تعالى شمل هذه الشجرة برعايته حتى يأتي هذا اليوم .

وهي صورة تظهر أهمية الظل بالنسبة للجزيرة العربية لأن أهلها في حاجة إلى مثل هذه الأشجار يتفيأون ظلالها في طريقهم وأثناء قيامهم برحلاتهم التجارية .

٨- قصة أصحاب الجنة :

ذكر القرآن الكريم قصة في سورة القلم . يبدو أنها معروفة عند أهل مكة شائعة بينهم لأنه يذكرهم بعاقبة البطر بالنعمة ومنع الخير والاعتداء على حقوق الآخرين ، ويشعرهم أن ما بين أيديهم إنما هو ابتلاء لهم كما ابتلى أصحاب هذه القصة .

ومن خلال نصوص هذه القصة وحركاتها نلمح مجموعة من الناس ساذجة بدائية أشبه في تفكيرها بأهل الريف البسطاء ولعل هذا المستوى من النماذج البشرية كان أقرب إلى المخاطبين بالقصة الذين كانوا يعاندون ويجحدون . ٦٣.

يقول تعالى : (إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (١٧)وَلَا يَسْتَثْنُونَ (١٨)فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (١٩)فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ (٢٠)فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ (٢١)أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ (٢٢)فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ (٢٣)أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ (٢٤)وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ (٢٥)فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ (٢٦)بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٢٧)قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ (٢٨)قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٢٩)فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ (٣٠)قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ (٣١)عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ (٣٢)) ٦٤.

أي اختبرنا كفار قريش كما اختبرنا أصحاب البستان المشتمل على أنواع الثمار والفواكه عندما حلفوا فيما بينهم ليجذن ثمرها ليلا لئلا يعلم بهم فقير ولا سائل ليتوفر ثمرها عليهم ولا يتصدقوا منه بشيء (ولا يستثنون) أي فيما حلفوا به ، فلهذا حنثهم الله في أيمانهم فأصابتها آفة سماوية فأصبحت مثل الزرع إذا حصد أي هشيماً يبسا . وعندما كان وقت الصبح نادى بعضهم بعضا ليذهبوا إلى الجذاذ أي القطع وكان حرثهم عنبا . فانطلقوا وهم يتناجون فيما بينهم بحيث لا يسمعون أحدا كلامهم . ثم فسر الله تعالى ما كانوا يتخافتون به فقال تعالى (أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين) ، أي : يقول بعضهم لبعض لا تمكنوا اليوم

فقيراً يدخلها عليكم . وغدوا على قوة وشدة قادرين عليها فيما يزعمون ويرومون فلما رأوها قالوا : إنا لضالون . أي فلما وصلوا إليها وأشرفوا عليها وهى الحالة ، قال عز وجل قد استحالت عن تلك النضارة والزهرة وكثرة الثمار إلى أن صارت سوداء مدلهمة لا ينتفع بشيء منها فاعتقدوا أنهم قد أخطأوا الطريق . ولهذا قالوا (إنا لضالون) أي قد سلكنا إليها غير الطريق فتهنا عنها ، ثم رجعوا عما كانوا فيه وتيقنوا أنها هي فقالوا بل هي ولكن نحن لا حظ لنا ولا نصيب ٦٥ .

وأصحاب الجنة قوم من أهل الصلاة كانت لأبيهم هذه الجنة ،فكان يأخذ منها قوت سنته ويتصدق بالباقي ، وكان يترك للمساكين ما أخطأه المنجل ، وما أخطأه القطاف من العنب ، وما بقي على البساط الذي يبسط تحت النخلة إذا صرمت فلما مات قال بنوه : إن فعلنا ما كان يفعل أبونا ضاق علينا الأمر ونحن أولو عيال٦٦ . فهم خرجوا لينتفعوا بالجنة ويمنعوا الفقراء عنها ، فقلب الله عليهم القضية ، هكذا أهل مكة ، لما خرجوا إلى بدر حلفوا على أن يقتلوا محمدا ، وأصحابه ، وإذا رجعوا إلى مكة طافوا بالكعبة وشربوا الخمور ، فأخلف الله ظنهم وأسرو كأهل الجنة ٦٧ .

فالقرآن يسوق إلى قريش هذه التجربة من واقع بيئتهم ومما هو متداول بينهم من القصص ، فيربط بين سنته في الغابرين وسنته في الحاضرين ويلمس قلوبهم بأقرب الأساليب إلى واقع حياتهم ، وفي الوقت ذاته يشعر المؤمنين بأن ما يرونه على المشركين من كبراء قريش من آثار النعمة والثروة إنما هو ابتلاء من الله له عواقبه وله نتائجه٦٨ .

٩- سبأ وجنتهم :

كانت سبأ ملوك اليمن وأهلها وكانت التبابعة منهم ، وبلقيس صاحبة سليمان عليه السلام - من حميتهم ، وكانوا في نعمة وغبطة في بلادهم وعيشتهم واتساع أرزاقهم و زروعهم و ثمارهم وبعث الله تعالى إليهم الرسل تأمرهم أن يأكلوا من رزقه ويشكروه بتوحيده وعبادته ، فكانوا كذلك ما شاء الله تعالى ثم أعرضوا عما أمروا به فعوقبوا بإرسال السيل والتفرق في البلاد ٦٩ .

يقول تعالى : (لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (١٥)فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ

جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ (١٦)ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلا الْكَفُورَ (١٧)) ٧٠.

(آية) أي علامة على قدرة الله تعالى على أن لهم خالقا خلقهم وأن كل الخلائق لو اجتمعوا على أن يخرجوا من الخشبة ثمرة لم يمكنهم ذلك ، ولم يهتدوا إلى اختلاف أجناس الثمار وألوانها وطعومها وروائحها وأزهارها وفى ذلك ما يدل على أنها من عالم قادر . وقيل : إن الآية هي الجنتان ، كانت المرأة تمشى فيهما وعلى رأسها مكتل فيمتلئ من أنواع الفواكه من غير أن تمسها بيدها . قال القشيرى : ولم يرد جنتين اثنتين بل أراد من الجنتين يمنة ويسرة . أي : كانت بلادهم ذات بساتين وأشجار و ثمار ،تستتر الناس بظلالها . (كلوا من رزق ربكم) أي ،قيل ، لهم كلوا ، ولم يكن ثم أمر ولكنهم تمكنوا من تلك النعم الممثلة في ثمار الجنتين (واشكروا له) يعنى على ما رزقكم (بلدة طيبة) أي هذه بلدة طيبة أي كثيرة الثمار . (ورب غفور) أي والمنعم بها عليكم رب غفور يستر ذنوبكم .فجمع لهم بين مغفرة ذنوبهم وطيب بلدهم ولم يجمع ذلك لجميع خلقة .

وقوله تعالى : (فأعرضوا) يعنى عن أمره و اتباع رسله بعد أن كانوا مسلمين . (فأرسلنا عليهم سيل العرم) العرم : السد .

وقوله تعالى (وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط) ، قال أهل التفسير : الخمط : الأراك ، وقال أبو عبيدة هو : كل شجر ذي شوك فيه مرارة . (وأثل) قال الفراء : هو شبيه بالطر فاء إلا أنه أعظم منه طولا ، ومنه اتخذ منبر الرسول – صلى الله عليه وسلم . وللأثل أصول غليظة يتخذ منه الأبواب ، وورقه كورق الطر فاء ، (وشيء من سدر قليل) قال الفراء : هو السمر . قال قتادة بينما شجر القوم من خير شجر ، إذ سيره الله تعالى من شر الشجر بأعمالهم ، فأهلك أشجارهم المثمرة وأنبت بدلها الأراك والطر فاء والسدر القليل ٧١.

وهذا موعظة لقريش وتحذير لهم لكفرهم وجحودهم نعمة الله ، الذي رزقهم وأطعمهم من جوع وآمنهم من خوف .

هكذا كانت القصة القرآنية آية من آيات الله ، وعنصراً من عناصر الإعجاز القرآني بمضمونها ، وبعناصرها وخصائصها ، وكانت إثباتا للوحي ، وتدعيماً للرسالة النبوية، كما حوت العبرة والموعظة ، وكشفت عما حاق بالأمم الماضية من فنون العذاب والهلاك .

****

هوامش الفصل السابع

[١] ـ التصوير الفني في القرآن ، ص١١٩ .
[٢] ـ من الآية ١١١ من سورة يوسف .
[٣] ـ على النجدي ناصف . مع القرآن ، ص٢٤ .
[٤] ـ المرجع السابق ص ٢٤ .
[٥] ـ نفسه ، ص ٢٧.
[٦] ـ قصص الأنبياء ، عبد الوهاب النجار ، مكتبة دار التراث ، ص ٢٠ .
[٧] ـ الأعراف ، ١٩ ـ ٢٤ .
[٨] ـ ابن كثير، جـ١ ، ص ٧٨ وما بعدها بتصرف .
[٩] ـ النكت والعيون الشهير بتفسير الماوردى جـ١ ،ص١٠٦ ،دار الكتب العلمية،بيروت،ط١ ،ص١٩٩٢م.
[١٠] ـ طه ١١٥.
[١١] ـ والثالث من الأقوال أظهر كما رجحه ابن القيم في إغاثة اللهفان جـ ١ ، ص١١٣ .
[١٢] ـ الآيات ٣٥ ـ ٣٨ .
[١٣] ـ طه ١٢٠ ـ ١٢١.
[١٤] ـ في ظلال القرآن جـ١، ص ٥٩.
[١٥] ـ طه ١٧ـ ١٨
[١٦] ـ الجامع لأحكام القرآن جـ ١١ ، ص١٨٧ .
[١٧] ـ الكشاف جـ٢ ، ص٥٣٣ .
[١٨] ـ الكشاف حـ٢ ، ص٥٣٣.
[١٩] ـ طه ١٩ ـ ٢١ .
[٢٠] ـ طه ٥٣ ـ ٥٤ .
[٢١] ـ الأعراف ١٣٠.
[٢٢] ـ النكت والعيون جـ ٢ ، ص ٢٥٠ .
[٢٣] ـ تفسير المنار جـ ٩ ، ص ٧٦ .
[٢٤] ـ في ظلال القرآن ، ج٩ ، ١٣٥٦ .
[٢٥] ـ البقرة٦١ .
[٢٦] ـ أنوار التنزيل وأسرار التأويل ، البيضاوي ، دار الجيل ، بيروت ،ص١٢ وما بعدها .
[٢٧] ـ التفسير الكبير جـ٣ ، ص ٩٢ .
[٢٨] ـ مع القرآن الكريم ، ص١٢١ ، وما بعدها .
[٢٩] ـ قصص الأنبياء ، عبد الوهاب النجار ، ص ٤٥٣ .
[٣٠] ـ مريم ٢٢ـ٢٦ .
[٣١] ـ الكشاف جـ٢ ، ص ٥٠٦ وما بعدها .
[٣٢] ـ قصص الأنبياء . عبد الوهاب النجار ، ص ٤٥٤ .
[٣٣] ـ آل عمران ، ٣٧ .
[٣٤] ـ تفسير المنار جـ ٣ ، ص ٢٤٠ .
[٣٥] ـ يوسف ٣ .
[٣٦] ـ التفسير الكبير جـ٣ ، ص ١١٨ .
[٣٧] ـ يوسف ٤٣ .
[٣٨] ـ عبد الوهاب النجار ، المرجع نفسه ١٦٣ .
[٣٩] ـ يوسف ٤٦ ـ ٤٩ .
[٤٠] ـ ابن كثير جـ ٢ ص ٤٩٢ ، وما بعدها .
[٤١] ـ الكشاف جـ٢ ، ص٣٢٢ .
[٤٢] ـ يوسف ٥٥ .
[٤٣] ـ عبد الوهاب النجار ، المرجع نفسه ، ص٤٣١ .
[٤٤] ـ الصافات ١٣٩ـ ١٤٨ .
[٤٥] ـ روح المعاني ، جـ ٢٣ ، ص ١٤٦ وانظر القرطبي ، جـ١٥، ص ١٢٩ ، وابن كثير جـ ٤ ، ص ٢٠ ، والكشاف جـ ٣ ، ص٣٥٣ .
[٤٦] ـ إبراهيم ٣٧ .
[٤٧] ـ الكشاف جـ٢ ، ص ٣٨٠.
[٤٨] ـ القصص ٥٧ .
[٤٩] ـ ابن كثير جـ ٢ ، ص ٥٥٦ وما بعدها .

[٥٠] - البقرة ١٢٦ .
[٥١] التفسير الكبير جـ ٤ ، ص ٥١ .
[٥٢] - تفسير المنار جـ١ ، ص٣٨١ وما بعدها .
[٥٣] - قريش ٣ - ٤ .
[٥٤] - دراسات في التفسير الموضوعي للقصص القرآني . د . أحمد العمري ، ص ٣٨٢ ، الخانجى ، ط١.
[٥٥] - الكشاف جـ ٢، ص٤٦٥ .
[٥٦] - الإسراء ٩٠-٩١ .
[٥٧] - روح المعاني ، جـ ١٥ ، ص١٦٨ .
[٥٨] - الآيات ٧ – ٨ .
[٥٩] - دراسات في التفسير الموضوعي للقصص القرآني ، ص٣٨٣ .
[٦٠] - الفتح ١٨ .
[٦١] - ابن كثير جـ٤ ، ص ١٩٠ .
[٦٢] - روح المعاني ، جـ٢٣، ص١٠٧ .
[٦٣] - في ظلال القرآن جـ ٢٩، ص ٣٦٦٤ .
[٦٤] - القلم ١٧ – ٣٢ .
[٦٥] - ابن كثير جـ ٤ ، ص ٤٠٦ ، وما بعدها بتصرف .
[٦٦] - الكشاف جـ٤ ، ص ١٤٤ .وانظر روح المعاني ، جـ٢٩، ص٢٩والقرطبى ، جـ ١٨ ، ص ٢٣٩.
[٦٧] - مفاتيح الغيب ج٣٠ ، ص٨٠ .
[٦٨] - في ظلال القرآن جـ ٢٩، ص ٣٦٦٦ .
[٦٩] - ابن كثير جـ٣ ، ص ٥٤٧ .
[٧٠] - سبأ ١٥ - ١٧ .
[٧١] - الجامع لأحكام القرآن جـ ١٤، ص ٢٨٢وما بعدها .

الفصل الثامن

النبات والتسبيح

الفصل الثامن

النبات والتسبيح

خلق الله تعالى كل شيء وسواه وصوره في أحسن صورة لعبادته وذكره والتسبيح بحمده ، وأكرم هذه المخلوقات الإنسان الذي كرمه الله تعالى في القرآن بقوله ، ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾١ . وكذلك كرمه بسجود الملائكة له . وهو الكائن الحي الوحيد الذي خصه الله بذلك ، وكذلك هو المخلوق الذي اختص بعبادة الله عبادة كلية من صلاة وصوم وزكاة وحج .لتميزه عن سائر المخلوقات .. ولكن ليس معنى هذا أن سائر الكائنات لا تتميز بشيء .... ولكن لها ما يميزها ، ويجعلها شبيهة بالإنسان مثل السجود لله والتسبيح بحمده .

ولقد دعا القرآن في مواضع شتى إلى التفكير فيما يحيط بالإنسان من مظاهر الكون لأن هذا التفكير يدفع إلى إجلال خالقه ، والإيمان العميق بقدرته وحكمته ، وأثنى على أولئك الذين تدفعهم مظاهر الكون إلى التفكير فيها لإدراك ما أودع فيها من أسرار ، وما تدل عليه من أن مودع هذه الأسرار عليم قدير . ونعى على هؤلاء الذين يمرون بهذه المظاهر فلا تسترعي انتباههم ولا تدفعهم إلى التدبر والتفكير ٢ .

ولأن القرآن كتاب دين ، اتجه وهو يتحدث عن مظاهر الطبيعة إلى تلك الناحية التي تفضي إلى الإيمان بالله وقدرته التي لا يعجزها شيء ووجه النظر إلى أن كثيراً من تلك المظاهر يقود إلى الإيمان بالبعث والحياة الثانية ٣ .

ومن أجل ذلك يوجه النظر إلى السموات والأرض وما فيهما طالباً التدبر والتأمل ، لأن في التأمل في مظاهر الكون دعوة إلى عبادته وهى دعوة مقرونة بأسبابها ودواعيها ، والقرآن من أجل ذلك يقرن هذه المظاهر بالحديث عما في خلقها من نعم يسعد بها الإنسان ٤ .

ومن ذلك يبدو أن مظاهر الطبيعة التي نراها بأعيننا قد وجه القرآن النظر إليها ليصل بها إلى تثبيت الإيمان في النفس إيمانا منشؤه الاقتناع الذي يدفع إلى العبادة ، وأن ما يدركه العلماء كل يوم مما أودع في الطبيعة من أسرار ليزيد النفوس يقيناً بقدرة الخالق وحكمته ٥

والنبات من بين الكائنات التي يتضح فيها الانقياد والخضوع لكائن أعلى يهيمن عليه ويسيطر بحكمته العلية ، إله يعنو له كل الوجود ، وتعنو له كل الوجوه قد أحاط علمه بكل شيء . وبهذا يتخذ القرآن ما عليه الكون من نظام حجة على وحدانية الله ودليلا على تفرده بالصنع

والانقياد فيقول تعالى : (تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (٤٤))٦.

ومعنى التسبيح : تبعيد الله تعالى من السوء، وكذا التقديس من سبح في الماء وقدس في الأرض إذا ذهب فيها وأبعد ٧ .

فالسموات السبع والأرض ومن فيهن من المخلوقات تقدسه وتنزهه عما يقول هؤلاء المشركون ، وتشهد له بالوحدانية في ربوبيته وإلهيته . وقوله تعالى (وإن من شيء إلا يسبح بحمده) أي : وما من شيء من المخلوقات إلا يسبح بحمد الله ولكن لا تفقهون تسبيحهم أيها الناس لأنها بخلاف لغاتكم وهذا عام في الحيوانات والجمادات والنباتات ٨ .

ولكن كيف يكون تسبيح النبات ؟

يقول فخر الدين الرازي : اعلم أن الحي المكلف يسبح الله بوجهين : الأول : بالقول باللسان سبحان الله . والثاني : بدلالة أحواله على توحيد الله تعالى وتقديسه .

فأما الذي لا يكون مكلفا مثل البهائم ومن لا يكون حيا مثل الجمادات ، فهي إنما تسبح لله تعالى بالطريق الثاني ؛ لأن التسبيح بالطريق الأول لا يحصل إلا مع الفهم والعلم والإدراك والنطق . وكل ذلك في الجمادات محال فلم يبق حصول التسبيح في حقه إلا بالطريق الثاني . ومن الناس من قال : إن الجمادات وأنواع النبات و الحيوان كلها تسبح لله تعالى ، واحتجوا على صحة قولهم بأن قالوا : دل هذا النص على كونها مسبحة لله تعالى ولا يمكن تفسير هذا التسبيح بكونها دلائل على كمال قدرة الله تعالى وحكمته لأنه تعالى قال (ولكن لا تفقهون تسبيحهم) ، فهذا يقتضى أن تسبيح هذه الأشياء غير معلوم لنا ودلالتها على وجود قدرة الله وحكمته معلوم ، والمعلوم مغاير لما هو غير معلوم فدل على أنها تسبح لله تعالى وأن تسبيحها غير معلوم لنا ، فوجب أن يكون التسبيح المذكور في هذه الآية مغايرا لكونها دالة على قدرة الله تعالى وحكمته .

والجواب عنه من وجوه ٩ :.

الأول : أنك إذا أخذت تفاحة واحدة فتلك التفاحة مركبة من عدد كثير من الأجزاء التي لا تتجزأ ، وكل واحد من تلك الأجزاء دليل تام مستقل على وجود الإله . ولكل واحد من تلك الأجزاء التي لا تتجزأ صفات مخصوصة من الطبع والطعم واللون والرائحة .واختصاص ذلك

الجوهر الفرد بتلك الصفة المعينة من الجائزات . فلا يحصل ذلك الاختصاص إلا بتخصيص مخصص قادر حكيم .

إذا عرفت هذا ، فقد ظهر أن كل واحد من أجزاء تلك التفاحة دليل تام على وجود الإله وكل صفة من الصفات القائمة بذلك الجزء دليل تام على وجود الإله تعالى ، ثم عدد تلك الأجزاء غير معلوم وأحوال تلك الصفات غير معلومة ، فلهذا المعنى قال تعالى (ولكن لا تفقهون تسبيحهم) .

الثاني : هو أن الكفار وإن كانوا يقرون بألسنتهم بإثبات إله للعالم إلا أنهم ما كانوا يتفكرون في أنواع الدلائل ولهذا المعنى قال تعالى : (وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ) ١٠٠ . فكان المراد من قوله (ولكن لا تفقهون تسبيحهم) هذا المعنى .

الثالث : أن القوم وإن كانوا مقرين بألسنتهم بإثبات إله العالم ، إلا أنهم ما كانوا عالمين بكمال قدرته ، ولذلك فإنهم استبعدوا كونه تعالى قادرا على الحشر والنشر فكان المراد ذلك .، وأيضا فإنه تعالى قال لمحمد – صلى الله عليه وسلم – (قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا (٤٢)) ١١ . فهم ما كانوا عالمين بهذا الدليل فلما ذكر هذا الدليل قال : (تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن) فتسبيح السموات والأرض ومن فيهن يشهد بصحة هذا الدليل وقوته وأنتم لا تفقهون هذا الدليل ولا تعرفونه. بل نقول١٢ : إن القوم كانوا غافلين عن أكثر دلائل التوحيد والعدل والمعاد فكان المراد من قوله (ولكن لا تفقهون تسبيحهم) ذلك ، ومما يدل على أن الأمر كما ذكرناه قوله (إنه كان حليما غفورا)١٣.

إنه لتعبير قرآني تنبض به كل ذرة في هذا الكون الكبير ، وتنتفض روحاً حية تسبح الله ، فإذا الكون كله حركة وحياة ، وإذا الوجود كله تسبيحة واحدة .

وإنه لمشهد كوني فريد حين يتصور القلب كل زهرة وكل ثمرة وكل نبتة وكل شجرة . كلها تسبح لله وتتوجه إليه في علاه١٤ .

ولقد جاء (سبح) في بعض السور على لفظ الماضي وفي بعضها على لفظ المضارع ، وذلك إشارة إلى أن كون هذه الأشياء مسبحة غير مختص بوقت دون وقت ، بل هي كانت مسبحة أبدا في الماضي وتكون مسبحة أبدا في المستقبل ١٥ .

يقول تعالى :(سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١))١٦ .

ويقول جل شانه :(يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١))١٧ .

والتسبيح المذكور في الآية " إن حمل على التسبيح بالقول كان المراد بقوله (ما في السموات وما في الأرض) من في السموات ومن في الأرض . وأما إذا حملنا هذا التسبيح على التسبيح المعنوي ، فأجزاء السموات وذرات الأرض والجبال والرمال والبحار والشجر ، وهذا التسبيح هو المراد بالسجود ١٨ . في قوله تعالى : (وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ)١٩ .

وفي هذه الآية يخبر تعالى عن عظمته وسلطانه الذي قهر كل شيء ، ودان له كل شيء ولهذا يسجد له كل شيء طوعا وكرها وظلالهم بالغدو أي البكرات والآصال وهو آخر النهار ٢٠ .

والمراد من سجود الظلال ، ميلانها من جانب إلى جانب ، وطولها بسبب انحطاط الشمس ، وقصرها بسبب ارتفاع الشمس ، فهي منقادة مستسلمة في طولها وقصرها وميلها من جانب إلى جانب وإنما خص الغدو والآصال بالذكر لأن الظلال إنما تعظم وتكثر في هذين الوقتين ٢١ .

والله تعالى يوجه الخطاب لمن يعبد غيره ، ليقول لهم إن الأشياء وظلالها تسجد ، بل إن الكون بمن فيه وما فيه كله ساجد لله تعالى ، وأنتم أيها الجاحدون تدعون آلهة من دونه .

يقول تعالى : (أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ (٤٨)) ٢٢ .

أي أو لم يروا إلى ما خلق الله من الأجرام التي لها ظلال متفيئة عن أيمانها وشمائلها أي على جانبي كل واحد منها وشقيه . استعارة من يمين الإنسان وشماله لجانبي الشيء . أي ترجع الظلال من جانب إلى جانب منقادة لله غير ممتنعة عليه فيما سخرها له من التفيؤ ، والأجرام في أنفسها داخرة أيضا صاغرة منقادة لأفعال الله فيها لا تمتنع ٢٣ .

ولعل توحيد اليمين وجمع الشمائل باعتبار اللفظ والمعنى كتوحيد الضمير في ظلاله وجمعه في قوله (سجدا لله وهم داخرون) ، والمراد من السجود الاستسلام سواء كان بالطبع والاختيار ، يقال سجدت النخلة إذا مالت لكثرة الحمل .. والمعنى ترجع الظلال بارتفاع الشمس وانحدارها وباختلاف مشارقها ومغاربها بتقدير الله من جانب إلى جانب منقادة لما

قدرها من التفيىء واقعة على الأرض ملتصقة به على هيئة الساجد ، والأجرام في أنفسها أيضا داخرة أي صاغرة منقادة لأفعال الله تعالى فيها . وقيل اليمين والشمائل : يمين الفلك وهو جانبه الشرقي لان الكواكب تظهر منه آخذه في الارتفاع والسطوع ، وشماله ، وهو جانبه الغربي المقابل له ، فإن الظلال في أول النهار تتبدى من المشرق واقعة على الربع الغربي من الأرض وعند الزوال تتبدى من المغرب واقعة الربع الشرقي من الأرض ٢٤ .

والسياق القرآني يعبر عن خضوع الأشياء لنواميس الله بالسجود ، وهو أقصى مظاهر الخضوع ويوجه إلى حركة الظلال المتفيئة أي الراجعة بعد امتداد ، وهي حركة لطيفة ذات دبيب في المشاعر ٢٥ .

يقول تعالى : (الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥)وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (٦))٢٦ .

ذكر الحق نعمتين ظاهرتين هما اظهر أنواع النعم السماوية وهما الشمس والقمر .. ثم بين كمال نفعهما في حركتهما بحساب لا يتغير ٢٧ . ثم بين في مقابلتهما نعمتين ظاهرتين من الأرض . وهما النبات الذي لا ساق له ، و الذي له ساق . فان الرزق أصله منه ولولا النبات لما كان لآدمي رزق إلا ما شاء الله ٢٨ . وأصل النعم على الرزق الدار ، وإنما قلنا النبات هو أصل الرزق ، لأن الرزق إما نباتي وإما حيواني ولولا النبات لما عاش الحيوان٢٩ . والنبات هو الأصل ، وهو قسمان : قائم على ساق كالحنطة والشعير والأشجار الكبار وأصول الثمار ، وغير قائم كالقبول المنبسطة على الأرض والحشيش والعشب الذي هو غذاء الحيوان

والنجم فيه وجهان : أحدهما النبات الذي لا ساق له ، والثاني نجم السماء . والأول أظهر لأنه ذكره مع الشجر في مقابلة الشمس والقمر . ذكر أرضيين في مقابلة سماويين ، ولأن قوله تعالى (يسجدان) ، يدل على أن المراد ليس نجم السماء لأن من فسر به قال يسجد بالغروب ، وعلى هذا فالشمس والقمر أيضا كذلك يغربان ، فلا يبقى للاختصاص فائدة ، وأما إذا قلنا هما أرضيان فنقول (يسجدان) بمعنى ظلالهما تسجد فيختص السجود بهما دون الشمس والقمر . وفي سجودهما وجوه : أحدها ما ذكرنا من سجود الظلال . ثانيا : خضوعهما لله تعالى وخروجهما من الأرض ودوامهما وثباتهما عليها بإذن الله تعالى فسخر الشمس والقمر بحركة مستديرة والنجم بحركة مستقيمة إلى فوق فشبه النبات في مكانها بالسجود لآن الساجد يثبت . ثالثها : حقيقة السجود توجد منها وإن لم تكن مرئية كما يسبح كل منهما وإن لم يفقه كما قال تعالى (ولكن لا تفقهون تسبيحهم) ، رابعها : السجود وضع الجبهة على

الأرض والنجم والشجر في الحقيقة رؤوسهما على الأرض وأرجلهما في الهواء ، لأن الرأس من الحيوان ما به شربه ، واغتذاؤه، وللنجم والشجر اغتذاؤهما وشربهما ، بأجذالهما ولأن الرأس لا تبقى بدونه الحياة والشجر والنجم لا يبقى شيء منهما غضاً ثابتا عند وقوع الخلل في أصولهما . ويبقى عند قطع فروعهما وأعاليهما ، وإنما يقال : للفروع رؤوس الأشجار لأن الرأس في الإنسان هو ما يلي جهة فوق ، فقيل لأعالي الشجر رؤوس . إذا علمت ، هذا فالنجم والشجر رؤوسهما على الأرض دائما ، فهو سجودهما بالشبه لا طريق الحقيقة٣٠ .

فهذا الوجود مرتبط ارتباط العبودية والعبادة بمصدره الأول وخالقه المبدع . والنجم والشجر نموذجان منه يدلان على اتجاهه كله٣١ ٣٢ .

يقول تعالى : (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ٣٣ .

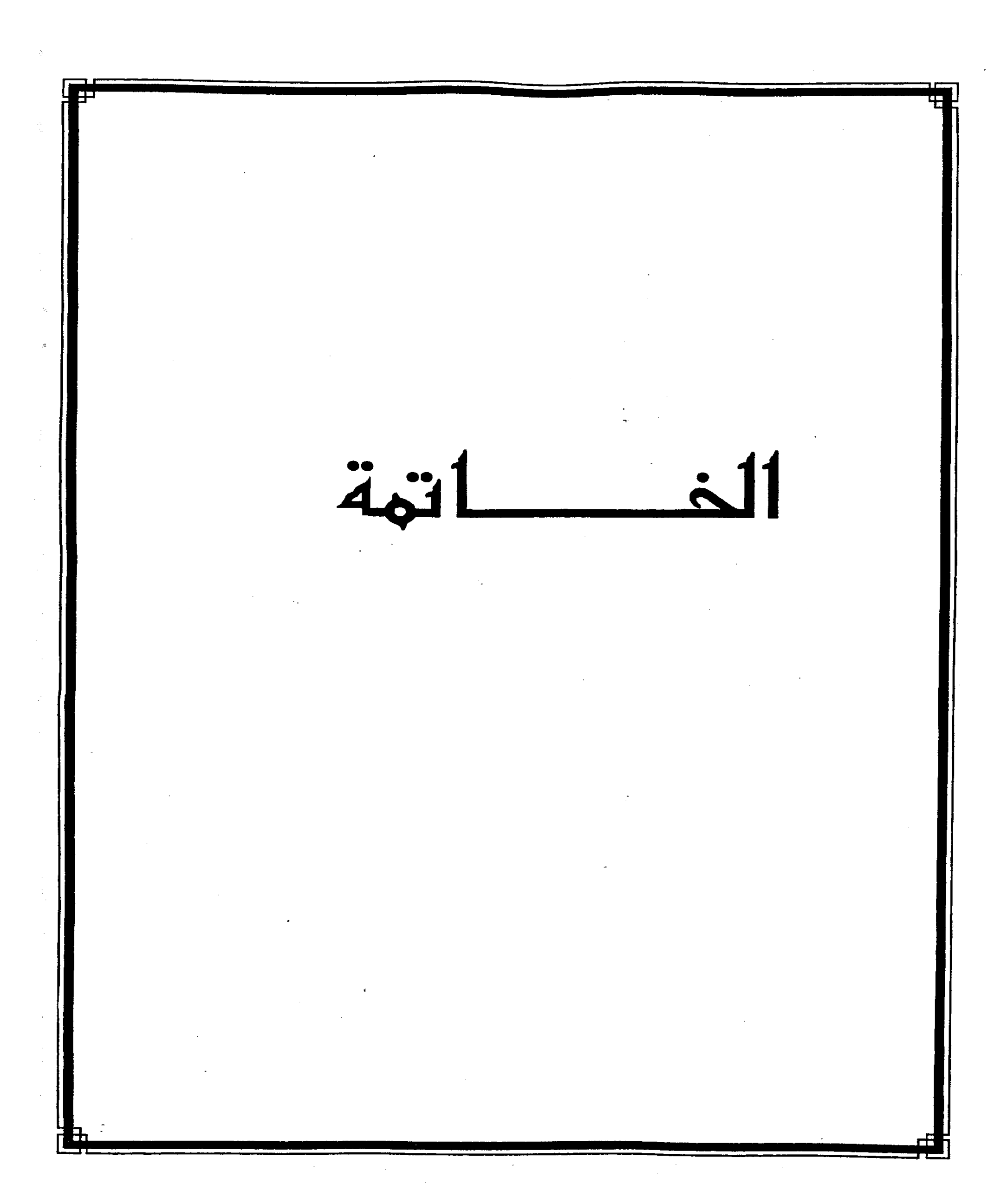
فكل ما في السماء من النجوم وغيرها وكل ما في الأرض من شجر وغير شجر يسجد في خضوع تام له وفى انقياد كامل ليصرفه كيف يشاء وليبتغى به ما يريد من غاية وهى غاية تتصل بالإنسان . فكل ما في الكون سخره له الله ، كي ينتفع في حياته وفى ذلك يقول جل شأنه في سورة الجاثية ٣٤ : (وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١٣)) ٣٥ .

◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆

هوامش الفصل الثامن

[١] - من الآية ٦٩ الإسراء .
[٢] - من بلاغة القرآن ص٣٥٣.
[٣] - المرجع السابق ، ص٣٥٤ .
[٤] - نفس المرجع ٣٥٦.
[٥] - نفس المرجع ص ٣٥٨.
[٦] - الإسراء ٤٤.
[٧] - مفاتيح الغيب ، جـ٢٩، ص١٧٩ .
[٨] - ابن كثير جـ٣، ص ٤٢.
[٩] - الكلام لفخر الدين الرازي .
[١٠] - يوسف ١٠٥ .
[١١] - الإسراء ٤٢.
[١٢] - الكلام لفخر الدين الرازي .
[١٣] - مفاتيح الغيب جـ ٢٠، ص ١٧٤ وما بعدها .
[١٤] - في ظلال القران جـ ١٥ ، ص ٢٢٣٠ وما بعدها .
[١٥] - مفاتيح الغيب جـ ٢٩ ، ص ١٧٩ وما بعدها .
[١٦] - الحديد ١ .
[١٧] - التغابن ١.
[١٨] - مفاتيح الغيب جـ ٢٩ ، ص ١٨٠، وما بعدها .
[١٩] - الرعد ١٥ ـ وكلام الرازي على اعتبار(ولله يسجد ما في السموات والأرض) ولعل الأصوب (من في السموات والأرض)

[٢٠] - ابن كثير جـ٢ ، ص ٥٢١ .
[٢١] - مفاتيح الغيب جـ ١٩ ، ص ٢٥.
[٢٢] - النحل ٤٨ .
[٢٣] - الكشاف جـ ٢ ، ص ٤١٢.
[٢٤] - تفسير البيضاوي ، ص ٣٥٧ وما بعدها .
[٢٥] - في ظلال القرآن جـ ١٤ ، ص ٢١٧٣ .
[٢٦] - الرحمن ٥ - ٦ .
[٢٧] - راجع الفصل الثاني — من هذا البحث .
[٢٨] - راجع الفصل الرابع من هذا البحث .
[٢٩] - راجع الفصل الرابع من هذا البحث .
[٣٠] - مفاتيح الغيب جـ ٢٩ ، ص ٧٩ .
[٣١] - في ظلال القرآن جـ ٢٧ ، ص ٣٤٤٨
[٣٢]
[٣٣] - الحج ١٨.
[٣٤] - تفسير سورة الرحمن وسور قصار ص ٥٣ .
[٣٥] - آية ١٣ .



الخاتمة

في التمهيد للبحث قلت إن الهدف من هذه الدراسة هو التمرس بتحليل النص الأدبي . شعرا كان أو نثرا . وبدأت بالقرآن الكريم لأنه الكتاب الذي أنزله الله على محمد – صلى الله عليه وسلم – في وقت كان العرب نابغين في فنون القول المختلفة . ولكن عندما جاء هذا الكتاب هز وجدانهم ومشاعرهم وتفوق على فصاحتهم ببلاغته وحسن بيانه . ومن هنا فهو جدير بأن يبدأ به الباحث في مجال الدراسات الأدبية .

والقرآن الكريم موضوعاته متنوعة ، وتمتد لتشمل جوانب الحياة . ومن هذه الموضوعات (النبات) الذي ذكر في آيات متعددة من القرآن ، بل إن دلالاته وإيحاءاته تنوعت من آية لأخرى مما جعلني أدرسه دراسة شاملة لكل جوانبه ، لنتعرف على الدور الذي لعبه النبات في الحياة من خلال القرآن .

لقد اتخذ النبات دليلا على فناء الحياة الدنيا ، وعلى البعث والنشور ، واتخذ مشبها به في الأمثال القرآنية واتخذ غذاء للانسان والحيوان واتخذ عونا للأنبياء في القصة القرآنية ،وعذابا وانتقاما لمن عصى الله من أقوام الأنبياء ، واتخذ غذاء لمن يدخلون الجنة ، وعذابا لمن يدخلون النار .

ومن هنا حددت منهج البحث في ثمانية فصول ، وفي كل فصل اختلف التصوير القرآني للنبات عنه في الفصل الآخر .

في البداية – وهذا ضروري – صنعت معجما مفهرسا للآيات التي استخدمتها في البحث وقسمتها تقسيما موضوعيا ، حيث جمعت الآيات التي تتحد في الموضوع جنبا إلى جنب ، وهذا المعجم يعد مرآة لمن يقرأ البحث وهي فكرة من إيحاء أستاذي الدكتور عاطف جودة ، وساعدني في غرضها كتاب الدكتور عز الدين إسماعيل " نصوص قرآنية في النفس الإنسانية " . *

وبعد هذا المعجم جاء الفصل الأول ، تحدثت فيه عن رؤية الإنسان الجاهلي للنبات ، وذلك من خلال الأدب شعرا ونثرا ، وتوصلت إلى أن النبات كان له دور كبير في حياة الجاهليين ، وكانت النصوص الأدبية خير شاهد على ذلك ، فقد دلت النصوص النثرية على أنهم عبدوا النبات وقدسوه ، حتى إنهم سموا أولادهم بأسماء مقتبسة من الأشجار والنباتات ودلت النصوص الشعرية على أنهم استخدموه فيما يتعلق بالغزل والوصف والمديح والهجاء والرثاء وغيرها من فنون الشعر الجاهلي وأغراضه .

---

* نشر مكتبة غريب

أما الفصل الثاني فكان بعنوان " الظواهر الكونية وعلاقتها بالنبات " سواء كانت هذه الظواهر في السماء أم في الأرض . فالسماء تمنح الأرض الحياة بما تدره عليها من أمطار وأنوار تيسر للمخلوق عليها سبل الحياة . وبهذا يعتبر كل كائن حي وليد هذين الأبوين المتصلين اتصالا شرعه الله لهما منذ خلقهما إلى أن يأذن بزوالهما .

في السماء الشمس والقمر ، أما الشمس فمعها الفصول التي تنتظم بها الحياة الإنسانية والحيوانية والنباتية ، ومعها النهار الذي يضرب فيه الإنسان باحثا عن وجوه كسبه ومعاشه .

وأما القمر فمعه الأهلة ومعه منازله التي يسير فيها على مدار كل شهر . والغاية من زيادة القمر ونقصانه واكتماله و احتجابه وتنقله في منازله معرفة المواقيت في العبادات وفي المعاملات وغيرها من مصالح الإنسان .

وكانت نتيجة هذا الفصل أن أوضحت أن النبات من بين الكائنات الحية التي نتجت عن علاقة السماء بالأرض ، بل إنه يعتبر أهمها لأن عليه غذاء الإنسان .

وفي الفصل الثالث تحدثت عن " الظاهرة المائية في القرآن وعلاقتها بالنبات " ، وأوضحت أن كل كائن حي مصدره الماء ، انطلاقا من قوله تعالى " وجعلنا من الماء كل شيء حي " . وقادني هذا إلى الحديث عن دور النبات في بلد صحراوي مثل مكة لأنها بيئة فقيرة إلى الماء ، وتجد معاناة في سبيل الحصول عليه .

وكانت النتيجة عدم وجود أنماط زراعية لديهم . والشيء الذي خدمتهم فيه الأمطار – وكانت قليلة –هو رعي الأغنام ، مما جعلهم في سعي و ترحال وراء الأعشاب .

وهناك آيات قرآنية تحدثت عن الألوان مرتبطة بالنبات تكملة للتنسيق الكلي لهذا الكون . وتوصلت من خلال حديثي عن الألوان في القرآن إلى أن العرب كانوا يعيشون في بيئة يشعرون من خلالها بقيمة الجمال في عالم النبات ، ولكن هذا لم يهدهم إلى تقديم أنواع من الفنون تعتمد على براعة التقليد لعالم النبات . لكنهم برعوا في تقديم أوصاف رقيقة له من خلال أشعارهم التي تدل على حسهم المرهف .

وفي هذا الفصل أيضا تحدثت عن قضية البعث التي استدل القرآن عليها بالنبات في آيات كثيرة حيث شبه إحياء الأجسام بعدما صار عظاما باليه بإنزال الماء علي الأرض ثم إخراج النبات منها .

أما الفصل الرابع : فكان عن علاقة النبات بحياة الإنسان وموته ، لأن في وجود النبات حياة الإنسان ، وفي عدم وجوده هلاكا له .

وقسمت هذا الفصل قسمين أساسين :

النبات وعلاقته بالحياة والموت في الآيات المكية .

النبات وعلاقته بالحياة والموت في الآيات المدنية .

أولا : في القسم المكي :

أثبت أهمية النبات بالنسبة لأهل مكة الذين لم يكونوا زراعا يرتبطون بالأرض ، إنما كانوا أقواما غلبت عليهم البداوة وعاش أكثرهم عيشة الارتحال . لذلك كانت ظاهرة الوأد منتشرة بينهم وكانت بسبب خوفهم من الفقر ورغبتهم في التخفف منه . فبلادهم ، كما قلت كانت شحيحة الزاد وكثيرا ما انتابها القحط والجدب وقاسى سكانها مرارة الجوع بسبب الجفاف . ومن أجل هذا كانت رحلتا الشتاء والصيف التجاريتان تعويضا لهم عن فقر بيئتهم إلى النبات والقرآن نص على هذا .

وفي هذا القسم تحدثت عن عدة أشياء قائمة على النبات وتحدث عنها القرآن مثل قضية الرزق التي تحدث عنها القرآن في أماكن متفرقة ، ذاكرا أن الرزق بيد الله لأنه هو الذي قدر أقوات البشر ، والرزق قائم على النبات . وبالتالي العلاقة مباشرة بينهم .

وكذلك تحدثت عن طعام الأنعام (الأب) لأن أهل مكة كانوا مرتبطين بحرفة الرعي .

وبما أن الظل من مراتع البدوي و ومناعمه ، فقد حظي بنصيب من هذا البحث بوصفه أحد الدلالات النباتية التي خاطبت عقول أولئك القوم الذين عاشوا في صحراء جرداء تندر فيها الأشجار التي تقيهم حر الشمس ، أو يجدونها في طريقهم أثناء رحلاتهم التجارية فينشدون الراحة في أفيائها .

ومن الدلالات النباتية (النار) ، حيث كان للعرب شجرتان إحداهما المرخ والأخرى العفار ، إذا أخذ منهما غصنان فحك أحدهما بالأخر انقدح من بينهما شرر النار .

وكذلك من الدلالات النباتية في الآيات المكية (الخمر) التي كانت تصنع من ثمرات النخيل والعنب ، والقرآن نص على ذلك من قبيل تصوير الواقع المكي في ذلك الوقت .

ثانيا : في القسم المدني :

في المدينة المنورة كانت الطبيعة غنية عنها في مكة ، لأن أهل المدينة كانوا يميلون إلى الاشتغال بالزراعة ، وكانوا يعتنون بغرس الأشجار المثمرة .

وعندما انتقل الرسول – صلى الله عليه وسلم – إلى المدينة انقسم المجتمع المدني إلى طبقتين هما طبقة المهاجرين وطبقة الأنصار . وتحت هاتين الطبقتين عدة طبقات ، فأصبح هناك فقراء ومساكين ، وأصبح هناك محاربون غزاة في سبيل الله ، وعاملون لحساب الدولة ،وعاملون في المساجد لأجل هذا كان لابد من قوانين جديدة تضمن لهم سبل الحياة مثل الأرض وتتمثل هذه الأمور في : الزكاة – الإنفاق – الصدقة – الصوم ، ومن هنا يظهر الاختلاف بين المجتمع المكي والمجتمع المدني . المجتمع المكي كان فقيرا ، لذلك لم تفرض فيه هذه الأشياء . المجتمع المدني كان غنيا لذلك اختاره الله لرسوله وللمهاجرين معه حتى يجدوا ما يعيشون عليه .

ومن الأمور التي تغيرت في المجتمع المدني –وهي من النبات– الخمر التي كانت معاقرتها منتشرة في المجتمع المكي ، ولكنها في المجتمع المدني حرمت تمشيا مع سياسة الإصلاح الاجتماعي والأخلاقي .

أما الفصل الخامس : فكان عن دور النبات في الجنة والنار وقسمت هذا الفصل قسمين :

١- النبات في الجنة .

٢- النبات في النار .

في القسم الأول : تحدثت عن الرزق في الجنة ، وقلت أن مصدره الفواكه من النخيل والرمان و السدر والطلح ، وذكرت كلام المفسرين في السدر والطلح .

وتطرق الحديث إلى الظل في الجنة ، لأن القرآن احتفل به لترغيب أهل مكة في الإيمان بالله القادر على أن يأتي لهم بما تفتقده بيئتهم ، وتصبو إليه نفوسهم لأن الظل من مراتع البدوي ومناعمه ، التي إليها يطمح خياله وتهتف بها أشواقه .

والجمال عنصر مقصود في الجنة ، لأن اللون الأخضر دائم في الجنة غير منقطع ، والخضرة أحسن الألوان والنفس تنبسط بها أكثر من غيرها من الألوان ، حتى أن ثياب أهل الجنة وصف بالخضرة .

وفي القسم الثاني ، من هذا الفصل تحدثت عن طعام أهل النار ، و قلت إن مرده إلى شجرة الزقوم التي ذكرت في ثلاث آيات مكية ، لأن أهل مكة أنكروا الإله . والضريع و الغسلين كذلك من أطعمة أهل النار .

والقرآن صور الظل في النار بصورة منفرة ، وهذا طبيعي لأنه من دخان أجساد من أدخلوا فيها .

أما الفصل السادس ، فكان جوهر هذا لبحث وذلك لوضوح الصورة النباتية فيه عن غيره من الفصول ، وهو عن " النبات وضرب الأمثال في القرآن " وفي الأمثال لاحظت أن النبات كان طرفا ثانيا في بعضها .

وقسمت هذا الفصل قسمين :

١- النبات وضرب الأمثال في الآيات المكية .

٢- النبات وضرب الأمثال في الآيات المدنية .

في الآيات المكية ، لاحظت أن النبات كان مشبها به في أكثر من موضوع في أمثال القرآن

فمثلا اتخذ مشبها به في الآيات التي تتحدث عن مسألة البعث ، التي أنكرها كفار مكة عندما نزل القرآن ، ومن أجل هذا ألح القرآن على إقناعهم بمختلف الأدلة والبراهين .

ولجأ القرآن إلى التمثيل يصور به فناء هذا العالم الذي نراه مزدهرا أمامنا عامرا بألوان الجمال . فيجد في الزرع يرتوي بالماء فيصبح بهيجا ، نضرا يعجب رائيه ، ولكن لا يلبث أن يذبل ويصفر ويصبح هشيما تذروه الرياح ، يجد القرآن في ذلك شبها لهذه الحياة لدنيا .

ومن دلائل التنويع في الأمثال التي ضربها القرآن لأهل مكة مثل للقلب الإنساني ، إذ يشبه بالأرض الطيبة ، والقلب الخبيث إذ يشبه بالأرض الخبيثة ، لأن كليهما منبت زرع ، ومأتي ثمر .

وفي سياق الطيب والخبث يضرب الله مثلا للكلمة الطيبة ومثلا للكلمة الخبيثة . الكلمة الطيبة كالشجرة الطيبة ثابتة مثمرة ، والكلمة الخبيثة كالشجرة الخبيثة قد تهيج وتتعالى

وتتشابك ، ولكنها تظل هشة ، وتظل جذورها في التربة ، وما هي إلا فترة ثم تجتث من فوق الأرض فلا قرار لها ولا بقاء .

وفي سورة الكهف مثل استغل فيه النبات لإبراز قدرة الله تعالى ، وهو مثل ورد في شكل قصة . وفيه نلحظ مقارنة بين رجلين أحدهما له جنتان فيهما من كل صنوف النبات ، ولم يحمد ربه على هذه النعم ، أما الآخر فكان رجلا فقيرا لا يملك شيئا ، ورغم ذلك كان حامدا لله على نعمه وكانت النتيجة أن أذهب الله كل ما يملك الغني ، ولم يُبق له منه شيئا جزاء له على كفره وعناده .

وفي القسم المدني : تناولت الأمثال القرآنية التي كان النبات طرفا ثانيا فيها عدة مسائل منها فناء الحياة ، كما وصفها القرآن للمدنيين .

وفي الآيات المدنية أمثال تحدثت عن الإنفاق في سبيل الله وشبهت حال المنفقين في زيادة أموالهم وتضاعف حسناتهم بحال النبات في نموه وإخراج ثمره .

ولاشك أن من أروع الأمثال القرآنية في الآيات المدنية مثلا يصور الله من خلاله استقرار نوره والإيمان به في قلب المؤمن ، حيث شبه هذا الإيمان وهذا الفيض الإلهي بفتيلة مضيئة داخل مصباح ، المصباح داخل زجاجة ، هذه صورة ثم شبه هذه الصورة بصورة أخرى تتمثل في الكوكب اللؤلؤي الذي يستمد ضوءه من شجرة زيتونة لا يحدد مكانها ولا زمانها . وهذا هو دوره شجرة الزيتون في هذا المثل .ويجد القرآن في الزرع وقد نبت ضئيلا ضعيفا ثم لا يلبث ساقه ، أن يقوى بما ينبت حوله من البراعم ، فيشتد بها ساعده ، ويغلظ حتى يصبح بهجة الزارع وموضع إعجابه . يجد في ذلك صورة شديدة المجاورة لصورة أصحاب محمد ، فقد بدؤوا ضعافا ثم أخذوا في الكثرة والنماء ، حتى اشتد ساعدهم ، وقوى عضدهم ، وصاروا قوة تملأ قلب محمد بهجة ، وقلب الكفار حقدا وغيظا .

والفصل السابع : كان عن دور النبات في القصة القرآنية ، إذ كان له دور في القصص الآتية : آدم –موسى – مريم – يوسف – يونس – محمد – سبأ – أصحاب الجنة – إبراهيم .

١- في قصة آدم

نلاحظ أن آدم أخرج من الجنة بسبب النبات وذلك عندما عصى ربه بالأكل من الشجرة التي حرمها ربه عليه وكان ذلك نتيجة وسوسة إبليس له وحثه على الأكل من الشجرة بدعوى أنها شجرة الخلد ، والملك الذي لا يبلى .

وتجربة آدم هذه كانت تربية وإعدادا لهذا الخليفة ، وكانت إيقاظا للقوى المذخورة في كيانه ، وكانت تدريبا له على تلقي الغواية وتذوق العاقبة وتجرع الندامة .

٢- في قصة موسى :

لاحظت للنبات أكثر من دور : أولها عندما تحامل على عصاه في المشي ، وهش بها أوراق الشجر لتأكله غنمه وثانيها : عندما نزل موسى نبيا على قوم فرعون ، وتحداهم بعصاه تلك فلم يؤمنوا به فعاقبهم الله تعالى بالجدب وضيق المعيشة لعلهم يتذكرون ضعفهم أمام قدرة الله ، وأبرز أدوار النبات في قصة موسى يظهر عندما سأله بنو إسرائيل نوعا آخر من الطعام وهم في التيه ، حيث سألوه أن يبدلهم المن والسلوى بما تنبت الأرض من البقل والقثاء والفوم والعدس والبصل ، فباءوا بغضب من الله .

٣- قصة مريم :

لم يذكر فيها من النبات سوى النخلة ، ولكنها ذكرت قائمة بدور أساس ، إذ أثمرت في غير موعد الثمر ، لتدر الرزق على مريم وهي في حالة المخاض .

٤- قصة يوسف :

وفيها رأى الملك في منامه سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف ، وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات وهي رؤيا أقلقته وطلب من يفسرها له ، فلم يجد غير يوسف ، الذي فسرها له تفسيرا لا يقبل جدلا ولا محاجة . حين أول البقر السمان و السنبلات الخضر بسنين مخا صيب . والعجاف واليابسات بسنين مجدبة ، ثم بشرهم بأن العام الثامن يجيء مباركا كثير الخير غزير النعم . وهذا التأويل كان سببا في اطمئنان أولئك القوم ، وتأهبهم لما سيحل بهم في السنين الشداد . كذلك كان سببا في خروج يوسف من السجن ورفعه مكانا عليا ، إذ جعل قائما على خزائن الأرض .

٥- قصة يونس :

ذكر من النبات في قصة يونس اليقطين ، إذ أنبتها الله تعالى عليه وهو في موقف ضيق لأنها تجمع خصالا برد الظل ، والملمس ، وعظم الورق . وأن الذباب لا يقع عليها .

٦- قصة إبراهيم :

مكة بلد لا زرع ولا غرس فيه ، لذلك عندما حل إبراهيم دعا للمؤمنين من سكانها بالأمن والتوسعة والخصب والرزق من الثمر لأن هذه أمور تدعو الإنسان إلى الذهاب إلى تلك البلدة .

٧- في سيرة سيدنا محمد صلي الله عليه وسلم :

لاحظت للنبات أكثر من دور ، أولا : عندما تحداه أهل مكة أن يأتي لهم بجنة من عنب ونخيل ويفجر الأنهار خلالها تفجيرا ، وهذا شيء لم يرده الله لرسوله ، ولكنه أراد أن يكون قدوة لأمته وهو في الوقت ذاته يسعى لرزقه كما يسعى رجل من أمته .

وصورة أخرى للنبات في سيرة سيدنا محمد وفي رحلته في سبيل الدعوة إلى الإيمان بالله نلاحظها عندما بايعه ألف وأربعمائة على الإيمان تحت الشجرة في أرض الحديبية .

٨- سبأ وجناتهم :

كانت سبأ ملوك اليمن ، وكانوا في نعمة وغبطة في بلادهم وعيشتهم واتساع أرزاقهم و زروعهم وثمارهم ، ولكنهم أعرضوا عن ذكر الله وشكره على النعم فعاقبهم الله بأن بدل ثمار جنتيهم إلى أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل . وفي هذا موعظة لقريش وتحذير لهم لكفرهم وجحودهم لنعمة الله ، الذي رزقهم وأطعمهم من جوع وآمنهم من خوف .

٩- قصة أصحاب الجنة في سورة القلم :

وهي قصة ذكرها الله لأهل مكة . يحذرهم فيها من عاقبة البطر بالنعمة . ومن خلال نصوصها نلمح مجموعة من الناس ساذجة بدائية أشبه في تفكيرها بأهل الريف البسطاء ولعل هذا المستوى من النماذج البشرية كان أقرب إلى المخاطبين بالقصة الذين كانوا يعاندون ويجحدون .

وفي الفصل الثامن والأخير : تحدثت عن كيفية تسبيح النبات بحمد الله ، بوصفه كائنا حيا يتضح فيه الانقياد والخضوع للإله الأعلى .

وذكرت اختلاف العلماء في تسبيح الكائنات الحية غير الإنسان . فمنهم من قال إن التسبيح يكون بالقول مثل الإنسان . ومنهم من قال إن التسبيح يكون بدلالة الأحوال على توحيد الله . ثم أوضحت أن النبات يسبح بالطريق الثاني وكان هذا رأي الإمام فخر الدين الرازي

ودلالة أحوال النبات على توحيد الله تكون بسجود ظلاله ، أي ميلانها من جانب إلى جانب وطولها بسبب انحطاط الشمس وقصرها بسبب ارتفاع الشمس .

والهدف من هذا الفصل هو إظهار عبادة غير الإنسان لله ، وفي هذا توجيه لأهل مكة الذين عاندوا محمدا وجادلوه ، فقال لهم إن هذا الكون كله ساجد لله وأنتم أيها الجاحدون تدعون آلهة من دون الله .

الفهارس

١- فهرس بألفاظ النباتات والأشجار الواردة في الكتاب

٢- فهرس الأسماء

أولا

فهرس بألفاظ النباتات والأشجار الواردة في الكتاب

فهرس بألفاظ النباتات والأشجار الواردة في الكتاب

النبات	الصفحة
الأب	١٥١
الأثل	١٢٢
الأراك	١٣٧
الأشجار	٨
الأعناب	١٠٩
بوذى	١٠
البصل	١٠
البطم	١١
البقل	١٢٧
البلوط	١١
التربنتين	١١
التمر	١٤
التين	٩
الجذع	١٢٨
الحشيش	١٤٦
الحطام	٦٠
الحنطة	٤٦
الحنظل	٤٦
الدباء	١٣١
ذات أنواط	١٦
الرمان	٤٣
الزقوم	٤٣
الزيتون	٤٣
زيتونة	١١٥
السدر	٨٤

فهرس بألفاظ النباتات والأشجار الواردة في الكتاب

السمر – السمرة ١٣٧
سنابل ٤
الشطء ١١٦
الشعير ١٤٦
الصبار ٩
الطرفة ١٧
العدس ١٢٦
العرفج ١٧
العصا ١٢٥
العضاه ١٧
العفار ٦٢
العنب ٨
العوسج ١٧
السرو ٩
الغاف ١٧
الغسلين ٩٣
الغيضة ٧
فاكهة – ٤٤
الفوم ١٢٦
القثاء ١٢٦
القرظ ١٧
القرمل ١٧
القضب أ
القطن ١٣
قنوان ٤٥
المرخ ٦٥
المظ ١٧

فهرس بألفاظ النباتات والأشجار الواردة في الكتاب

النبات ٧٧
النجم ١٤٩
النخل ١٣١
النخيل ١٣٥
النواة – ٢٨
الهشيم ٦٢
اليقطين ١٣٤

◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆

ثانيا

فهرس أسماء الأعلام

الاسم	الصفحة
آدم	٤
إبراهيم	٥
إسرائيل	١٢
إسماعيل	١٣
الأصبهاني	١٠٢
الألوسي	١٠٢
أمين الخولي	٢
بليني	٩
البيهقي	٨٩
ابن تيمية	١٦٩
تين	١٠
جريم	٩
أبو جعفر بن جرير	١٢٤
أبو جهل	٩٦
حزقيال	١٢
أبو حيان الأندلسي	٤٥
خالد بن الوليد	١٧
داوود	١٠٣
دبية	١٧
ابن دريد	١٧
ديانا	٨
الربيع بن أنس	٩٥
الزركشي	١٦٩
الزمخشري	١٧٠

فهرس أسماء الأعلام

أبو السعود ١٧٠
سعيد بن جبير ٧٢
سليمان ١٠٣
سيد قطب ٢
شوقي ضيف ٢
شوبنهاور ١٠٣
الضحاك ٩٥
عائشة عبد الرحمن ٣
ابن عباس ١٢٦
أبو عبد الله أباذي ١٠١
أبو عبيدة ١٣٨
عمر بن الخطاب ١٤٦
عمرو بن ربيعة ١٣
الغزالي ٤٩
فخر الدين الرازي ٨٢
الفراء ١٣٨
فرعون ١٥٧
قتادة ١٨
القرطبي ٩٤
قيصر ٤٤
الكرمانى ١٥
الماوردي ٦٠
محمد (ص) ٨٢
محمد عبده ٩٥
مرثد بن عبدالله ٨٩
مريم ١٢٣

فهرس أسماء الأعلام

ابن المنذر ٨٢
موسى ١٢٥
أبو هريرة ١٣٢
ياقوت الحموى ١٦
يحيي بن كثير ٨٢
يوحنا ١٠٣
يوسف ١٢٣
يونس ١٢٣

المصادر والمراجع

د . أحمد بدوي . من بلاغة القرآن ، القاهرة ، نهضة مصر ، الطبعة الثانية

د . أحمد جمال العمري . دراسات في التفسير الموضوعي للقصص القرآني ، القاهرة ، مكتبة الخانجي ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٨ م .

أحمد رأفت . الألوان في القرآن ، القاهرة ، مطبعة الأمانة ، ١٩٩٠ .

الألوسي .

١- بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب ، بيروت ، دار الكتب العلمية . د . ت

٢- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، بيروت ، دار إحياء التراث العربي ، الطبعة الرابعة ١٩٨٥ م .

الباقلاني . إعجاز القرآن ، القاهرة ، دار المعارف ، تحقيق السيد صقر .

البيضاوي . أنوار التنزيل وأسرار التأويل ، بيروت ، دار الجيل . د . ت

ابن تيمية . تفسير سورة النور ، حلب ، دار الوعي ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٧ .

د . ثناء أنس الوجود . رمز الماء في الأدب الجاهلي ، القاهرة ، مكتبة الشباب ، ١٩٨٦ م .

الجرجاني ، ١- دلائل الإعجاز في علم المعاني ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٨ م .

٢- الرسالة الشافية في الإعجاز القرآني ، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن القاهرة ، دار المعارف ، الطبعة الرابعة ، تحقيق د . خلف الله د . محمد زغلول سلام .

جمال الكومي ، الماء سائل الحياة ، القاهرة ، دار الاعتصام / ١٩٩٠ م .

د . جواد علي . المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، بغداد ، منشورات جامعة بغداد ، بدون تاريخ .

جيمس فريزر ١- الغصن الذهبي ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة ، ١٩٧١ م ترجمة أحمد أبو زيد .

٢- الفولكلور في العهد القديم ، القاهرة دار المعاف ، ط ثانية ، ١٩٨٢ م .

أبو حاتم السجستاني . كتاب النخل ، القاهرة ، دار اللواء للنشر ، بدون .

د . حسين الحاج حسن . الأسطورة عند العرب في الجاهلية ، بيروت ، المؤسسة الجامعية للنشر ، ط أولى ، ١٩٨٨ م .

أبو حيان الأندلسي . تفسير البحر المحيط ، القاهرة ، دار الفكر العربي ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٣ م .

الخطابي . إعجاز القرآن ، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ، القاهرة ، دار المعارف ، الطبعة الرابعة .

الخطيب القزويني . عجائب المخلوقات ، بيروت ، دار الآفاق ، بدون تاريخ .

ابن دريد . الاشتقاق ، القاهرة ، مكتبة الخانجي ، الطبعة الثالثة ، تحقيق ، عبد السلام هارون .

ديورانت . قصة الحضارة ، بيروت ، دار الجيل ، ١٩٨٨ م ، ترجمة د . زكي نجيب محمود .

الرازي . مفاتيح الغيب " التفسير الكبير " ، القاهرة ، دار الفكر العربي ، ١٩٨١ ، بيروت ، دار الكتب العلمية ١٩٩٠ م .

الرماني . النكت في إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ، القاهرة ، دار المعارف ، الطبعة الرابعة .

الزبيدي . تاج العروس ، القاهرة ، دار الفكر العربي ، بدون تاريخ .

الزركشي . البرهان في علوم القرآن ، بيروت ، المكتبة العصرية ، صيدا ، الطبعة الثانية .

المصادر والمراجع

الزمخشري . الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل ، القاهرة ، دار الفكر العربي .

أبو السعود ألعمادي .إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب السليم .

السيوطي . معترك الأقران في إعجاز القرآن ، القاهرة ، دار الفكر العربي . تحقيق محمد البجاوي .

سيد قطب . ١- التصوير الفني في القرآن ، القاهرة ، دار المعارف ، الطبعة العاشرة .

٢- في ظلال القرآن ، القاهرة ، دار الشروق الطبعة السابعة عشر .

٣- مشاهد القيامة في القرآن ، القاهرة ، دار الشروق ، الطبعة العاشرة .

د . شوقي ضيف . تفسير سورة الرحمن وسور قصار ، القاهرة ، دار المعارف ، الطبعة الثانية .

د . طه حسين . مرآة الإسلام ، القاهرة ، دار المعارف ، الطبعة السابعة .

الطبري . جامع البيان في تفسير القرآن ، بيروت ، دار المعرفة ، ١٩٨٦ .

د عائشة عبد الرحمن . ١- التفسير البياني للقرآن ، القاهرة ، دار المعارف ، الطبعة السابعة .

٢- الإعجاز البياني ومسائل ابن الأزرق ، القاهرة ، دار المعارف ، ط سابعة .

د . عاطف جوده نصر . الخيال ، مفهوما ته ووظائفه ، القاهرة ، الهيئة العامة ، ١٩٨٤ .

د . عبد الحميد يونس ، الحكاية الشعبية ، القاهرة ، مكتبة دار التراث ، ١٩٦٨ .

د . عبد الوهاب النجار . قصص الأنبياء ، القاهرة ، مكتبة دار التراث ، بدون .

د . عز الدين إسماعيل . نصوص قرآنية في النفس الإنسانية ، القاهرة ، مكتبة غريب .

على النجدي ناصف . مع القرآن ، القاهرة ، دار المعارف ، بدون تاريخ .

الغزالي (الإمام) ١- إحياء علوم الدين ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٩٨٦م .

٢- مشكاة الأنوار ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة ، ١٩٧١م . تحقيق د . أبو العلا عفيفي .

د . فتحي عامر . المعاني الثانية في الأسلوب القرآني ، الإسكندرية ، منشأة المعارف ، بدون .

القرطبي . الجامع لأحكام القرآن ، بيروت ، دار إحياء التراث ، بدون تاريخ .

ابن كثير . ١- تفسير القرآن العظيم ، القاهرة ، مكتبة مصر ، بدون تاريخ .

٢- قصص الأنبياء ، القاهرة ، دار الحديث ، تحقيق أحمد عبد العزيز .

ابن الكلبي . الأصنام ، القاهرة ، الدار القومية للطباعة والنشر ، ١٩٦٥م تحقيق احمد زكي .

الماوردي . النكت والعيون ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، الطبعة الأولي ، ١٩٩٢م .

د . محمد بيومي مهران . تاريخ العرب القديم ، الأسكندرية ، دار المعرفة الجامعية ، ١٩٨٩م .

محمد رشاد الطوبي . وجعلنا من الماء كل شيء حي ، القاهرة ، دار المعارف (سلسلة اقرأ) ، الطبعة الثانية .

محمد رشيد رضا . تفسير القرآن الحكيم (المنار) القاهرة ، الهيئة المصرية العامة ، ١٩٩٠ م ، بيروت ، دار المعرفة .

محمد عبده . تفسير جزء عم . بيروت ، دار ابن زيدون ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٩ م .

د . محمد علي الصابوني . صفوة التفاسير بيروت ، دار القرآن .

محمد فؤاد عبد الباقي . المعجم المفهرس لألفاظ القران ، القاهرة ، دار الحديث .

د . محمد محمود عبد الله . مظاهر كونية في معالم قرآنية ، القاهرة ، مؤسسة الخليج العربي ، ١٩٩٢م .

د . محمود بن الشريف . الأمثال في القرآن ، القاهرة ، دار المعارف ، الطبعة الرابعة (اقرأ) .

ابن مسكويه . الحكمة الخالدة ، بيروت ، دار الأندلس ، تحقيق عبد الرحمن بدوي .

المصادر والمراجع

ابن منظور .لسان العرب ،المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر ،(طبعة مصورة عن طبعة بولاق) .

موسكاتي . الحضارة السامية القديمة ، القاهرة ، دار الكتاب العربي ، ترجمة يعقوب بكر .

د . نظمى أبو العطا ، إعجاز النبات في القرآن ، القاهرة ، مكتبة النور .

ابن هشام . السيرة النبوية ، بيروت ، المكتبة العصرية ، صيدا ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٤ م .

ياقوت الحموي . معجم البلدان ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٠ م .

◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆

دار المصري للطباعة
ت : ٠٥٠٧٤٨٢٩٢٩ / ٠١٠٣٣٨٨٩١١
يطلب من مكتبة السعادة
ت : ٠٥٥٣٣٠٠٧٤٢ / ٠١٠٣٩٤٩٦٤٨
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية
٢٠٠٨/١١٣٨٠